مهرجان القراءة للجميع / مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
الأعمال الفكرية

د. رفعت السعيد

التيارات السياسية فى مصر (رؤية نقدية)

الماركسيون / الإخوان الناصريون / التجمع



اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة

التيارات السياسية فى مصر

(رؤية نقدية)

المارکسیون/ الإخوان الناصريون/ التجمع

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: حركة ١٩٧٥

التقنية: ألوان زيتية وأكريلك

التقنية: ٧٠ × ٩٨ سم

محمد البنانى (١٩٣٦ -)

فنان مغربى، درس الفن فى مرسم شاربانتيه ومرسم جوليان وفى مدرسة الفنون بباريس، وهو مزخرف يجيد حياكة الأبسطة وأنوال السجاجيد، ويلتقى مع الفنون الأوربية فى اتجاهاتها الحديثة، مع الحفاظ التام على عراقة الفنون العربية، وفى تجريده المنشور بالغلاف يمكننا أن نتأمل بصريًا صورة المزاوجة بين المنجز العربى والمنجز الأوربى.

محمود الهندى

التيارات السياسية فى مصر

(رؤية نقدية)

الماركسيون/ الإخوان الناصريون/ التجمع

د. رفعت السعيد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

التيارات السياسية فى مصر (رؤية نقدية)
الماركسيون/ الإخوان الناصريون/ التجمع
د. رفعت السعيد

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيري على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر في العالم العربي أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافي أسماء رواد في مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هي تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالي في مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعي بعد أن حققت في العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التي أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام في «مكتبة الأسرة» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

بـــدايـــة

كل ما يتذكره المصريون - ولستُ أدرى لماذا - عن هيرودوت أنه قال:«مصر هبة النيل» ربما لأنهم عشقوا النيل، وتعلقوا بقطرات مائه العطرة.

لكن هيرودوت - وياللدهشة - قال أشياءً غريبة ومدهشة عن مصر. لعلها تكشف عن الحقيقة المصرية العميقة الوجود، ولعلها تكشف - وهذا طبيعى - عن عمق فهمه هو لمصر.

ولعل من أهم ما قاله هيرودوت عن مصر، الجملة الأولى التى بدأ بها حديثه عنها.

«سوف أتكلم كثيراً عن مصر ففيها من الأشياء الغريبة ما يستحق ذلك».

ومصر هكذا فعلا.

ولعلنا تحدثنا كثيرا عن ذلك. أنا شخصياً قلته وكتبته كثيراً. لكنها كانت عبارات عابرة لعلها كانت وليدة اللحظة، أو إنعكاساً لحالة تأمل وقتية.

لكننى ما أن حاولت هذه الكتابة عن التيارات السياسية المصرية حتى إكتشفت ذلك.

فهذا الكائن العملاق، المحلق فى أعماق التاريخ، الراسخ عبر الزمن، المحير، الجامع، الهادئ والجامح فى آن، المتألق والمنزوى، القائل وبأعلى صوت ولكن فى صمت مهيب، هذا الكائن المسمى مصر، يمنحك كلما تأملته، وحاولت دراسته، إحساساً بأنك مبتدئ لم تزل، وأن كل ما قلته وتخيلت انه جامع مانع أو شبه ذلك، هو مجرد نسمة عابرة أو قطرة من ريح دافق وموج لا ينقطع. وأنك نسيت، أو لم تعرف، أو لم تدقق، ولم تكتشف، أو أخطأت التقدير والقياس.

هذا الكائن الغامض فى تألق المسمى مصر لم أكتشف مدى عمق البئر الذى تكمن فيه حقيقته الا عندما بدأت أبحث فى تياراته السياسية.

فهذا المنحنى - وهو مجرد منحنى في مجرى هادر - الذى شكل أو تشكلت من خلاله التيارات السياسية إمتلأ أمام عينى بحقائق كانت غائبة.وبتكوينات تمايزت عن مثيلاتها فى بلدان أخرى. فالسياسيون هنا فى هذا الكائن ومهما تباينت توجهاتهم ليسوا كغيرهم ممن إتخذوا ذات المنحى، أو إرتدوا ذات المسميات.. وكان هذا طبيعياً، فمصر عندما تحضر فى مكون فكرى ما، تفرض عليه مصريتها.. إيجاباً أو حتى سلباً.

* * *

والقطرة الأولى من مجرى هذا التأمل، تكشف أو تكتشف هى أيضا

شيئا مثيراً للدهشة.

هو أن البداية دوماً بدأت من مصر. فإن لم تكن نبتاً مصرياً أغمضت مصر عينيها عنه.

فالحركة الماركسية المصرية إمتدت جذورها إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، وقد أمكن بالبحث المدقق العثور على وثائق مطبوعة في عام ١٨٩٤ وزعت جماهيرياً تدعو «العلمة المصريين» [أى العمال] للاحتفال بذكرى كوميونة باريس». .وتختتم الدعوة بشعار حماسى «فلتحيا الشيوعية وليسقط الموسرون الضوارى». وربما - أقول ربما - كان هناك وجود لتجمعات ماركسية قبل ذلك. وهذا طبيعى. فليس منطقياً أن يصدر تجمع ما بياناً كهذا، ثم يطبعه ويوزعه دون أن يكون قد إستقر موجوداً لأمد ما.

وبهذا تكون «الماركسية» قد أتت إلى مصر قبل كل بلدان العرب وإفريقيا والشرق الأوسط، وربما قبل مساحات واسعة أخرى من العالم. ووجدت فى مصر قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ بحوالى ربع قرن أو أكثر.

وحركة «الاخوان المسلمون» [١٩٢٨] كانت الأولى فى كل النطاق الاسلامى التى أرست فكرة أسلمة السياسة فى الزمن الحديث، والدعوة فى المرحلة الحديثة لقيام دولة إسلامية عبر سيطرة حزب سياسى علي السلطة.

ولم تكن الاولى فحسب ،بل كانت الأم والحاضنة، والمنبع الفكرى

والعملى لأغلب الحركات والاحزاب المماثلة في العالم.

والناصرية من ناصر. وناصر هو مصر العقدين الأكثر صعوداً فى تاريخ المنطقه كلها ١٩٥٢ - ١٩٧١.

وكل من يأتى إلى ساحة الناصرية من خارج مصر هو نوع من الفراشات التى تحلقت حول مصباح عبد الناصر، سواء أثناء وجوده، أو حتى بعد رحيله. فالعطر بقى مشحونا بالعبق لأمد، وربما سيبقي كذلك لآماد.

وحتى التجمع. الفكرة والممارسة التى تستدعى قيام حزب متكامل الأركان، منضبط الوجود والأداء، منتظم فى نظامه الحزبى، و..متعدد التيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية، كان إبتكاراً مصرياً خالصاً.

ولقد تتابع الكثيرون فى بلدان عربية كثيرة لاتخاذ ذات الاسم، وإن كنت لا أعتقد أنهم إتخذوا ذات التوجه، أو إكتسبوا ذات السمات المميزة.

* * *

لكن مصر تواصل عنادها..

أرى العنقاء تكبُر أن تُصادا

فعاند ما إستطعت له عنادا.

فهى لا تكتفى فقط بأن تكون الأولى .. تاركة بصماتها، وعلامتها المسجلة على ما صنعت، لكنها - وياللغرابة أو قل ما شئت - تعرض

عن كل ما أتى من خارجها من تيارات. كانت ملئ السمع والبصر فى بلدان عربية كثيرة، وحققت نجاحات وإنجازات، حكمت وحوكمت وتحكمت، قدمت فكراً يستحق أن يدرس وإن يتم التعمق فيه، ففيه ما يستحق ذلك. ولم تزل وحتى الأن تقدم المزيد من الجهد ومن الفعل ومن التأثيرلكن المصريين - وياللدهشة - وبرغم محاولات دائبة من هاتين الحركتين والانظمة السياسية التي حكمت ولم تزل باسمها.. لم تثمر فى مصر ثمرة تكاد أن تذكر.

ولقد تصور البعض ان السطوة الناصرية قد أجهضت محاولات إقتراب هذا الجنين من الرحم المصرى، ولقد يكون هذا صحيحاً بعض الشئ، أقول بعض الشئ لأن التيارات الأخرى الشيوعيون والاخوان تعرضوا لكل العسف الناصرى.. وبقوا. وأيضا ماذا عن فترة ما بعد الحكم الناصرى؟ حاولوا.. ودون جدوى.

«الفعلة كثيرون والحصاد قليل»

لماذا؟

هذا السؤال يحيرنى.. فهل من أحد يساعد في البحث عن إجابة مقنعة؟

* * *

ولقد أتعبتنى هذه الكتابة.

فمنذ البداية سألتْ.. هى ،أقصد أن الكتابة هى التى تساءلت. ماذا

تريد بالضبط؟

هل تريد كتابة تأريخ جديد لهذه التيارات الأربع؟ ألم تفعل ذلك من قبل؟

فعن الشيوعيين كتبت خمس مجلدات عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية وايضا كتبت: ماركسية المستقبل وكتابات عن الماركسية، ودراسات أثارت إبتهاج الخصوم الفكريين وغضب الاصدقاء، مع أن العكس هو المفترض، بل والواجب فى إعتقادى.

وعن الاخوان كتبت الكثير [حسن البنا ،متى وكيف ولماذا؟، وصفحات من تاريخ جماعة الاخوان، والصمت لا، ماذا جرى لمصر؟ ضد التأسلم، الارهاب إسلام أم تأسلم، الارهاب يبدأ فكراً- وعشرات من المقالات والدراسات]

وعن الناصرية [تأملات فى الناصرية، أوراق ناصرية فى ملف سرى للغاية، الجريمة وثائق اغتيال شهدى عطية الشافعى.. وتكاد الناصرية أن تستغرق قسماً كبيراً من الجزءين الاول والثانى من ثلاثية «مجرد ذكريات».

وأيضا مقالات وحوارات كان بعضها هادئاً، والبعض الآخر عاصفاً]

وعن التجمع كان الجزء الثالث من مجرد ذكريات.

فما هو الجديد إذن؟

هل تبحث عن معلومات جديدة؟. أم تنقب فى حفريات الواقع عن

معطيات لم تعطها فى كتاباتك السابقة؟

أم أنك ستقوم بمحاولة للمقارنة بين هذه التكوينات الأربع. ؟ أم بتحليل وتقييم؟

أم هو التكرار. فان كان تكراراً فلا لزوم لما لا يلزم. وإن كان محاولة لاصدار أحكام وتقييمات فإن من حق القارئ أن يطعن بسبق الفصل فى القضية.

والحقيقة أننى عندما فكرت، وحاولت، وكتبت، لم أكن أريد شيئا من ذلك.

ما أردت وآمل أن أكون قد حققت بعضاً من نجاح فى ذلك - هو أن أضم فى كتاب واحد، دراسة موثقة ومدرسية عن هذه التيارات، دراسة تحاول أن تتلمس التاريخ، والمحتوى الفكرى والممارسة والنتائج، وإحتمالات المستقبل.

وهذه تختلف عن كتاباتى السابقة عن أى من التيارات الأربعة فإن كنت قد نجحت أكون قد حققت ما تمنيت. وهو - فى إعتقادى - أمر هام ومفيد للغاية، وإن لم أكن فللقارئ إعتذارى. ولآخرين من الباحثين الاكثر جدارة أن يقتحموا هذا الموضوع الصعب والهام جداً.

فمصر تكاد أن تكون الآن في مفترق الطرق.. تتلفت، تتأمل، تستعيد ماكان، كل ما كان، وتتطلع إلى إحتمالات المستقبل، ونُذره، ثم.. أكاد أتخيلها وهى تطيل التمعن والتأمل ثم تجمع أطراف

ثوبها، وتحسم أمرها.. وتختار طريقها القادم.

ولهذا فإن كتابة كهذه، ولا أقصد هذه التى بين يديك. وإنما هذه التى أردتها وتمنيتها.. تصبح ضرورية وحاسمة.

ولهذا أيضا فإن رؤية واحدة - ومهما كانت - لاتكفى. فإن الأمر يحتاج لعشرات - وربما أكثر - من الدراسات فى ذات الموضوع.. فهو يستحق، وهو يحتاج، فالأمر أعمق وأعقد وأهم من أن يحتويه كتاب واحد.أو يقوم به كاتب واحد.

فلتكن هذه الكتابة بداية. أو لتكن دعوة، أو حتى مشاغبة تستثير الآخرين للغوص فى هذا البئر المفعم بالحكمة، والتفاعلات، والانفعالات، والاحداث، والافكار، والتخبط، والاخطاء، والنجاحات،وهذه الدعوة مفتوحة للجميع، وأكاد أعتقد انها واجب ملزم لكل من يستطيع.

فالأمر يستحق.. بل هو ضرورى.

* * *

ولابد أن نظره على الغلاف ستعلن للقارئ أن ثمة تياراً ناقصاً. هو التيار الليبرالى.

ولعلي أود هنا أن أفرق وبوضوح بين الليبرالية الفكرية، والليبرالية السياسية.

فالليبرالية الفكرية بمذاقها الحديث أقصد الغربى وفدت إلى مصر

مبكراً هى أيضاً. رفاعة الطهطاوى [تخليص الابريز في تلخيص باريز، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، المرشد الامين في تعليم البنات والبنين] والشيخ حسين المرصفى [الكلم الثمان] وجمال الدين الافغانى [خاطرات جمال الدين وكتابات أخرى عديده].. والحركة العرابية بتوجهاتها المطالبة بالحرية والديمقراطية.

ثم كانت الموجة الثانية تالية لها دون فاصل زمنى كبير.. شبلى شميلى، فرح أنطون، نقولا حداد، ولى الدين يكن..

والفارق بين الموجتين متسع، رغم أن الفاصل الزمنى ضيق.

الموجه الأولى مصرية المنبع [فيما عدا الافغانى] وإسلامية أو بالدقة أزهرية المذاق، بينما الثانية كانت فى أغلبها قادمة من الشام أو من منبع تركى [ولى الدين يكن]. وإذ إتخذت الأولى منحيً مطالباً بحكم وطنى ديمقراطي، مصرى مُعادٍ لأى تداخل اجنبى حتى ولو كان تركياً يتستر تحت عمامة الخلافة الاسلامية، ومصمم - فى نفس الوقت- على مذاق إسلامي واضح، يُتخذ أحياناً كمنهج قادر على إقناع المترددين، والمناوئين، والخصوم ، والخائفين من الانزلاق نحو الغرب.. فنتماثل مع غير المسلمين .. أى نبتعد عن الاسلام. إقناعهم بأن الاسلام هو الاقرب، والمسلمون هم الأجدر بالتمسك بهذه الدعوة التحرريه والتقدمية فى آن..

بينما الموجة الثانية قد أتت هاربة من العسف العثمانى بمسيحيى

الشـام، ووجدت ملجأً فى مصر التى يحكمهـا - في الواقع العـملى - الانجليـز، وأيضـا ولى الدين يكن رغم كـونه مـسلمـاً وقـريب جـداً من الصـفوة العثمانية الحاكمة، فقد عانى كثيراً بسبب دعـواته وكتاباته المطالبـة بالحرية والديمقـراطيـة، وإنطبـقت عليـه تماماً قـولتـه الشـهيـرة «مـساكين هم أنصار الحرية يأتون ليفكوا عنها قيودها، فيـقعون هم فى الأسر». الجميع أتوا ليجدوا أمـاناً وطمـأنينة فى مـصر. يكتبـون مـا يشاءون. أرخى لهم الانجليز الحبل حتى نهايته.. ليقولوا مـا يشاءون فـقط لا يتـحـدثون عن الاحتـلال، وضـرورة رحيله عن مـصر. وإبتلعـوا الطعم، فجاءت بعض كتاباتهم مدحاً للانجليز.. فإنفصمت كل علاقة بين ما يكتبون عن العلم والعقل والعدل والحريه وإطلاق الحق في التفكير .. وحرية القول والكتابة كل ذلك الذى أتى في مجلدات رائعة، وكثيرة، سقط تماماً، ولم يعره المصريون إلتفاتاً، بل علي العكس نظروا إليه بإرتياب .. بسبب بضع جمل مدحوا فيها الاحتلال. ولقد كان المصريون علي حق تماماً.

ليبرالتيهم كانت عرجاء كانوا يتحدثون عن حريه الفرد.. المواطن، ولا يأبهون بحرية الوطن.

ولعل مصر قد كتب عليها دوما أن تعيش حاله الليبرالية العرجاء هذه.. فهؤلاء الليبراليون نسوا حرية الوطن وتشبثوا بحرية المواطن،

بينما تشبث عدد من الحكام سعد زغلول وعبد الناصر - كمثال - بحرية الوطن ونسوا أو حتى دمروا [في الحاله الناصرية] حرية المواطن.

ثم أجهز أصحاب الموجة الليبرالية الثانية على كل علاقة نهم بالمواطن عندما تصور البعض من قرائهم أنهم يتحدون الدين، أو الفكر الدينى.

وهكذا كانت الموجه الليبرالية الثانية برغم إنجازاتها الفكرية الغزيرة، والرفيعة المستوى، والمتسمة بالشجاعة، وبالاً علي الفكرة الليبرالية ذاتها، لأنها أوقعت «الفكرة» في مأزق الرفض الجماهيرى لها.. فقد مسَّت أغلى شيئين على القلب المصرى.. الدين والوطن.

..وإذا أتينا إلى الليبرالية السياسية، فقد تبناها فى البداية نقيضان..

الحزب الوطنى [مصطفى كامل - ومحمد فريد] وحزب الأمة [أحمد لطفي السيد. محمد حسين هيكل]

والفارق المثير للدهشة أن الاكثر ليبرالية فيهما [حزب الامة] كان الأقل حماساً فى المعركة ضد الاحتلال، أو إن شئنا الانصاف كان يرى أنها معركة طويلة الأمد، لا يمكن خوضها دون إعداد الجماهير المصرية بالتعليم والوعى وقد يحتاج ذلك إلي وقت طويل. وكان كذلك قريبا من كبار الملاك العقاريين.

ثم كان الحزب الأساسى لليبرالية السياسية حزب الوفد، لكن الأمر لم يكن هنا أيضاً خالياً من التعقيد المثير للارتباك .. فسعد زغلول الذى خاض معركة تحرير الوطن بضراوة وتشدد فاصل بينه وبين دعاة التهدنه، وطول البال، والتدرج الذين أسسوا فيما بعد حزب الاحرار الدستوريين، سعد زغلول الذى أصبح رمزاً لحرية الوطن، لم يهتم بحرية المواطن، أو بالدقة لم يكن جاهزاً لخوض معارك تتعلق بحرية الرأى والفكر وبإعمال العقل، ولعله إعتبرها معارك جانبية لا تستحق عناء التصادم من أجلها. فمعركة حول كتاب «في الشعر الجاهلى» أو كتاب «الاسلام وأصول الحكم» لم تكن ذات صدى عند سعد زغلول، بل لقد إتخذ منها موقفاً سلبياً تماماً، بشكل يثير الدهشه..

بينما الذى تصدى لهاتين المعركتين وبضراوة كان حزب الأقلية المتهادنة، حزب الاحرار الدستوريين، والذي إلتف حوله عديد من كبار الملاك العقاريين كمرفأ إستراح إليه الاحتلال، فإستراحوا هم إليه.

ولعب معهم الاحتلال لعبته مع الليبراليين الشوام.. ليقولوا ما يشاءون عن العقل والعلم والتحرر وحرية التفكير والليبرالية .. ماداموا لا يوجهون ضرراً لوجود الاحتلال. انها ذات المفاصلة بين حرية الوطن، وحرية المواطن.

وتزداد هذه البقعة من التاريخ السياسى تعقيداً عندما ندهش من أن

حزب الوفد الذى إعترض على تشكيل لجنة الثلاثين التى وضعت دستور ١٩٢٣، وأسماها «لجنة الاشقياء» مالبث وبعد أن أنجز الدستور، ووضع موضع التطبيق أن قضى حياته متعلقاً به، متحمساً له، بينما الذين صنعوه بأيديهم ما لبثوا أنكروه، وتحايلوا عليه، بل وتخلوا عنه، وعملوا ضده.

[أليس من حقنا هنا أن نستعيد عبارة هيرودوت العبقرية التى بدأنا بها هذه البداية؟].

* * *

والمهم هو أن كل ما سبق ومهما أسهبنا فيه، أو أغمضنا الأعين عن بعض تفاصيله، يؤكد على أهمية دراسة موضوع الليبرالية، بوجهيها الفكرى والسياسى،وبما بين الوجهين من تناقضات، والاسباب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية لهذه التناقضات المتتالية.

وعلى أهمية دراسة حزب الوفد، حزب الليبرالية السياسية التاريخى دراسة متأنية.

ولا يشفع لنا الاكتفاء بما كتبناه عن شقى الليبرالية [تاريخ الفكر الاشتراكى] وفيه تحدثنا عن رموز موجتى الليبرالية الفكرية، وثلاثة لبنانيين فى القاهرة [وفيه ركزنا علي أهم رموز الموجة الثانية] وكذلك [سعد زغلول بين اليمين واليسار، ومصطفى النحاس - السياسى

والزعيم والمناضل] لا يشفع لنا ذلك ، بل نكاد الآن وبعد قدر أزيد من المعرفة، وقدرة أكثر علي التأمل، أن نقرر أن هذه الكتابات ليست كافية.

وسيحتاج الأمر.. إن أتيحت لنا مساحة أخرى من عمر، أن نعد دراسة عن الليبراليه.

وبهذا يكتمل الضلع الخامس لأضلع التيارات السياسية المصرية.

* * *

ولقد توقفت أمام كيفية ترتيب هذه الفصول. وكانت هناك أفضليات عديدة، لكننى وجدت أن الافضل، ربما كمعيار لا يغضب أحداً، وربما لسبب منهجي متعلق بتاريخية الحدث ودلالاته الاجتماعية - هو أن نرتبها حسب التتابع التاريخى لبزوغها.

ويبقى ان نلاحظ -إحقاقا للحق - أن إعمال المعايير فيه بعض من عدم التكافؤ. فمن بين هذه التيارات الاربع تيار واحد تولى الحكم فإستفاد من ذلك وأضير. إستفاد إستفادة بالغة بما أنجز ، وأضير ضرراً بالغاً بما إرتكب من أخطاء . وهناك تيار أسفر عن أنياب شائكة، وإستخدم الدين كستار سياسى وإستقوى به على الجميع، أو وفق تعبير أصحابه «إستعلى» به على الجميع، وقادتة أسلمة السياسة والفهم الخاطئ لحقيقة الاسلام، وحقيقة دعوته، إلى العنف والارهاب، فلحق به

حنق شديد، بل ولحق به ضرر بالغ بسبب تداعيات خرجت من عباءته فاقمت من اللجوء إلي العنف والارهاب، فلحق به، أو أُلحق به رذاذ كثيف من كل ما فعله «المتأسلمون» في كل مكان من العالم من إبن لادن وحتى متأسلمى الجزائر.ولعل هذا أمر مفترض بالنسبة للدعوات ذات الافق ما بعد الوطنى.

وكذلك الامر بالنسبة للماركسيين الذين وجدوا قبل نشوء الاتحاد السوفيتى بربع قرن، لحق بهم أذي شديد بإنهيار الاتحاد السوفيتى والمنظومة التى نظمها حول نفسه، وهو أمر لم يكن من فعلهم.

وهكذا. ومهما أطلنا الكتابة، وهى مجرد محاولة، أتمنى ان تكمن قيمتها الأساسية فى مقدرتها على إستدعاء الكثيرين، ومنهم من هم أقدر وأجدر إلى ساحة الفحص والبحث والتدقيق والكتابة فى هذا الموضوع.

فلنبدأ ، لنواصل. وما من طريق آخر.

* * *

لكن هذه البداية لا تكتمل بغير حديث ضرورى حول الهدف من الكتابة.

فأنا أكتب بحثا عن الحقيقة متطلعاً نحو المستقبل - من وجهة نظرى طبعاً - ولست فى هذه الكتابة أسعى للانتقام أو التشفى، لقد إنتقدت

وسأواصل الانتقاد. للاصدقاء والخصوم. بل للأصدقاء قبل الخصوم السياسيين.

فالصدق ليس فقط فوق الصداقات، لكنه نور يكشف معدن الصداقة، وهو ضرورى كى تتلقح الفكرة إن إستوعبت النقد المخلص كمخصبات جديدة لعلها تمنحها مزيداً من القدرة والمقدرة.

ولست فى هذه الاسطر أطمح كى أبرئ نفسى من قول سيأتي فيغضب البعض، ولعلى قد إعتدت على هذا الغضب من الاصدقاء ومن الخصوم، وربما بشكل قاس وغير موضوعى ممن يفترض انهم حلفاء و.. أصدقاء.

ولعلى قد آليت على نفسى ألا أخشى من غضب الآخرين مادمت مقتنعاً بما أقول، ولعل هذا هو الذى علمنى ألا أغضب من غضب الآخرين، بل أعتبره دليلا علي أن نقدى لهم كان صائباً.

فلو أنهم إعتادوا فن إستيعاب نقد الآخر، والنظر النقدى للأفكار والممارسات باعتباره عنصر حياة، وقوة دفع وليس مظهر عداء، لو أنهم فعلوا ذلك لكان نقدى لهم غير صائب.. لانهم سيكونون قادرين بذاتهم وبالنظر الانتقادى من ذاتهم لذاتهم، على تصويب الاخطاء التى إنتقدتها. وحتى قبل أن أنطق بها.

لكنهم لم يفعلوا، لانهم لا يريدون، ولا يؤمنون بذلك. ومن ثم فمن

الطبيعي ان يغضبوا غضباً شديداً لأى نقد.. لأنه يضع الملح فى جرح مفتوح وربما متقيح، لكن أصحابه يعتزون به، ويرفضون علاجه.

وأنا أفهم ذلك وأتفهمه، أتقبله دون غضب، وأرثي له.

وهناك تساؤل طبيعى تماماً حول إمكانية أن تكون الكتابة فى موضوع كهذا محايدة.

ولعل القارئ وفور إمساكه بالكتاب سوف يواجهنى بسؤال كهذا.

وإجابتى..و منذ البداية، صدقونى، لاأريد أن أخدع أحداً ولا أن أخادع نفسى. وأسالكم وأسأل نفسى.. فى موضوع كهذا هل يمكن أن تكون الكتابة محايدة؟

هل يمكن أن تغمض العين عن كل ما فات؟ .. أم تذكره وتتذكره؟ إن تناسيته فإنت غير محايد. وإن ذكرته وذكرت الناس به وإن بأخف الألفاظ فأنت تتبدى وكأنك غير محايد، فى نظر البعض على الأقل.

ثم.. هل يمكن الحديث عن مستقبل تيار أنت تعارضه وتعترض على مقولاته، وتخشى وتتحسب على مصير العقل، والعلم، والفن، والمرأه، والحرية، وحق التعبير، وحريه الاختلاف. أقول هل يمكن الحديث عن مستقبل تيار التأسلم السياسى مثلا بشكل محايد؟ أم إن نوازعك ، ومخاوفك، تحيزاتك، وتقييماتك، بل وحتى أمنياتك سوف تفرض نفسها، أو تلقى بظل من ظلالها على ما تكتب؟

الحياد هنا أمر صعب. وحتى القديسين لا يمكنهم فعله. من السهل الادعاء به، ولكن هل الإدعاء كافٍ لتحقيقه؟ وهل يمكن أن يبدأ إنسان كتابة كهذه مدعياً ما يعلم هو أنه غير ممكن؟ البعض ممن يستحقون التكريم يَّدعون أو حتى يصطنعون كثيراً أو قليلا من التواضع فيكون ذلك بذاته سبيلا لمزيد من الكبرياء والترفع. كذلك الحال فى مثل هذه الكتابه قد يتنازل الكاتب عن رأى أو فكرة أو موقف يعتقد أنه صحيح، مقابل أن يصفه البعض بأنه محايد. وهنا تدفع الحقيقة الثمن،فأنت تخاتل، وتحاول أن تكتسب بعضاً من رضاء البعض مقابل التخلى عن بعض مما تعتقد أنه رأى صحيح أو موقف مبدئى.

وأنا وبصراحة شديدة لا أنوى أن أفعل ذلك. فذلك نوع من خداع القارئ وخداع الذات. وأنا لا أريد ذلك، ولو أردت لفعلتها من البداية، وتحليت بالصمت، بدلا من القول الذى جلب علىّ وإلىّ الكثير من المتاعب والعداوات.

هنا أستعيد قول شبلى شميل «الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم» فما قيمة أن تعرف الحقيقة- أو ما تعتقد أنت أنه الحقيقة - دون أن تنطق بها؟

وأتذكر هناك قول الامام أبى حنيفة: «إذا كان العالم يصمت، والجاهل يجهل، فمتى يعرف الناس؟».

لكننى لا أنوى أن أكتب كتابة إنتقاميـة، لا أنوى أن أستخدم القلم مشرطاً أستثير به دماء الخصم كى تتدفق. ولا أقوى أن أتجاهل حقائق إيجابيـة، أو أنغمس فى حقائق سلبية، أو أبالغ فى التركيز عليها ، أو أصطنع أو أفتعل أو أغير إتجاهات الكاميرا ، وزواية الرؤية لتبرز أشياء على حساب أشياء أخرى.. وبإختصار أعد بأن أقدم كتابة موضوعية. تقول ما يجب أن يقال بشكل ومحتوى وأسلوب موضوعى.

وهذا حق القارئ، وحق الكتابة، وحق الموقف.

أو على الأقل هذا ما أنتويه.. و ما أطمح إليه..

د. رفعت السعيد

١١ / ١٠ / ٢٠٠١

الماركسية المصرية

عبر أكثر من ولادة

إذا وقعت واقعة عظيمة

لا تضحك ولا تبكى ولكن فكر

سبينوزا

.. **ولم** تكن ولادة واحدة، بل أكثر

فهذا الكائن الحى.. المنطلق أحيانا، والقزمى النمو فى أحيان أخرى، ينمو، يزدهر، يصبح ملئ السمع والبصر، ثم يتراجع. وقد يتبدد، لكنه يبقى فى كل الأحوال مقيماً وإن فى خيمة صغيرة.

ولأنه مصمم علي التواصل في عناد قد يعتبره البعض مثيراً للدهشة، فإن رجاله يحلو لهم ان يعلقوا فى صدر بعض أدبياتهم أيقونه فرعونية لعلها تمثل حالتهم وحالته، كحلم يأتى من بعيد ليعود فيذهب إلى بعيد، لكنه يبقى، يبقى ولو كحلم.

إنهم يقولون عنك يا أوزوريس

ولو أنك ترحل إلا أنك تعود ثانية.

ولو أنك تنام إلا أنك تستيقظ ثانية.

ولو أنك تموت إلا أنك تبعث مرة أخرى.

قف..

حتى يمكنك أن تسمع ما فعله، حوريس لأجلك.

أن حوريس يجمع لك أضلاعك حتى يلم شمل أجزائك

دون نقص فيك.

يا أوزوريس..

إنهض

إن حوريس يحبك

من نصوص الأهرام.

* * *

هوامش ما قبل البداية:

ولعله من المفيد قبل أن نبدأ أن نوضح سمات خاصة ومميزة لحركة الشيوعيين المصريين وأسلوب فهمهم للماركسية. وطرائق عملهم. وهى مميزات لعلهم يختصون بها دون ما هو محيط بهم من شيوعيين (عرب أو أفارقة) .. أو هذا ما نعتقد.

السمة الأولى هى:

أنهم كما فعل أجدادهم يستقبلون الوافد أناساً كانوا أم فكراً، يتفحصونه، يتمثلونه (عملية التمثيل الغذائى هى هضم الشئ وإمتصاصه) يتناقضون معه، ويتخللونه فى آن واحد.

أنه ما يمكن تسميته فلسفياً، «بالتناقض المتداخل»أو حتى «التداخل المتناقض» (لاحظ أنهم فعلوها دوما سواء مع الماركسية كنظرية، أو مع التطبيق، أو حتى مع القوى السياسية الحليفة أو العدوة، مع الوفد حيث أنبتوا داخل جدرانه الطليعة الوفدية اليسارية الاتجاه، ومع عبد الناصر حيث صارعوه، وصرعهم أحيانا، لكنهم تسللوا إلى خلايا الجسد والفكر الناصرى رغم أنفه، وربما دون أن يشعر»[1]

أما السمة الثانية: فهى إتخاذ المظلة الجماهيرية الأكثر إتساعاً

---

١ – راجع فى هذا الصدد: د. رفعت السعيد كلام فى السياسة – دار الأمل – القاهرة – (عام ٢٠٠١).

سبيلا للتلاحم مع الجماهير. فدائما كان الشيوعيون المصريون أو التيار الأكثر حركية فيهم، يقيمون أبنية ديمقراطية واسعة لا تتبدى عليها سمات الماركسية، ليتحركوا من خلالها ويحركوا جماهير أوسع بكثير من طاقتهم كحزب شيوعي. هكذا فعلوا عندما أسسوا اتحاد نقابات العمال عام ١٩٢٢ ليصبح قوة جماهيرية كبيرة ومؤثرة وقادرة على قيادة إضرابات شامخة هزت أركان النظام.. وهكذا فعلوا عام ١٩٤٦ عندما أسسوا «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التى هزت مصر شعباً وحكماً ووجداناً، ونجحت عبر مظاهرات كاسحة فى أن تطرد قوات الاحتلال البريطانى خارج المدن المصرية.. وهكذا فعلوا عندما أسسوا عام ١٩٥٠ حركة أنصار السلام، وعام ١٩٥١ كتائب الأنصار لوضع شعارهم القديم: «الكفاح المسلح طريق الخلاص» موضع التطبيق، وبهذا الفهم أسهموا أيضا فى بناء تنظيم الضباط الأحرار. وهكذا..

أما السمة الثالثة: فهى وجود كثير من الاجانب واليهود فى صفوفها. فهى أولا حركة أممية، بمعنى ان النظرية الماركسية تستند إلى بعد نظرى يعتمد على وحدة الطبقة العاملة العالمية فى مواجهة الرأسمالية العالميه.. وشعار «يا عمال العالم إتحدوا» وجد صداه منذ تأسيس «الامميه الاولى» ، فالثانية ، وتجسد فعلا، وفعلاً مضاداً فى معارك

دموية.. «كوميونه باريس»، «الحرب الاسبانيه»، «الحركات الجيفارية فى أمريكا اللاتينية». ولأن فكرة الولادة المتجدده تتجدد هى أيضا على نطاق عالمى، نعود الآن لنراها فى التحركات ضد العولمه فى سياتل ثم تداعياتها.

ولقد أفسح الوضع المصرى بتميز خاص جداً مساحةً واسعةً من التواجد والفعل الاجنبى.

فقد أتت موجات الأجانب فى دفعات عديدة منذ عصر سعيد باشا، ثم إتسعت مساحة هذا الوجود فى عهد اسماعيل.[٢]

وفى هذا الوقت تجسدت حقيقية أسميت بالامتيازات الاجنبية وكانت تكفل للأجنبي أيا كانت جنسيته، أو حتى لو كان بلا جنسية حقوقاً قانونية وقضائية ومالية وإجتماعية تكاد أن تكون غير محدودة، وتسمو به فوق مرتبة أعلى المصريين مرتبة[٣]

---

٢ - لمزيد من التفاصيل حول أعداد الجاليات الاجنبيه فى زمن الخديوى إسماعيل وحول دورهم الاقتصادى والاجتماعى راجع: دافيد لاندز - بنوك وباشوات - ترجمة د. عبد العظيم أنيس - دار المعارف - القاهرة.

٣ - على رفاعه الانصارى - فى طريق الحرية - مطبعة الاخاء - (د.ت) ص١٤٨ وما بعدها . ويتضمن نصوص مشاريع الاتفاقات بين مصر وبريطانيا حول قواعد معاملة الاجانب.

وهكذا تمسك الأجانب بأجنبيتهم جيلا بعد جيل.. حتى ولو كانوا بلا جنسية فقد كان تمسكهم بكونهم غير مصريين يكفل لهم مزايا بغير حصر.

والارقام والاحصاءات عن أعداد الاجانب ومدى سيطرتهم، ودورهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية توحى بممكنات واسعه لتداخلهم فى الواقع الاجتماعى، ولإنفلات بعضهم - غير المفترض من ناحية المستوى الاجتماعى والتميز المجتمعى - نحو الحركة الماركسية بالذات باعتبارها الحركة الأممية الوحيدة المتاحة(٤)

هذه الجاليات الاجنبية شكلت في واقع الأمر مجتمعات أجنبية كانت تمتلك صحفها، ومدارسها، وأنديتها، ومطابعها، وثقافتها الخاصة وكانت تمتلك قنوات ممتده بينها و بين، اوطانها الاصلية، ومن ثم تواجدت فى صفوفها مكونات حزبية تنتمى إلى الحزب الموجود فى الوطن

---

٤ - لمزيد من الارقام والاحصاءات والتفاصيل راجع:

- P.M HOLT - POLITICAL AND Social change in modern Egypt. london -oxford (1963) -p157

- Afaf lutfi AL-sayyid - Egypt and cromer - john Murray - London - (1968)P.140

- مورو بيرجر - البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة - ترجمه د. محمد توفيق رمزى - مؤسسة فرانكلين (1959) ص٤٩.

الأم وهكذا تواجد فى صفوف الجالية الايطالية مثلا شيوعيون وإشتراكيون وفاشيون يرتبطون بالاحزاب المثيلة فى الوطن الأم، وفى صفوف الارمن «طاشناق» وماركسيون، وفى صفوف الجاليه الروسية فى مطلع القرن تواجدت مجموعات بلشفية، ومجموعات معادية للبلشفية.. وهكذا. وقد أصدرت المجموعة البلشفية فى مصر نشرة إسمها «مارياك» أى «البحار» كانت تطبع فى مطبعة روسية بحلوان. وكان طبيعياً أن ينضم الكثير من هؤلاء الشيوعيين إلى الحركة المصرية بشكل أو بآخر.

بل إن بعض هؤلاء الاجانب تداخل بشكل عميق مع مكونات الحركة الوطنية المصرية.. ففى وثائق الثورة العرابية نكتشف علاقة حميمة بين رجال الثورة والمسبيوكامينى رئيس إتحاد العملة [العمال] الطليانيين(٥). وفى ثورة ١٩١٩كان مسيو ليون كاسترو [وكان يهوديا من أصل فرنسى] صديقاً حميماً لسعد زغلول باشا وواحداً من مستشاريه فى الشئون الخارجية، و قد أصدر إبان الثورة مجله ذات توجه وفدى واضح أسماها Liberte [الحريه].

ووسط هذا المناخ الاجنبى والمتأجنب عن عمد [حفاظا على الامتيازات الاجنبية] تواجدت أعداد كبيرة من اليهود. الذين كانت لهم

---

٥ – لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد – الاساس الاجتماعى للثورة العرابية – خمس طبعات.

وضعية خاصة فى مرحلة الثلاثينيات.. عندما تصاعد النفوذ النازى والفاشى ووجد له إمتدادات مؤثره وسط الجالية الايطالية، ووسط مراكز النفوذ الاقتصادي الالمانى، ثم تواجد وبصخب مرتفع فى تنظيم مصر الفتاه. وصاحبه تصاعد نفوذ جماعة الاخوان المسلمين وحملاتهم ذات الطابع الدينى المعادى لغيرالمسلمين، وأتت فيما بعد تداعيات الحرب العالمية الثانية ومعارك العلمين لتضاعف من هواجس اليهود، وتدفع الكثيرين منهم إلى فعل سياسى معاد للفاشية، ومعاد للتطرف الدينى، ومعاد للاستعمار فأتوا بأعداد ليست قليلة إلى الحركة الشيوعية. كانوا فى البداية رافعة [كانوا أكثر معرفة باللغات الاجنبية فاسهموا فى نقل النظرية الماركسية، وقدموا خبرات تنظيمية وفكرية ذات قيمة. لكنهم مالبثوا بسبب تطور الاحداث ان أصبحوا عبئاً .. ثم إن عضويتهم العادية كانت أمراً مقبولا، أما إصرارهم على القيادة فكان عبئاً ثقيلا].

اما السمة الرابعة فهى «الانقسامية». فربما بسبب المكون البرجوازى الصغير. وربما بسبب إفتقاد المعرفة النظرية المتعمقة، وربما بسبب السرية المطبقة عليهم دوماً، تفشت الانقسامية فكانت وباءً ووبالا ..

هذه السمات الاربع تواجدت.. وأثرت بالضرورة فى ممكنات وقدرات وفعالية هذا الحركة.

* * *

البدايات:

.. **وهذا** البلد الغريب.. مصر، يتلقف هذا الفكر الصاخب منذ بداياته الأولى .. يتحدث عنه، ينبهر به ، يتمثله، بل ويمارس معه لعبته المفضلة دوماً «التناقض المتداخل» وإذا كانت حركات شيوعية عربية وإفريقية قد تولدت على مهد إنتصار الثوره البلشفية، وقيام دولة الاشتراكية الاولى [١٩١٧].. ففى مصر وجدت الماركسية قبل قيام ثورة أكتوبر بأكثر من ربع قرن.

ولنحاول أن نطالع معاً بعضا من صفحات صحيفة واحدة هى الاكثر محافظة. «الأهرام»، فى عام واحد هو عام ١٨٩٢. ونقرأ.. وندهش.

فى الصفحة الأولى (٢١مارس ١٨٩٢) مقال بعنوان «الاشتراكى المحض» يتحدث عن الكونت ليون تولستوى ويقارن بين إشتراكيته والاشتراكية الأوربية، ويحدد الفوارق بينهما، ثم ينحاز إلى تولستوى، ويختتم المقال بعبارات موحية تقول « ولاندرى هل يبلغ تولستوى أخيراً نهاية النجاح والفوز أم لا، ولكنا نعلم أنه الرجل الاشتراكى الصادق، الذى خدم الناس أجل خدمة بماله وسواه، وأصبح لا يمتاز فى سيرته الحاضرة عن الأولياء من رجال الخير والمعروف، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا». وفى عدد تال(٦) مقال - فى الصفحة الأولى إيضا - يسجل حواراً ممتعاً ورصيناً بين واحدٍ من قادة الاشتراكيين الفرنسيين

---

(٦) الأهرام - ٢ سبتمبر ١٨٩٢.

«هو المسيو جول هورث وبين المسيو خرستفل الشهير ولى زمام البنك العقارى الفرنسوى ويؤكد هورث فى البداية «أن الاشتراكيين يرون فى حشد رؤوس الأموال الواسعة بين أيدى أفراد أو جماعات من مستثمرى الأموال أول خطوة إلى مبادئهم، على أن تتبدل تلك الافراد أو الجماعات بالحكومة، بحيث تعود المنافع على عموم الناس، لا علي بعض من المساهمين نوى الأفضلية» ويدور السجال الذى تنقله الأهرام على صفحاتها.. ويعترف ممثل الرأسمالية فى هذا الحوار:« وإنى لا أنكر أننا حتى الآن قاصرون دون الغاية فى تحسين حال الفعلة، وتسهيل المعازف على أبناء الصميم من الشعب، فان بذلك صلاحاً عظيماً للأمة تستفيده بما تحيى من قوى مجهولة تحت أستار الفقر، ودوسها بأقدام الاغفال»

وفي الأهرام أيضا نقرأ مقالا لاذعاً بعنوان «اشتراكية الفعلة» يقول : قرأنا فى الطان ما معناه: هاج الفعلة الفرنسيون فى مناجم لانس وليافين على الفعلة البلجيكيين الذين قدموا إلى هناك للعمل معهم ومزاحمتهم فى أبواب المعاش. فظهر لنا أن الاشتراكية بين الفعلة شئ، والمصالح المختصة بكل منهم شئ آخر».

ثم يدلى الأهرام برأيه «والذى نراه نحن أن مطالب الفعلة الآن عادلة حقة لأنهم يطلبون من حكوماتهم أن تضمن لهم الأعمال، أى أن لا يشاركهم فيها سواهم حفظاً للحياة، ومنعاً للمزاحمة بين الشعوب»(٧)

---

٧ - الأهرام - ٦ سبتمبر ١٨٩٢

وفى عدد آخر نقرأ حواراً بين المسيو هورث وبين قائد عمالى إشتراكى، ونسمع القائد العمالى قائلا: نعم من الصحيح أنه لا يمكن أن يكون الكل مثرين، ولكن يجب ألا يمت البعض جائعين متباغضين، إذ لا باعث على البغضاء إلا الشقاء، ولكننا لا نختص بتقريعنا أرباب الصناعة، بل نلوم الحكومة لأنها أولى بتولى مصلحتنا، والنظر فى أمرنا»(٨)

ثم ينشر الأهرام في صفحته الأولى أيضا مقالا بعنوان «الاشتراكيون» يتحدث فيه عن إنشقاق الاشتراكيين الألمان « إنقسم الاشتراكيون الألمان إلى قسمين عظيمين قديم وجديد» ويتحدث عن ليبنخت ويصفه بأنه «معتدل فى كلامه شريف فى مبادئه» وتنقل الأهرام عنه قوله «أننا نكره الحرب ولا نساعد عليها» ونقول بل هو يحارب مع فرنسا إذا كانت ألمانيا هى البادئة بعدوانها وقتالها، وهو كلام يدل على شرف المبادئ وحرية الخطاب»(٩)

وبعدها نقرأ أول مقال موقع ومنسوب لصاحبه وهو «نجيب الحداد» وعنوانه «الاشتراكية» ونقرأ فيه ما يوحى بأن الحوار حول « الاشتراكية» قد تحول إلى صخب عالى الصوت فى مصر:«ضربت الاشتراكية أطنابها على ممالك أوربا حتى كادت تظلل منها كل مكان.. وقد إتصل

---

٨ - الأهرام - ١١ أكتوبر ١٨٩٢.

٩ - الأهرام - ٢ أكتوبر ١٨٩٢.

بنا فى الشـرق لمعـة من بريق آثارها، وعن لنا عـارض من سـحـائب أخـبـارها، فشـغل أعـمـدة الجـرائد وأقـلام الكتـاب وجـرى على ألسنة المتحدثين فى كل مـحفل جدال، ونادى علم وآداب، فرأيت أن أقتطف من مجلس بعض الأدباء عندنا ما دار من الكلام فيها»(١٠)

ثم يورد عبر الحوار شرحاً وافياً ودقيقاً للمبادئ الاشتراكية. أنه الأسلوب الماكر فى شرح أفكار تحاول أن تتسلل عبر موانع عده.. أولها الدهشة التى إستقبل بها المصريون هذا الفيض من الحديث المتكرر عن الاشتراكية.

لكن الكتابات والدردشات فى مجالات المثقفين لم تلبث أن تحولت إلى عـمل منظم. إلى بدايات تنظيم. وهكذا ومـبكراً جـدا يوزع فى مـصـر منشـور شيـوعى أو كمـا أسمـته الصـحف «إباحى» (من لفظ إباحة أي إباحـة تملك الأمـوال للجـمـيع) ويقـرأ المصـريون فى دهشـة عـبـارات لم يسـمـعـوا بمثلهـا مـن قـبل. المنشـور وزع فى ١٨ مـارس ١٨٩٤ وقـرأ المصـريون عـبـارات مـثل:«أيهـا العـمـال إذكـروا إن هذا اليـوم هو تذكـار نهضـة الكومون فى باريس، فهلم أيها العـمال المظلومين نتـحد جميعا، ونهتف مـعا، فليـهلك الموسرون الضـوارى، ولتـحـيا الثـورة الاجتمـاعـية، ولتحيى الشيوعية» (١١)

---

١٠ - الأهرام - ٩ نوفمبر ١٨٩٢.

١١ - الهلال - ابريل١٨٩٤.

وما أن يأتي مطلع القرن حتى تكون مصر قد وصلت إلى درجة الغليان.*

ولم يكن «اللورد كرمور» المعتمد البريطاني فى مصر، شاعراً بل كان إستعمارياً متوحشاً، ومع ذلك فقد وصف مصر فى هذه الفترة قائلا «أن مصر تذوب شوقاً إلى الثورة» وقد كان الأمر كذلك فعلا..

فالعمال الذين لم يمض على تعاملهم مع الآلة إلا وقت قصير جداً، يختلطون أمام الآلات مع عمال إيطاليين ويونانيين وأرمن وينقلون عنهم وبشكل مباشر تجاربهم النضالية.. نقابات عمال، وحتى روابط سرية « الجمعية السرية لبؤساء السكة الحديد» (١٢) ويخوضون إضرابات عنيفة.. فقد شاهدوا بأعينهم إضرابات العمال الأجانب سواء إضراب «لفافى السجاير» أو إضراب العمال اليونانيين فى شركة قناة السويس عام ١٨٩٤(١٣). ويضرب عمال الترام إضرابهم الشهير وتتضامن معهم الجماهير. ويرسون تقليداً غريباً وجديداً، حيث كانوا يطوفون على المقاهى وهم يحملون صناديق حمراء اللون يجمعون فيها تبرعات

---

*سنتحدث من الآن بايجاز شديد. فالمعلومات السابقة لم يسبق نشرها، بينما تحدثنا طويلا عن الفترات التالية فى د. رفعت السعيد. تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - خمسة مجلدات.

١٢ - الأهرام ٣ -٨ -١٩٠٨.

١٣ - دار الوثائق القومية - محفظة ١٠٥ داخلية أفرنكى - تقرير محافظ عموم القنال عن بيان الحوادث التى وقعت بين شغالى الكراكات، وقومبانية القنال من أول أكتوبر ١٨٩٤ لغاية ١٥ منه.

تمكنهم من إعانة العمال المضربين. بل شهدت القاهرة والاسكندرية مظاهرات حاشدة للعمال المتعطلين الذين تظاهروا حاملين لافتات «نريد خبزاً أو عملاً»(١٤)

ومع تصاعد الحركة العمالية وقبل إضراب عمال الترام بدأت الرجعية والاحتلال فى التململ..

«فالمقطم» وهى إحتلالية الهوى تكتب غاضبة «انه إغفال شديد لا يقبل فيه عذرا لمعتذر، ولا يدعو الناس للاطمئنان. أن قيام العمال بالاتفاق السرى فيما بينهم على الاضراب دون علم الحكومة وبوليسها العلنى والسرى وعيونها وأرصادها لأمر خطير.. فماذا يمنع أن يدبر العمال المكايد والمؤامرات ليضرموا فى البلاد نيران الثورات قبل أن تعلم الحكومة بأمرهم»(١٥)

وإذا كانت «المقطم» لسان حال الاحتلال قد ركزت هجومها على الحكومة متهمة إياها بالاهمال، فان صحيفة «الجريدة» لسان حال اليمين المصرى (حزب الأمة) قد صبت غضبها علي العمال كطبقة، وأنذرت بأن إضراباتهم تمثل توجهاً إشتراكيا خطيراً: «تسرى عدوى الأفكار كما تسرى عدوي العلل والأنواء من فرد لفرد ومن بلد لبلد»

---

١٤ – أمين عز الدين – تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩ – ص١٣٩.

١٥ – لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد . تاريخ الحركة الشيوعية المصرية . المجلد الأول . ص٦٥

ويعـد أن تتـهم العـمـال بأنهم يقلدون العـمـال الأجـانب دون وعى بالمخاطر«كتقليد القردة» تقول «أن ما يجرى هو نفحة من تلك الرياح الاشتراكية التى تجوب المعمورة»(١٦)

وإذا كانت «الجريدة» ترفع سبابة التحذير من الاشتراكية ، فان «اللواء» جـريدة الحـزب الوطنى تعلق على إضـراب عـمـال السكة الحديد(١٩٠٤) قائلة «أن الاعتصاب هو خير درس لحكامنا يوقفهم على تطور الفكر المصرى ويظهره لهم بثوبه الجديد، ثوب العليم بمصلحته، الحريص عليها، المتفانى في المطالبة بها. وبتعبير آخر أننا قد رأينا اليوم مظهراً من مظاهر الاشتراكية، لا يبعد أن يصير هلاله علي توالى الأيام بدراً كاملا»(١٧)

لكن «الجريدة» تتخذ موقف الهجوم على العمال وعلى الاضراب كأسلوب «أن التشبه بالمتطرفين الأوربيين فى مقاومة الحكومة وبال على العامل وعائلته»(١٨)

وقد حاول القادة النقابيين أكثر من مرة تأسيس حزب عمالى. وفى ١٢ يوليو١٩٠٨ تنشر الصحف بيانا يقول:«أن محمد أحمد الحسن أحد مؤسسى حزب المقاصد المشتركة للعمال سيلقى خطبة عمومية فى

---

١٦ - الجريدة - ٦ - ٨ -١٩١١

١٧ - اللواء - ٢٢ - ١٠ -١٩١٠

١٨ - الجريدة - ٢٣ - ١٠ - ١٩١٠

حديقة الأزبكية موضوعها وجوب إنضمام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية علي إختلاف طبقاتهم إلى حزب مشترك المنافع.. وإقامة جريدة يومية إسمها «الوضاح» لسان حال للحزب»[١٩]

وبعدها بعام نقرأ في الأهرام بيانا بتوقيع محمود أبو عثمان يعلن فيه تأسيس حزب للعمال ويقول «أن الجلسة الأولى إنعقدت وحضرها جمع غفير من العمال والوجهاء وأن الحزب إنتخب السيد أفندى على مديراً له. ومحمد أحمد الحسن رئيسا»[٢٠]

بل أن العمال إذ يشاركون فى معارك ثورة ١٩١٩، فقد خاضوا غمار الثورة مؤيدين لزعامة سعد زغلول ومتمسكين فى نفس الوقت برايتهم المستقلة.

وعندما أعلنوا إضرابهم العام إحتجاجا على نفى سعد ضمنوا بيانهم الداعى للاضراب مطالب إجتماعية مثل «جعل الأجرة اليومية خمسة عشر قرشا. وأن تكون مدة العمل ثمانى ساعات يومياً. ويوم عطلة كل أسبوع. وعدم إضطهاد العمال النقابيين»[٢١]

---

١٩ - الأهرام - اللواء ١٢ - ٧ -١٩٠٨

٢٠ - الأهرام - ١٦ - ٧ - ١٩٠٩ ونلاحظ أن محمد أحمد الحسن هو صاحب المحاولة الأولى، وأنه اسمه قد عاد للظهور من جديد كصاحب لمجلة يسارية التوجه هى «النظام» التى كان يرأس تحريرها رفيق جبور عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى فيما بعد.

٢١ - عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية ١٨٩٩ - ١٩٥٢ -. ص٧٥.

ويعود سعد من المنفى يوم ٧ ابريل ١٩١٩. ويعود المضربون من الموظفين وغيرهم، لكن العمال يصعدون من إضرابهم مطالبين بحقوقهم الاجتماعية، وتشهد أيام ٨ ، ٩ ، ١٠ ابريل مواجهات دامية بين العمال المضربين والبوليس. ويستمر الاضراب العام للعمال حتى يوم ٢ مايو. وثمة إحصاء يقول انه خلال الفترة من ديسمبر ١٩١٩ وحتى نهاية عام ١٩٢١ نظم العمال ٨١ اضرابا كبيرا شملت مختلف فروع الاقتصاد من بينها ٦٧ إضراباً شل كل منها فروعاً متكاملة من أفرع الصناعة» (٢٢)

ويصل الأمر إلى أن إحدى الصحف ذات التوجه اليسارى وصفت ما يجرى بأنه «حرب شديدة قائمة بين العمال وأصحاب الأعمال»(٢٣)

ويسبب تصاعد الدور العمالى المتميز يرى بعض المورخين أن ما كان يجرى فى مصر عام ١٩١٩ ثورتان وليس ثورة واحدة.

* * *

وفى مجال المثقفين تصاعدت كتابات إشتراكية تمثل مختلف المدارس التي كانت متجلية فى أوربا ذلك الزمان.. فهناك الاصلاحيون

---

22 -Suliman Bashear - Communism in the arab east -1918 - 1928 - london - 1980 p54

٢٣ - الأهالى - ١٣ - ٨ - ١٩١٩

الذين ينعون على الرأسمالية تعنتها ويكتفون بمطالبتها باصلاحات محددة..

ومنهم ولى الدين يكن الذى يكتب محدثا العمال:«أيها الأخ العامل.. لبيك ألفاً، هذا يمين الاخاء أمده إليك فان كنت خاطبا وداً، الود لك، وإن كنت شاكى ظلم فيراعى لسانك، وبيانى ترجمانك، وأنا وحياتى دريئة لك من المخاوف»(٢٤)

وكذلك عباس العقاد الذى يكتب متأثراً بمن حوله من المثقفين «الحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا ينفرد بالسخط عليها ويطلب تبديلها الاشتراكيون.. إن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير.. أنها تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل، وتطلب أن نعطى كل عامل ما يستحقه بعمله.. فاذا كانت الدنيا قد حل أجلها وقارب يومها لأن جائعها يريد أن يشبع، ومنهوكها يتمنى أن يستريح، ومظلومها يود أن ينتصف ، فلشد ما هزلت هذه الدنيا»(٢٥)

والفابية هى الأخرى وجدت من يدافع عنها.. ففى عام ١٩١٣ أصدر سلامة موسى كتابه الشهير «الاشتراكية» وفي المقدمة يقول «يدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الوجيزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى

---

٢٤ – ولى الدين يكن – الصحائف السود – ص٥٧

٢٥ – عباس العقاد – الفصول – ص١٥٥

عن الاشتراكية. فغرضى الأول تنوير الرأى لعام عن ماهيتها.. عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية»[٢٦]

ونزعة سلامة موسى «الفابية» واضحة جدا: «فان غاية ما يطلبه الاشتراكي أن تتدرج البلد من إمتلاك توزيع المياه والضوء كما هو حاصل عندنا الآن إلى إمتلاك الترامات والمخابز والتياترات والمعامل والمساكن»[٢٧]

ثم: «ويطلب الاشتراكيون ذلك عن سبيل التدريج الوئيد لا الطفرة السريعة»[٢٨]

ولعل لجوء سلامة موسى إلى «الفابية» كان مرجعه الخوف من ضغط الحكومة والقوى الرجعية..

ففى كتاب «تربية سلامة موسى» وقد كتبه فى أواخر أيامه يقول:«ومع أنى فى كتاب «هؤلاء علمونى» قد ذكرت نحو عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى.. فإنى لم أذكر منهم كارل ماركس، وإنما كنت أتفادى ذكر إسمه خشية الاتهام بالشيوعية» ثم: «ولو كنت قد وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية لألفت عن الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد»[٢٩]

---

٢٦ – سلامة موسى – الاشتراكية (ط٢) – ص٥

٢٧ – المرجع السابق – ص٢٢

٢٨ – المرجع السابق –ص ٢٢

٢٩ – سلامه موسى – تربية سلامه موسى – ص٢٩٠

أما إشتراكية الدولية الثانية فقد وجدت سنداً لها فى «الحزب الوطنى» تحت قيادة محمد فريد.. الذى أسهم في العديد من أنشطة الدولية الثانية، وحضر العديد من مؤتمرات السلام التى كانت تدعو لها..، وأسس «جمعية السلام العام بوادى النيل» وقد حضر محمد فريد بنفسه فى موتمر السلام العام الذى عقد بجنيف عام١٩١٢ وموتمر لاهاى عام ١٩١٣، ومؤتمر الأجناس المضطهدة الذى عقد فى لندن ١٩١٤(٣٠)

ويرسل فريد من الخارج إلى عبد الرحمن الرافعى مؤنباً «لم أسمع من مده بتشكيل نقابات جديدة أو جمعيات تعاون» (٣١)

وفى الجمعية العمومية للحزب الوطنى التى عقدت في ١٩١٢/٣/٢٢ جاء فى خطاب فريد «لابد لكم من العناية بنقابات العمال وبث مبدأ التضامن بينهم والدفاع عن حقوقهم»(٣٢)

وتحت قيادة فريد تكتب «اللواء».. أما الاشتراكية من حيث تعاليمها الاجتماعية فإننا أول من يدعو اليها.. لأننا نرى فيها الضمان لحفظ التوازن ما بين غنينا الجاهل المتكبر وفقيرنا المجد البائس»(٣٣)

ومن هذه المدرسة تخرجت مجموعة من الشبان اليساريين منهم

---

٣٠ – عبد الرحمن الرافعى – محمد فريد – ص٢٧٨

٣١ – عبد الرحمن الرافعى – مذكراتى –ص٢٥

٣٢ – عبد الرحمن الرافعى – محمد فريد – المرجع السابق ص٢٦٦

٣٣ – اللواء–١ –٧ –١٩١١

عـصـام الدين حـفنى ناصف، ومـجـد الدين حـفنـي ناصف، ونور الدين طراف الذين تصـادمـوا مع سـعد زغلول ضـاغطين عليه كى يتحـالف مع اليسـار الأوربى ضـد الاحتـلال الانجليزى. وهـذه المجموعة الطلابية هى التى إشتقت علما متميزا لمصر الثورة..

ففيم كان الوفد يكرس علما ذا رقعة خضراء فى وسطها هلال وثلاث نجـوم، رمـزاً للديانات الثـلاث).. دعـا الطلاب اليسـاريـون (أبناء الحـزب الوطنى) إلى علـم ذا رقـعة حـمـراء .. وهلال وثلاث نجـوم. [هكذا فسـرها عصـام الدين حفنى ناصف فى حوار معى، وان كـان البـعض يفـسـرها بأنه مجرد تطوير للعلم العثمانى]*.

وهناك كـذلك د. على العنانى الذى يعلن أنـه يدعـو إلـى «اشـتـراكـيـة علميـة عملية مـعـتدلة»[٣٤] وكان يدعـو فى كتاباتـه إلى أفكار الهيـجليين اليساريين.

وقد قـام مـحمود حسنى العرابى ٠(أصبح بلشفيا متشدداً بعد ذلك لفـترة من الوقت) بترجمة كتاب «الحركة الاشتراكيـة» لرامزى مكاونالد زعيم الدولية الثـانية. وهناك كذلك مـحمد عبد الله عنان الذى كتب كثيراً ليفرق بين الاشتراكية والشيوعية. مؤكداً أن «الاشتراكية لا تريد سوى القضاء على النتـائج السيئة التى تؤدى إليها الملكية الشـخصية بشكلها الحاضر»[٣٥]

---

* راجع: د. رفعت السعيد عصام الدين حفنى ناصف.

٣٤ - الأهرام ١٩ - ٨ - ١٩٢١

٣٥ - الأهرام ٢٥ - ٨ - ١٩٢١

أما الماركسية فقد وجدت كثيرين يتحدثون عنها ويدافعون عنها..

فالمؤيد تنشر مقالا فى عام ١٨٩٠ لأحد الفضلاء القراء (لم يذكر اسمه) ويتحدث الرجل عن «مسألة إقتسام الأموال» ويورد بحثا مفصلا عن مختلف المدارس الفكرية.. ثم يتجه مباشرة إلى الماركسية (دون أن يذكرها بالاسم) ليلخص مقاطع كامله من كتاب «رأس المال» ثم يختتم بحثه قائلا « فهلموا بنا إلى أن نجعل القاعدة التى تحاولون العدل بها هكذا.. لكل انسان بقدر ما ينتج .. وهذا هو العدل الذى لا يمكن أن يتصور العقل أكمل منه»(٣٦)

وهناك شبلى شميل الذى تحدث صريحا عن الماركسية كمخرج لأزمات العالم أجمع.. (٣٧)

بل إنه حاول عام ١٩٠٨ تأسيس حزب اشتراكى «غرضه كبح جماح الغنى العاتى ليكف عن دوس الفقير بقدميه»(٣٨)

وهناك كذلك مصطفى حسنين المنصورى الذى أصدر كتابا ماركسيا ناضجا ومتكاملا فى شرح الماركسية أسماه «تاريخ المذاهب الاشتراكية» (١٩١٥) وقد دفع المنصورى ثمن هذا الكتاب باهظاً فقد طورد ، ثم طرد من عمله كناظر مدرسة.

---

٣٦ – منتخبات المؤيد العام ١٨٩٠ – ص٢٩١.

٣٧ – «شبلى شميل – الأعمال الكاملة – المجلد الثانى–

٣٨ –الاقدام – ٢٠ – ٣ ٨ ١٩٠

وكعادة الماركسية المصرية (التى كان المنصوري أول من أرسى أسسها الفكرية) تحدث المنصورى ماركسياً، ولكن بلهجة مختلفة عن المناخ السائد فقد رفض الاستسلام للنصوص، ودعى إلى ضروره التلاؤم مع الواقع. «فالبيان الشيوعى هو أقدم برنامج وضع للأحزاب الاشتراكية، ولايزال يرجع اليه في بعض الأمور، وإن كانت بعض مبادئه قد أصبحت عتيقة»(٣٩)

بل هو يقول :«ان من الخطأ أن نتصور أن للاشتراكية مبادئ ثابتة غير قابلة للتعديل أو التحوير، والقول بأن دعاتها يظهرون بمظهر واحد، ورأى واحد فى جميع الأمم. فهم وان كانوا متفقين على الغرض الذى يريدون الوصول إليه، إلا أنهم يختلفون فى الطرق التى تؤدى إلى ذلك الغرض باختلاف شكل الحكومات والنظام الاجتماعى في بلادهم»(٤٠)

.. وهناك أسماء كثيرة .. نقولا حداد ، رفيق جبور وغيرهما لكننا نكتفى بما سبق كنماذج . مجرد نماذج.

* * *

تحدثنا .. عن العمال والمثقفين المصريين. فماذا عن الأجانب؟

كانوا كثيرين فى مصر. من جنسيات مختلفة. نظموا أنفسهم فى جاليات قوية إمتلكت أندية وصحفاً، ومدارس، وكذلك تنظيمات سياسية

---

٣٩ – مصطفى حسنين المنصورى – تاريخ المذاهب الاشتراكية.

٤٠ – المرجع السابق – ص٩

خاصة بكل جالية. وكانوا موزعين علي مختلف الفئات الاجتماعية عمال، حرفيين، موظفين، تجار ، ملاك وكبار ملاك.

ولعل أكبر الجاليات الأجنبية عدداً، ونشاطا كانت الجالية اليونانية وقد تزعم النشاط الشيوعى فيها آنذاك تاجر إسفنج إسمه ياناكاكس (ظل اليونانيون محتفظين بتنظيم شيوعى خاص بهم.. حتى الستينيات)

ويتحدث واحد من المشاركين الأول في هذا النشاط قائلا «كانت المجموعة اليونانية الماركسية تعيش فى قلب الحياة الثقافية اليونانية، أسست دار الكتب الشعبية اليونانية، وعدداً من الصالونات الأدبية.. وكان ياناكاكس يحاضرنا فى الماركسية فقد قرأ كثيرا عن الثورة الروسية ومؤلفات لينين وماركس وانجلز وقدم لنا محاضره عن كتاب «ضد دوهرنج»[٤١].. «وكان بين الشيوعيين اليونانيين واحد من أغنى أغنياء مصر هو زربينى وقد أنفق كثيرا من أمواله دعما للحركة الشيوعية، وعندما مات كانت وصيته أن يشرف على ادارة أمواله من يحدده الرفيق ستالين، ولم ينفذ أقاربه الوصية متهمين إياه بالجنون»[٤٢]

---

41 - petit Resume du Mouvment Politique Grec En Egypte

وهو تقرير بالفرنسية كتبه نيقولا بابار يدوتى [أحد النشطين القدامى فى المجموعة الشيوعية اليونانية بمصر] بناء على طلبى - مكتوب على الآلة الكاتبة الفرنسية فى إثنان وخمسون صفحة.

٤٢ - المرجع السابق.

وكانت هناك أيضا مجموعة نشطة من الروس البلاشفة منهم مجموعة من بحاره المدمره «بوتمكين» هربوا إلى مصر بعد فشل ثورة ١٩٠٥. وكانوا يصدرون – كما أشرنا من قبل – نشرة شيوعية باللغة الروسية إسمها «مارياك» (البحار). وكانت أعداد الايسكرا التى طبعت فى الفترة من مارس وحتى أغسطس ١٩٠٢ ترسل من ليبزج إلى الاسكندرية ويجرى تخزينها فى مطعم سباستوبل وكان يمتلكه روسى بلشفى إسمه يوزيفوفتش ثم من الاسكندرية إلى ميناء باطوم»(٤٣)

وكانت هناك شخصيات روسية حظيت باهتمام سياسى وأمنى شديد منها روزنتال. تقول تقارير الأمن عنه «روزنتال معروف كفوضوى سياسى خطر، مدرج فى القائمة السوداء أ.، له علاقة بكل الحركات النقابية الموجودة بالاسكندرية، يمكن القول أنه اشتراكى ثورى ذو ميول شيوعية»(٤٤). وهناك شخصية أخرى هى إدوار زايدمان (من مواليد أوديسا) وقد ألحت لندن كثيرا فى مراسلاتها مع رجالها فى مصر على ضرورة متابعته. ويقول أحد التقارير عنه «أنه يمتلك مكتبة بشارع أنيستاسى بالاسكندرية ويقوم بتوزيع منشورات بلشفية وسط الجالية الروسية .. وقد قام بالاشراف على ترجمة كتيب لينين «نداء إلى الشباب» إلى اللغة العربية»(٤٥) وهناك كذلك تيودور روزنشتين الذى عمل

---

٤٣ – رسائل لينين وهيئة تحريرايسكرا إلى منظمات الحزب فى روسيا من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٢ (الطبعة الروسية) موسكو ١٩٦٩ – رسالة رقم ١٤٦ .ص ١٨٥

٤٤ – تقرير مرفوع لمستشار وزارة الداخلية المصرية مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١. مودع بالأرشيف العام لوزارة الداخلية البريطانية.

٤٥ – قومندان بوليس الاسكندرية . مذكرة مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ (أرشيف وزارة الداخلية البريطانية)

كمحرر فى صحيفه ليتندار التى اصدرها الحزب الوطنى.باللغة الفرنسية، واصدر كتاباً ضد سياسات الاحتلال البريطانى اسماه «دمار مصر» ثم عاد إلى روسيا بعد الثورة ليعمل سكرتيراً للينين ثم أصبح وزيراً مفوضاً فى طهران(٤٦)

وكان هناك أيضا الشيوعيون الايطاليون الذين نشطوا فى القاهرة والاسكندرية نشاطاً واسعاً إلى درجة أن لورد لويد كتب يقول «أن الحزب الاشتراكى الايطالى كان نشطاً فى مصر نشاطاً لا يقل عن نشاطه فى ايطاليا»(٤٧)

وثمة رسالة قديمة موجهة من مهردار خديوى مؤرخة فى ٨ جمادى ثانى عام ١٣٠٠ هجرى موجهة إلى ناظر مجلس النظار تلفت النظر «إلى خطورة نشاط جماعة الانترناسيونالى الايطالية فى الاسكندرية»(٤٨)

كذلك كان هناك نشاط اشتراكى واسع الجالية الأرمنية الكبيرة العدد(٤٠٫٠٠٠).

* * *

وخلال ذلك كله. وطوال فترة العقدين الأولين من القرن العشرين ظلت مصر على علاقة وثيقة بما يجرى فى روسيا.. ونراجع على سبيل المثال

---

٤٦ – تيودور روزنشتين . دمار مصر . ترجمة على أحمد شكرى – مقدمة المترجم.

47- Lord lloyed - Egypt Since Cromer - P.353

٤٨ – دار الوثائق القومية – محفظة ٨١ داخلية أفرنكى.

مراسلات محمد عبده مع تولستوى، والاهتمام الكبير بالأدب الروسى، وكذلك المتابعة السريعة لما يحدث فى روسيا من تحركات ثورية.. فبعد إنطفاء لهيب ثورة ١٩٠٥ بقليل يصدر فى القاهرة كتاب عنها.[٤٩]

وعندما تلتهب ثورة ١٩١٩ ويلجأ عدد من الثوار إلى إعلان جمهوريات مستقلة فى مدن صغيرة أداروها بأسلوب ثورى مثير للدهشة، إعتبر بعض الباحثين أن هذا تقليد لتجربة السوفيتات عند البلاشفة[٥٠]

والحقيقة أن هذه التجارب لإعلان جمهوريات مستقلة فى زفتى – المطرية – فارسكور – المنيا والتى لم تدرس بعد دراسة كافية كانت تمثل تطوراً ثوريا هاماً. و لو أخذنا كمثال جمهورية زفتى نجد أن الذي أعلن الاستقلال شاب متحمس ذا ميول يسارية (يوسف الجندى) وقد دعا الفلاحين في إجتماع عام إلى إنتخاب «لجنة الثورة» التى تولت قيادة الجمهورية الصغيرة. والجمهورية تمتلك مطبعة صغيرة تصدر بيانات يقول أحداها «لابد من حماية الأمن من كل عابث، ولابد من تحقيق العدالة لكل ساكن» وتحت إشراف لجنة الثورة قام الفلاحون المتطوعون بردم البرك والمستنقعات وتقوية الجسور، وتكونت فرق من

---

٤٩ – خليل بك سعاده – أسرار الثورة الروسية (القاهرة – ١٩٠٥).

50 - W.laqueur - Communism and Nationalism in the Middle East .

الطلاب لحماية الأمن، وتنظيم دوريات لمراقبة الحدود. وعندما أرسلت سلطات الاحتلال كتيبة إسترالية لمحاصرة. «الجمهورية» المتمردة طبعت لجنة الثورة منشوراً بالانجليزية وزع على الجنود الاستراليين يقول لهم:«أيها الجنود إنكم مثلنا، نحن نثور على الانجليز لا عليكم أنتم. أننا نثور من أجل الخبز والحرية والاستقلال»[٥١]

وكان كل عمر هذه الجمهورية تسعة عشر يوما لم يترك قادتها حلماً من أحلامهم لم يحققوه خلالها..

حتى أنهم أقاموا كشكا تعزف فيه الموسيقى بعد ظهر كل يوم.

وفى خضم ثورة ١٩١٩ تحركت المجموعات الماركسية.. لتلعب دوراً بارزاً.

ويرسل سعد زغلول رسالة سرية غاضبة من باريس إلى قيادة الثورة فى الداخل تقول «الوفد غير راض عن المنشورات التى تفيد إعتماد المصريين علي الألمان، أو تتضمن الانتصار للبلشفيك فإن هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها إتصال بالألمان وبالحركة البلشفية»[٥٢]

وبالغت الصحف الانجليزية الصادرة فى مصر فى الهجوم على الخطر البلشفى الزاحف[٥٣]. وتنشر الصحف المصرية، وتعيد نشر

---

٥١ – صلاح عزام – مارس ١٩١٩ الدامى والفلاحون – ص٣٩.

٥٢ – محمد أنيس – دراسة فى وثائق ثورة ١٩١٩ –ص٢١

٥٣ – اجبيبسيان ميل ١٦ –٤ –١٩١٩

الفتوى التى أصدرها شيخ الاسلام بالأستانة والتى تقول «يشتمل الدين الاسلامى من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الاشتراكية وخصوصا البلشفية»[٥٤]

.. وبرغم ذلك فقد كانت مصر جاهزة لولاده حزب من نوع جديد.

★ شهادة الميلاد الأولى

اسم المولود: الحزب الاشتراكى المصرى.

تاريخ الميلاد: ٢٨ أغسطس ١٩٢١

محل الميلاد: القاهرة

اسم الوالد: محمود حسنى العرابى – محمد عبد الله عنان – سلامه موسى – د. على العنانى.

وفى ٢٩ أغسطس تنشر الأهرام وثيقة الميلاد..

«بيان الحزب الاشتراكى المصرى..

في تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الانسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم تبث النظم والمبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة الدعوة لاتحاد الانسانية واغاثتها من بطش القوى الظالمة، وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الانسانى.. ولقد إمتدت يد الاستعمار والأفتيات إلي مصر، فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية، وسعياً

---

٥٤ – الأخبار – ٢٠ – ٩ –١٩٢٠

إلى إستثمار أرزاقها وإستغلال جهود بنيها، وكذلك تسيطر تلك النظم علي المجتمع المصرى سيطرة سحقت معها دولة العمل، وبطش بها رأس المال بطشاً شائناً مرهقاً، أدي إلى خلق الغنى الفاحش والبأساء البالغة جنبا لجنب، وإتساع الهوة بين الرفاهية والفاقه»[٥٥]**

ولابد لنا من أن نتوقف لنتأمل حيثيات هذا الميلاد الجديد لأول حزب اشتراكى فى البلاد العربية وكل أفريقيا.

ونلاحظ:

١ - المؤسسون جميعاً مصريون. لقد تابعنا التحرك الأجنبى الواسع والمتشعب بإتجاه الاشتراكية، لكن المؤسسين صمموا على ضرورة مصرية القيادة.. وبشكل كامل وواضح وكان ذلك منطقياً تماماً.

فالأجانب يمثلون فى بلد محتل، خارج لتوه من ثورة وطنية عاتية نقطة ضعف. والانجليز كانوا يبررون إحتلالهم بالدفاع عن مصالح الأجانب. وكان الأجانب يتمتعون بإمتيازات كثيرة تمنحهم تعالياً على المواطن المصرى. وقد تورط البعض منهم في مواجهة الثورة لحساب الانجليز.. وعلى سبيل المثال قام بعض الأرمن باطلاق الرصاص علي المتظاهرين المطالبين بالاستقلال فى حى عابدين[٥٦] .. ولولا حكمة

---

٥٥ - الأهرام - ٢٩ - ٨ - ١٩٢١

** لمزيد من التفاصيل حول تدقيق النص البرنامجى الكامل، وحول وجهات النظر المختلفة راجع :د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - المجلد الأول.

٥٦ - د. سعيده محمد - دور الأرمن ضد ثورة ١٩١٩ - بحث غير منشور.

قيادة الثورة لوقعت مذابح ضد الأجانب المساندين للاحتلال.

٢ - المؤسسون يمثلون تجمعاً من مختلف الاتجاهات الاشتراكية.. (لاحظ فكرة حزب التجمع كتكرار).فالموقعون على بيان التأسيس إختيروا عن عمد ليقدموا هذا النموذج الفريد، كى يصبح الحزب مظلة لكل الاتجاهات الاشتراكية.

وهم:سلامه موسى (فابى) محمد عبد الله عنان (إشتراكى ديمقراطى) د.على العنانى (هيجلى يسارى). محمود حسنى العرابى (شيوعى).

انها الحكمة المصرية الحكيمة التى تنتسب إلى الماركسية من باب التناقض المتداخل.

٣ - المولود الجديد أسماه آباؤه «الحزب الاشتراكى» رافضين تسميته بالحزب الشيوعى. ولم يكن ذلك تعبيراً عن حقيقة التكوين العضوى فحسب، وإنما محاولة للنفاذ عبر الاطار القانونى. فاليمين المصرى وهو لم يزل لم يصل إلى الحكم بعد ، وخلال إعداده لدستور ١٩٢٣ خصص كثيراً من المذكرات التفسيرية وصياغات الأعمال التحضيرية (وهى تمتلك حجية قانونية) للتأكيد على ضرورة محاربة البلشفية والشيوعية.

٤ - الاحترام الكامل للدين.. ففى مواجهة حملات كبار رجال الدين وفتاواهم بأن «ملة الشيوعية كفر وإلحاد» أعرب مؤسسوا الحزب عن كامل إحترامهم للدين، والمثير للدهشة أن عدداً من الأزهريين قد إنضموا الى الحزب منذ بدايات تأسيسه.

وفى مواجهة حملات ضارية شنها أزهريون كبار مثل الشيخ محمد الغنيمى التفتازانى الذى كتب عديدا من المقالات يهاجم فيها الحزب هجوما شديداً ويسمى الاشتراكية بأنها «شرع جديد يهز طبقات المجتمع هزات عنيفة، ويوشك أن يقوض صرح النظام ، ويقضى علي الدين في نفوس المتدينين» ثم يواصل هجومه قائلا: «أى سادتى الاشتراكيين، بثوا سموم دعوتكم فى بلد غير مصر أن كنتم مولعين بالدعوة لذاتها، وإذا حَسُنُ لديكم، فلتذهبوا جميعاً ومع السلامة وفدا إلى روسيا، إلى معبودتكم البلشفية» [٥٧]، وبالاضافة إلى فتوى مفتى الاستانة، يصدر مفتى الديار المصرية فتوى تقول «أن طريقة جماعة البلشفية طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى الأخص الاسلام» [٥٨] في مواجهة هذا الهجوم الشرس شن رجال الدين الاشتراكيين حملات مضادة مؤكدين ألا تعارض بين الدين والاشتراكية، وقائلين أنها هى الأقرب إلى الدين. ويتحدث واحد من الأعضاء الأوائل في الحزب (عبد الرحمن فضل) عن عملية التثقيف التى كانت القيادة تقوم بها للأعضاء فيقول: «كان الشيخ صفوان أبو الفتح يتحدث عن الإشتراكية كأن النبى محمد نادى بها» [٥٩]

---

٥٧ – الأهرام – ٧ –٩ –١٩٢١

٥٨ – د. محمد أنيس – المرجع السابق – ص٢١

٥٩ – عبد الرحمن فضل: محضر نقاش . منشور بالكامل في د. رفعت السعيد – المرجع السابق ص٣٢٨

لكن هذه المميزات هى بذاتها التى جعلت «موسكو» التى أسماها الرفاق المصريون «أمل الدعوة وحصن الاشتراكية» تتشكك في الرفاق المصريين، وتتمنع، أو حتى ترفض الاعتراف بهم. وظلت موسكو تستحث الرفاق علي ضرورة التخلص من العناصر الانتهازية. وظلت تستحثهم أن يتخذوا اسم «الحزب الشيوعى». وكالعادة، حاول الماركسيون المصريون أن يجدوا لأنفسهم مخرجا.. بين إلحاح الواقع، وضغوط «حصن الاشتراكية» القائم في موسكو.

فبدلا من طرد «الانتهازيين» أى «غير الشيوعيين» قرروا نقل مقر الحزب من القاهرة إلى الاسكندرية حتى يقللوا من نفوذ سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان..(٦٠) أما مسألة تغيير اسم الحزب فقد حاولوا أن يجدوا لها حلاً ذكياً بالفعل.. بأن يصبح إسم الحزب.. «الحزب الاشتراكى المصرى - الشعبة المصرية للدولية الشيوعية» أن هذا الحل يرضى كل الغايات العاقلة، فهو يفلت أمام القانون المصرى الشرس والمتربص، وهو يرضى الرفاق في موسكو إذ يعترف بأنه عضو فى دوليتهم.

ولكن متى كان رفاق الكومنترن يقبلون مثل هذه الحلول «الانتهازية»..؟

ويسافر محمود حسنى العرابى السكرتير العام ليحضر مؤتمر

---

60 - Murius Deeb -Party politics in Egypt, Wafd and its Rivals - (1919 - 1939) P.86

الكومنترن الرابع.. وهناك ألقى خطاباً حماسياً قال فيه «أننا نؤمل بالرغم من معارضة الاستعمار الانجليزى، والرأسمالية المصرية أن نرى الأعلام الحمراء تخفق يوماً ما فوق ربى الأهرام»(٦١)

وحاول حسنى العرابى إقناع الرفاق فى الكومنترن، دون جدوى.

وتشكلت لجنة من الكومنترن لفحص الطلب المقدم من الحزب الاشتراكي المصرى للانضمام رسميا للكومنترن. وترأس اللجنة – وياللدهشة – يابانى هو الرفيق كاتاياما. وحاول العرابي أن يشرح لكاتاياما ظروف الواقع المصرى دون جدوى.

وتصدر اللجنة تقريرا عرف فى أدبيات الكومنترن باسم «تقرير كاتاياما» وجاء فيه «أن الحزب الاشتراكى لمصرى يمثل حركة ثورية عارمة تسير على نهج الدولية الشيوعية .. ومع هذا فاللجنة تقترح تأجيل قبول الحزب الاشتراكى المصرى فى الدولية الشيوعية إلى حين:

١ – يطرد الحزب العناصر غير المرغوب فيها.

٢ – يعقد مؤتمرا ينضم فيه أى عنصر شيوعى فى مصر يمكن أن يكون حاليا خارج الحزب، ويقبل الشروط الواحد والعشرين للدولية الشيوعية.

٣ – أن يغير الحزب إسمه إلى الحزب الشيوعى المصرى. وإشترط التقرير أيضا أن يتم ذلك كله فى موعد أقصاه ١٥ يناير ١٩٢٣ ..

---

٦١ – الأهرام ١٠ – ١٩٢٣.

والقرار صادر فى ٢٦ فبراير ١٩٢٢[٦٢]

وخضوعا لقرار الرفيق كاتا ياما الذى تبناه الكومنترن قرر«الشيوعيون المصريون» أن يستحموا من أجمل ما ميزهم..

وتدافع «الآخرون» منسحبين من الحزب. وإتخذت اللجنة المركزية قراراً بضرورة أن يوافق كل عضو علي الواحد وعشرين شرطاً.. وامتلأت سفينة الحزب – إلى حد الاقتراب من الغرق – بالأجانب فقد كان السيد كاتاياما دقيقاً وحاسماً إذ قرر ضرورة أن ينضم إلي الحزب «أى عنصر شيوعى فى مصر» وليس «أى عنصر شيوعى مصرى» والفارق كبير جداً.

ولعله من المهم أن نسأل هل أخطأ الشيوعيون المصريون فى رضوخهم لهذا التشدد الأحمق؟ وأكاد أقول جازما «لا».

كان هذا هو المناخ العام. والاستثناء المصرى كان استثناءً يتعين زواله. والرفض معناه وببساطة أن يصدر ضدك قرار حرمان كنسى .. فتبقى خارج الحظيرة.. وتصبح «إنتهازياً» و «معادياً» و «ثورة مضادة» ولا طريق للنجاة سوى بالرضوخ لما هو غير عاقل .. وما هو غير معقول، بأمل أن يسترد العقل أنفاسه يوماً ما.

وبرغم هذا كله واصل الشيوعيون مسيرتهم.

---

62 - International Press Correspondence - V.3.NO.2 (5 - 1 - 1923) P.21

بدأوا حملة واسعة لترجمة الأدبيات الماركسية. وأسسوا مدرسة للكادر بالاسكندرية[٦٣] وبدأ الحزب نشاطا عماليا واسعا. وأسس العديد من النقابات ثم أسس إتحاد عام للعمال (...ر٢٥ عامل). وفي أواخر عام ١٩٢٣ إنضم الاتحاد المصرى إلى الاتحاد العالمى للنقابات، وتقول مجلة (مرتبطة بالكومنترن) «أن اتحاد العمال المصري تحت قيادة الشيوعيين قد أصبح في طريقه إلى أن يصبح حركة جماهيرية حقاً»[٦٤]. وكان المحامى الشيوعى البارز أنطون مارون هو المستشار القانونى للاتحاد .. وخاض الاتحاد معارك إضرابية عارمة.. كان آخرها إعتصام عمال عديد من عمال مصانع الاسكندرية فى مصانعهم .. ورفعوا فوقها الأعلام الحمراء مطالبين بايقاف عملية طرد أصحاب المصانع لنصف العاملين. وقد سجل رجال البوليس بغيظ شديد في محاضرهم الرسمية انه بينما كان من الصعب عليهم إقناع العمال بفض الاضراب، فان إشارة واحدة من طرف أصبع أنطون مارون كانت كافية لانهاء الاضراب[٦٥] وإتسع النشاط فى أكثر من مجال.. وأوشك الحزب أن يصبح كياناً جماهيرياً حقاً.. وإستعد لاصدار جريدة أسبوعية إسمها «الشبيبة». وإفتتح عديداً من المقرات.. وكان إحداها – كمثال –

---

٦٣ – رؤوف عباس – الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ – ١٩٥٢ – ص٢٥٤

٦٤ – تقرير مرفوع لمستشار وزارة الداخلية المصرية مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١. مودع بالأرشيف العام لوزارة الداخلية البريطانية

65 - THE Labour Monthly - may 1924

فى المنصورة قد تحول إلى نقطة تحرك جماهيرى واع.. ففى المقر فصول لمحو الأمية، وفصول لتعليم اللغة الفرنسية وفصل لتعليم الموسيقى لأبناء العمال، ومن طلاب هذا الفصل تشكلت فرقة موسيقى تابعة للحزب كانت تحيى أفراح العمال مجانا، وفتح الحزب مقره لاقامة أفراح العمال مجاناً أيضا، وأسهم الحزب فى إنشاء جمعية الاسعاف.. وتصاعد هذا النشاط الاجتماعى إلى درجة أن المجلس البلدى قرر إعفاء مقر الحزب من ثمن المياه والكهرباء نظراً لقيامه بخدمات إجتماعية جليلة.(٦٦)

لكن الأخطاء المتمثلة فى الرضوخ لتعاليم السيد كاتاياما، كانت قد كشفت الحزب قانونياً ووضعته فى مهب الريح. وإذا كان التصعيد فى المجال العمالى، والتشجيع بل والترتيب للعديد من الاضرابات والاعتصامات محاولة لتعويض إنسحابات المثقفين المعارضين للكومنترن، وغير القابلين لشروطه الواحدة والعشرين.. فقد كان هذا التصعيد بذاته بداية النهاية.

البلشفية آتية. كانت هذه الصيحة إعلانا لمعركة ضارية. بارجتان إنجليزيتان أقامتا فى ميناء الاسكندرية كإعلان لأن الاستعماريين غير راضين.. وسعد زغلول (رئيس الوزراء آنذاك) بكل ثقله ومهابته الجماهيرية يعلن – هو أيضا – الحرب على الحزب الشيوعى.

---

٦٦ – محضر نقاش مع السعيد الصبرى – منشور بالكامل فى د. رفعت السعيد – المرجع السابق.

ويدأ العد التنازلي باعداد دراسة قانونية..

فالمادة ١٥ من الدستور تقول «الصحافة حرة في حدود القانون.. وإنذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الاداري محظور، إلا إذا كان ضروريا لوقاية النظام الاجتماعي».

والمادة ٢٠ تقول «للمصريين حق الاجتماع في هدوء وسكينة غير حاملين سلاحا.. لكن هذا الحكم لا يقيد أو يمنع أي تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعي»[٦٧]

ونلاحظ أن عبارة «وقاية النظام الاجتماعي» قد أضيفت بناء على طلب الحكومة «ووضعت مذكرة حددت على سبيل الحصر ما تقصد إليه عبارة وقاية النظام الاجتماعي. وذكرت أن المقصود هو وقايته من الدعاية البلشفية»[٦٨]

ثم أوفدت وزارة الداخلية أحد كبار رجالها وهو إنجرام بك إلى انجلترا لدراسة طرق محاربة الشيوعية[٦٩]

وقبل أن تبدأ المواجهة يجب أن نسجل أن الحزب الشيوعي كان قد أصبح ذا نفوذ فعلي.. فقد إمتدت فروعه في كثير من المدن، وتركز نشاطه في عدد من المدن الريفية كخطوة أولى نحو القفز إلى الريف.

---

٦٧ - دستور المملكة المصرية الصادر في عام ١٩٢٣. راجع مجموعة الأعمال التحضيرية في: «الدستور» مجلدان أصدرهما مجلس الشيوخ عام ١٩٤٠

٦٨ - د. محمد حسين هيكل وآخرون - السياسة المصرية ولانقلاب الدستوري - ص٢٩

٦٩ - الأهرام ٢٩ - ٩ - ١٩٢٤

وزادت عضويته إلى درجة كبيرة..

ولنتأمل المقارنة التى أوردتها النشرة الرسمية للكومنترن

عدد أعضاء الأحزاب الشيوعية عام ١٩٢٤(٧٠)

البلد	العدد
مصر	٧٠٠
فلسطين	١٠٠
الصين	٨٠٠
تركيا	٦٠٠

فقط نتأمل الارقام، ونقارن بين مصر.والصين مثلا.

وإن كانت محكمة جنايات الاسكندرية قد أوردت فى حيثات حكمها فى أول قضية شيوعية أن تقارير البوليس أكدت أن عدد أعضاء الحزب ١٥٠٠(٧١).

.. لكن تزايد النشاط كان بذاته مبرراً لهجوم العدو.

وبالفعل تحركت مجموعات من رجال البوليس فى وقت واحد.. لتلقى

70 - International press Correspondence - 1924 - no.102

٧١ – راجع النص الكامل للحيثيات فى د. رفعت السعيد . المرجع السابق.

القبض على قيادات الحزب وكوادره الأساسية فى عدة مدن: القاهرة - الاسكندرية - المنصورة - بور سعيد - أبو كبير - الزقازيق - طنطا - كفر الزيات - المحلة الكبرى - سمنود - العطف - شبين الكوم..... الخ

وبدأت أول زيارة شيوعية للسجون.. وهى زيارات إستمرت بشكل متواصل دون انقطاع أكثر من نصف قرن. وأثمرت الحملة البوليسية ما أسمى بقضية الشيوعية. وضم قرار الاتهام أحد عشر متهماً (٩مصريين وأجنبيان هاربان أو بالدقة لم يكونا موجودين فى مصر أصلا بل هما من بين رسل الكومنترن للمرور على الحزب) أما المهن فهى (تاجر - محام - ٣ مدرس - ٢ كاتب - مساعد أجزجى - سمكرى - حلاق)[٧٢]

ووضع الشيوعيون المصريون تقاليد الدفاع السياسى أمام المحكمة .. أنطون مارون يقول للمحكمة «أنه مستشار إتحاد العمال. وهو يكرس حياته لخدمة العمال .. إن العمال يعاملون كالحيوانات، فالعامل يشتغل إثنتى عشر ساعة فى اليوم ويعطى أجراً عشرة قروش. وهذا لا يكفى الحصان عليقاً، فكيف يكفى العامل وأسرته»

وقال حسنى العرابى «أنا سكرتير عام الحزب الشيوعى المصرى» وقال «إن علاقتنا بالأممية الثالثة هى علاقة أخوية»[٧٣]

وقبل أن نغادر هذه المرحلة يتعين أن نقدم تحية إجلال لأنطون

---

٧٢ - تقرير إتهام مقدم من النيابة العمومية لحضرة قاضى الاحالة بمحكمة الاسكندرية فى قضية الجناية رقم ٣٩٢ محرم بك ١٩٢٤.

٧٣ - الأهرام ١ - ٩ -١٩٢٤.

مارون الذى إستشهد مضرباً عن الطعام فى السجن.. وكان البداية فى سجل شهداء الشيوعية المصرية المتعدد الأسماء.

الاغتيال بأكثر من سيف

وما أن ألقى القاده المؤسسون فى السجن حتى حاول الحزب أن يتنفس، وأن يواصل المسيرة سراً وإلى حد كبير نجحت الكوادر الوسطى فى تجميع العضوية وإستعادة حيوية الحزب. بل وأسرعوا فأصدروا جريدة علنية (لعلها تعوض بعضاً من إختناقات العمل السرى) إسمها «الحساب» وتولى رئاسة تحريرها عضو باللجنة المركزية الجديدة هو رفيق جبور، الذى كتب عديداً من المقالات البالغة الثراء سواء من الناحية النظرية، أو عمق التلامس مع الواقع المصرى.. وكان يوقع مقالاته باسم سرى هو «محمد صديق عنتر»

وكانت الحساب تدعو إلى تأسيس حزب للعمال والفلاحين، وتعلن فى صدر صفحتها الأولى أنها تصدر «للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين»، لكن الرجعية المصرية والاحتلال الانجليزى لم يتوقفا عن الهجوم..

والكومنترن إنتهز فرصة سجن القيادات المؤسسة ليفرض نفوذه ورجاله .. وبدأت أسماء مثل بهيل كوسى، أفيجدور، كونستنتين فايس، جوزيف بيرجر تظهر على السطح لتلعب دوراً أساسياً فى تسيير الأحداث..

وبدأ الدور الأجنبى فى البروز ليزيد من عزلة الحزب عن الجماهير الشعبية .. وليفرض على الحزب توجهات تليق بأصحابها. بل أن

«الرفاق» الذين سافروا إلى «مدرسة كادحى الشرق» ليتلقنوا الماركسية من منابعها، مالبثت ماركسيتهم أن تصادمت مع ماركسية «الكومنترن»..

ونتسمع إلى شهادة واحد من هؤلاء الطلاب.. هو محمد دويدار (مساعد سائق قطار«عطشجى») «كان كثير من الطلاب القادمين من البلاد العربية من اليهود، المصريون فقط لم يكن بينهم يهود. كان معظم موظفى القسم من الاداريين والمترجمين من اليهود العرب. وأعلنا نحن المصريين أن هذا التكوين لا يتلاءم مع طبيعة وظروف البلاد. ولقد حرصنا علي تعلم اللغة الروسية بسرعة، وساعتها أدركنا أن المترجمين لا يعرفون العربية جيداً وأن ترجمتهم ردئية، وغير دقيقة، وبإختصار دخلنا نحن المصريين صراعاً، ورفعنا شعار «أرابيزاتسيا» أى «التعريب»، لكننا هوجمنا بشده ونظمت لنا محاكمة بحجة أننا شوفينيين وأعداء للسامية»(٧٤)

وكان القرار بعد المحاكمة أن الذين رفعوا شعار «التعريب» شوفينيون وبرجوازيون صغار ولا يصلحون لدراسة الماركسية إلا بعد أن يصبحوا بروليتاريين حقا..(نلاحظ أن الطلاب المصريين كانوا فى أغلبهم عمالا) وأرسلوهم للعمل فى مصانع بعيدة عن موسكو لعام أو أكثر كى يكتسبوا أخلاقيات البروليتاريا، الأمر الذى أعاق عودتهم.

وإستمر التدخل فى شئون الحزب المصرى إلى درجة أن مسئولى الكومنترن قد فرضوا علي الحزب سكرتيراً عاماً، إختاروه هم، وفرضوه

---

٧٤ – محضر نقاش مع محمد دويدار – راجع النص الكامل فى د. رفعت السعيد. المرجع السابق – ص٦٥٠

علي الحزب فرضاً. ومن سوء حظ الجميع أن هذا الرجل واسمه «محمد عبد العزيز» كان عميلا للأمن .. وظل يخرب فى الحزب ويسلم كوادره للبوليس حتى تم إغتياله لسبب غير معروف(٧٥)

.. ويتواصل التدخل فى ساحة الفكر..

ففى عام ١٩٢٥ تحدث ستالين طويلا عن قضية المستعمرات قائلا انها تنقسم إلى ثلاثة أقسام مؤكدا ضرورة معاملة كل قسم منها بأسلوب مختلف.. «وبالنسبة لبلد كمصر والصين (أى مستعمرات الدرجة الثانية) يتعين على الشيوعيين السعى لتأسيس كتلة ثورية من العمال والبرجوازية الصغيرة (أى الفلاحين)»(٧٦)

وكان الحزب المصرى يرى فى ذلك الحين ضرورة السعى لتأسيس جبهة وطنية.. والفارق كبير بين الجبهة الوطنية، والكتلة الثورية.

ثم مالبث الكومنتانج فى الصين أن خان العملية الثورية.. وكان من الضرورى القول بخيانته.. وهكذا كان الموقف الجديد الذى تبناه مؤتمر الكومنترن السادس (١٩٢٨) والذى يعلن أن البرجوازية الوطنية قد إنتقلت نهائيا إلى معسكر الخيانة وانها ألقت بعلم الحريات إلى الوحل.. وبصورة تلقائية إرتبط الأمر بمصر، وطولب الشيوعيون المصريون

---

٧٥ – أكد لى أكثر من مصدر أن محمد عبد العزيز قد سجل مذكراته فى عدة كشاكيل وقد إعترف فيها أنه كان عميلا للأمن منذ بداية إنضمامه الحزب، وأن رجال الكومنترن أعجبوا به لأنه كان مطيعاً. وقد أودع هذه المذكرات لدى محاميه الأستاذ حنفى عبود.. ومات المحامى وأغلق المكتب، وفشلنا فى العثور على هذه الكراسات.

76 - joseph Stalin - Marxism And The national and colonial question (london - 1947) p216

بإعلان خيانة الوفد[٧٧] هذا فى الوقت الذى كان الوفد يخوض فيه معركة ضد حكومات الأقلية، ومن أجل الدستور.

وحاول الحزب الشيوعى المصرى أن يتحايل علي التحليل الملزم .. وفى المؤتمر السادس للكومنترن كانت وجهة نظره واضحة تماماً: فقد رفض المقارنة بين الوضع فى مصر والوضع فى الصين. ورفض المقارنة بين الوفد والكومنتانج ثم قال بصراحة «يتصور بعض الرفاق أن الدور الثورى لحزب الوفد قد إنتهى تماماً، وأنه قد أصبح الآن قوة مناهضة للثورة .. ولم يعد هناك ثمة مجال للحديث عن التحالف معه.» وكعادة الشيوعيين المصريين حاولوا أن يصلوا إلى حل وسط «أننا نحدد واجباتنا فى مصر علي النحو التالى:

لا إعلان للتحالف مع حزب الوفد، ولا أقامة لأية تنظيمات مشتركة معه، ولكن من الحتمى الاستمرار فى إقامة إتصال دائم مع الوفد، إتصالات مع قواعد الوفد للقيام بأعمال مشتركة محددة»[٧٨]

.. وكالعادة رفض الكومنترن هذه المساومة . وفرض على الحزب موقفا بضرورة إعلان خيانة الوفد وكل البرجوازية الوطنية، ورفض الحزب هذه المرة أن يلتزم به. ويواصل الحزب معركة شرسة. ضد

---

77 - M.S.Agwani - communism in The arab East (bombay) -p.6

78 - International press correspondence - the Discussion on cam-

arad bukarine report.no.72 - 17.10.1928 p.7311

الأمن الذي يوجه ضربات متلاحقة لا تتوقف. وفى كل مرة تحمل الصحف خبر القبض على آخر خلية شيوعية.. ثم يكتشفون أنها ليست الأخيرة .. وضد سكرتيره العام العميل للأمن، وضد تدخل الأجانب فى شئونه التنظيمية، وضد الخط الأيديولوجى المتطرف.

.. وتصاعد الخلاف.. وجاءت الطعنة الأخيرة عندما طرد الكومنترن الحزب الشيوعى المصرى من جنته. وصدرت الأنسكلوبيديا السوفيتية طبعه عام ١٩٣٥ وهى تحتوى قائمة بأسماء الأحزاب الشيوعية فى العالم .. وليس من بينها إسم الحزب الشيوعى المصرى . إنها شهادة وفاة لكائن لم يزل حياً صدرت فى موسكو.

لكن الشيوعيين المصريين لم يصادقوا علي شهادة وفاتهم. وتحدوا الكومنترن.. وواصلوا نضالهم حتى ألتقوا بطلائع الموجه الجديدة.

* * *

لكنهم يولدون من جديد

وإذ كان الخطر النازى يتصاعد علي نطاق العالم.

وإذ يقترب من مصر حيث جالية إيطالية كبيرة جداً.. أفرزت وعلي وجه السرعة وبترتيبات من روما حركة فاشية إرتدى شبابها قمصانهم السوداء يزهون بها شوارع المدن المصرية. وإنهالت مقالات في كثير من الصحف لتمجيد الفاشية «لقد سمعنا الكثيرين يعربون عن الأسف على أن لا يكون عندهم موسولينى من أهل بلادهم ليسير دفة البلاد إلى

العمل والنجاح»[٧٩]

وإذ ينعكس التوجه النازى فعلاً حزبياً في مصر .. حركة مصر الفتاة. وإذ تقوم جماعة «الاخوان المسلمين». فان الأجانب وعلي الأخص اليهود منهم، بدأوا يستشعرون خطراً داهماً. ومن ثم ظهرت للوجود تجمعات معادية للفاشية، أو داعية للديمقراطية، أليس مخيفاً لكل أنصار الديمقراطية أن تكتب جريدة مسئولة مثل «السياسة» لسان حال حزب الاحرار الدستوريين قائلة:«ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الروح الفاشتية تلقى تأييدا أشد حرارة من الروح البرلمانية»[٨٠]

بل أن مجلة شيوعية دولية تؤكد «أن القاهرة قد أصبحت أحد المراكز الرئيسية للدعاية للفاشية. أن كتاب «كفاحى» يوزع وكأنه قرآن جديد»[٨١]

وكرد فعل أسس الديمقراطيون الأجانب (اليهود أساساً) جماعات مناهضة للفاشية منها «المحاولين» es-sayistes التى أصدرت مجلة

---

٧٩ – ملحق مجلة الفلاح الاقتصادى . سبتمبر ٢ أكتوبر ١٩٣٨ (وهى مجلة كانت تصدر فى مصر لحساب الحركه النازيه، بدعوى ترويج الاسمدة الألمانية الصنع).

٨٠ – السياسة ٣١ – ٨ – ١٩٢٦.

81 - The Communist international - vol.xvll -no:6 (1939)p.476.

بالفرنسية أسمتها المجهود l'efforte، ثم مجلة يسارية أسمتها الحزمة la gerbe ثم تأسست جماعة مكافحة العداء للسامية L.i.s.c.a التى إتسع نشاطها ليمتد بقوة فى مدارس الليسيه، ومن ثم ليصل إلى أبناء النخبة الأجنبية والمصرية علي السواء. وكإمتداد لهذه الأنشطة بدأت تجمعات يسارية فى الوجود مثل إتحاد أنصار السلام والاتحاد الديمقراطى[٨٢].. ومن هذه التجمعات والأندية التى تكاثرت إلى درجة كبيرة جداً .. نشأ تيار ماركسى جديد.

.. وكان هناك الشباب المصرى الذى عصفت به أحداث جسام.. الوفد أتى إلى الحكم علي حراب الانجليز (٤فبراير ١٩٤٢) عازلا نفسه عن قوى هامة رأت في موقفه خيانة للكرامة المصرية.. والاهتمام العام يتجه إلى صمود لينجراد وستالينجراد. وعلى ضجيج طلقات مدافع الجيش السوفيتى إستيقظ الكثيرون ليتذكروا .. الشيوعية.

والشيوعيون القدامى لم يزالوا ينحتون فى صخر صعب.. كانوا لا يزالون هناك.. ونقرأ تقريرا مثيراً للدهشة كتبه الرفيق سبانو (أحد قادة الحزب الشيوعى الايطالى) خلال زيارة سريعة له لمصر..

والتقرير عبارة عن ملاحظات سريعة.. نقرأ منها « L.is. c.a تضم

---

٨٢ – لمزيد من التفاصيل راجع : مارسيل اسرائيل (تشيريزى) – تقرير باللغة الفرنسية مكتوب بالآلة الكاتبة الفرنسية. مودع أصله فى أرشيف الحزب الشيوعى الايطالى (كتبه صاحبه ليقدم نفسه للحزب عقب هجرته إلى ايطاليا وانضمامه للحزب).

١٢٠٠ عضو – أسس الشيوعيون مدرسة لتعليم الاسبرانتو. الحزب يعمل، ولجنته المركزية من سبعة أشخاص تضم شيخاً من الزقازيق يعمل سكرتيرا للجنة السلام، وآخر هو سكرتير نقابة عمال السكة الحديد. ومدير الشركة التعاونية للأتوبيس وآخر من اللجنة المركزية لنقابات عباس حليم، هناك أيضا إثنان من المحامين الوفديين المشهورين أعضاء فى الحزب. نشاط الحزب موجود فى القاهرة – الاسكندرية – بورسعيد – الزقازيق»[٨٣]

وهكذا موجات ثلاث.. القدامى – مصريون جدد – أجانب قادمون من حركة العداء للفاشية.

ويبدأ الميلاد الجديد.. ليتميز أو ليعانى من صفات محددة..

* الأجانب يلعبون الدور القيادى. وهو الأمر الذى فجر إنقاسامات عده إحتجاجاً علي إستمرار القادة الأجانب

* أكثر هؤلاء الأجانب من اليهود (وهذا طبيعى فهم أكثر من تحمس للعداء للنازية). وقد تسبب هذا في مشاكل لاحقة خاصة بعد أن أيد الشيوعيون المصريون قرار تقسيم فلسطين في وجه معارضة شعبية جارفة.

* الانقسامية فقد نشأت الموجة الجديدة منقسمة (ولم يجد أحد

---

٨٣ – تقرير بالايطالية مودع فى أرشيف الحزب الشيوعى الايطالى . موقع «سبانو» مؤرخ عام ١٩٣٥.

منهم فى البداية المبرر للتوحد. ولم يكن هناك من يصدر أمراً بالتوحد فالعلاقة مع الكومنترن مقطوعة تماماً)

* لا علاقة مع الأممية.. وظل الشيوعيون (بعد الدرس القديم المرير) يغازلون الأممية من بعيد، ويطبقون معها المثل الشعبى المصرى الذى يخاطب النحلة متنازلاً عن عسلها ورافضاً أن تلدغه.

ولم يكن هناك مولوداً واحداً بل أكثر لكنهم ليسو توائم..

* الحركة المصرية للتحرر الوطنى ح.م (سكرتيرها العام هنرى كورييل - اسمه الحركى يونس)

* إيسكرا (سكرتيرها العام هليل شوارتز - اسمه الحركى شندى)

* تحرير الشعب (مؤسسها مارسيل إسرائيل - اسمه الحركى مرسى)

* القلعة (سكرتيرها العام مصطفى هيكل - إسمه الحركى الباشا)

* الفجر الجديد.. ظلت تياراً تقوده مجموعة محكمة السرية يتزعمها ثلاثة (ريمون دويك - يوسف درويش - سارتيل سلامون [فيما بعد تسمى بأحمد صادق سعد بعد أن أشهر إسلامه]. وأصبحت فيما بعد تنظيم طليعة العمال. هذا بالاضافة إلى مجموعة تروتسكية لمعت كالشهاب وإختفت مثله.

وبرغم حداثة التجربة.. وبرغم الانقسامية، وأجنبية القيادة فى أغلبها، فان التربة المصرية المشتاقة دوما للفعل الثورى قد تلقفت هذا الموج الجديد لتجعل منه سيلاً عارماً .. أندية ودور نشر وصحف وإضرابات

عمالية وتحركات جماهيرية هزت مصر من أعماقها.. فقط نذكر الأسماء: الفن والحرية. الخبز والحرية. الجبهة الاشتراكية. نحن أنفسنا . إتحاد أنصار السلام. جماعة البحوث. جماعة الشباب للثقافة الشعبية. الاتحاد الديمقراطى. المركز الثقافى الاجتماعى. ثقافة وفراغ. لجنة نشر الثقافة الحديثة. جماعة أصدقاء الثقافة. دار الأبحاث العلمية . الجامعة الشعبية. الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية. حركة الجيل الجديد . رابطة خريجات الجامعة . اللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات العمال. لجنة العمال للتحرير القومى. أما الصحف فهناك: التطور. المجلة الجديدة. الفجر الجديد. حرية الشعوب . أم درمان. الضمير . الجماهير.. ودور نشر عديدة : دار القرن العشرين. دار النشر السودانية. دار الفجر . وهناك فوق هذا كله اللجنة الوطنية للطلبه والعمال التى فجرت في مصر فعلا ثورياً لم تشهد مثيلا له منذ ثورة ١٩١٩، وإنتهت بإجبار الاحتلال على الجلاء من المدن والتمركز فى قاعدة القنال.[٨٤]

وإستطاعت المنظمات الأربع الأولى فى القائمة السابقة أن تتوحد فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى..

التى عادت للتشرذم .. في نهاية الأربعينيات ثم توحدت من جديد ..

---

٨٤ – لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد . تاريخ الحركة الشيوعية المصرية . المجلد الثانى.

وأيضا د. رفعت السعيد . تاريخ الصحافة اليسارية المصرية. الجزء الثانى

وأخيرا توحد الجميع في حزب واحد فى ٧ يناير ١٩٥٨.

ولم يدم هذا الحزب موحداً لأكثر من أشهر ثم أنقسم الى حزبين.. الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) والحزب الشيوعى المصرى. ثم كانت الحملة الناصرية الشرسة ضد الشيوعيين حيث سيق الآلاف إلى معسكرات إعتقال مورس فيها تعذيب وحشى يليق تماما بأن يوصف بالنازية.

.. وبقى الجميع فى السجن من ١ يناير ١٩٥٩وما تلاه حتى ابريل ١٩٦٤ (تجدر الاشارة أنه ومنذ ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٤ كانت السجون الناصرية تستضيف وبشكل دائم آلافاً من السجناء الشيوعيين لكن مرحلة ١٩٥٩ - ١٩٦٤ كانت الأكثر وحشية[٨٥]

هارى كارى

وأخيرا.. فعلها الشيوعيون.. تماما مثل النبلاء اليابانيين الذى

---

٨٥ - لمزيد من التفاصيل عن سجون هذه المرحلة راجع: د. طاهر عبد الحكيم . الأقدام العارية.

د. فتحى عبد الفتاح . شيوعيون وناصريون

مصطفى طيبة. رسائل سجين شيوعى إلى حبيبته.

د. رفعت السعيد. الجريمة . وثائق اغتيال شهدى عطيه الشافعى.

يريدون بالموت أن يثبتوا أنهم فرسان. فبعد كل ما كان من قتل وتعذيب وحشى، تسامى الشيوعيون على جراحهم وأعلنوا جميعا تأييدهم لعبد الناصر (كانت حدتو تؤيده حتى فى لهيب التعذيب)..

ثم.. وكأن الجميع يرددون قول شاعر أراد أن يتهكم على نفسه من فرض عشقه لمحبوبته..

خليلى هل عشتما ورأيتما

عشيقا بكى من حب قاتله مثلى؟

وهكذا - وبعد الخروج من المعتقلات والسجون راوح الشيوعيون مكانهم أسرى منبهرين بما يجرى حولهم.

.. كانت جماهيرية عبد الناصر عالمياً وإقليمياً ومحلياً فى السماء.. سماء لا يطاولها أحد. والرفاق السوفييت يمجدون عبد الناصر، بل كانوا يمجدونه حتى وهو يقتل الرفاق المصريين

وعندما أفرج عن الشيوعيين تعرضوا لضغوط عديدة من أجل حل تنظيماتهم.. بعضها أتى من الخارج (السوفيت الذين صوروا الأمر على أن مجرد وجود تنظيم شيوعى فى مصر يفسد العلاقة مع عبد الناصر ويضر بمجمل التجربة الاشتراكية) وبعضها أتى من رفاق - أو بالدقة رفاق قدامى - أصبحوا منذ فترة سابقة على الافراج أسرى لدى «الأهرام» فيما أسمى بصفحة الرأى، ثم تحولوا بعد قرارات الحل إلى إصدار مجلة الطليعة. لكن الضغط الأكبر أتى من أعمق الأعماق.. من الذات، فالذين صمدوا أمام التعذيب الوحشى ببطولة. لم يستطعوا

الصمود أمام الواقع الذى صعد بعبد الناصر إلى مراتب الآلهة.. وعبد الناصـر لا يريد أي تنظيم،خـارج عن تنظيمـه الأوحـد «الاتحـاد الاشتراكى». والخارجون من السجن فقدوا أهم شئ «الراية المستقلة»، فليس لديهم شئ واحد يميزهم عن عبد الناصر ، ولم يعد ممكنا إقناع الناس بالانضمام الى حزب سرى مطارد، من أجل تأييد منجزات الزعيم عبد الناصر.

وهكذا تسارع التنظيميان اللدودان إلى ساحة «الحل» لكن العبارات التى إختيرت كانت مصقولة.. «إنهاء الوجود التنظيمى من أجل وحدة القوى الاشتراكية».

وإنتهى الوجود التنظيمى ولم تتحقق – ولو بأقل قدر – وحده القوى الاشتراكية.

* * *

الميلاد الأخير

لم يقبل الجميع بقرار الحل .. فمن مجموعة حدتو قرر عدة أعضاء – دون أن يعلنوا ذلك – الاستمرار،.وأسس محمد عباس فهمى وطاهر البدرى (عضوا اللجنة المركزية) تنظيماً أسمى «التيار الثورى».. وكان ذا ميول صينية (فاذا كان السوفييت مع قرار الحل فلابد أنهم مخطئون، ولابد أن القطب الآخر على صواب، لكن هذه الجماعة لم تحقق أى تقدم يذكر، سوى انها غيرت إسمها إلى الحزب الشيوعى الديمقراطى الذى مالبث أن إختفى.

ومن المجموعة الأخرى رفض عدد من الكوادر الوسطى (أيضا دون اعــلان) قـــرار الحل.. وتزعم المهندس رجـــاء الطنطاوى هذه الكوادر مؤسساً منظمة أسماها ٨ يناير تشبثاً بتاريخ توحد الشيوعيين.. وبعد نشاط واسع تفجر هذا التنظيم تماماً بسبب صراعات غير مبدئية.

وحتى الذين باشروا الحل، وبشروا به ،مالبثوا أن إكتشفوا حجم الفخ الذي وقعوا فيه، وأوقعو فيه رفاقهم.

ومن جديد بدأت جماعات صغيرة فى التكون.. بحذر شديد، وربما مفرط فى شدته. وأخفى الامر على الكثيرين، خاصة على السوفييت، فقد كانوا دائمى التحذير من التورط فى تأسيس حزب جديد*.

* * *

وكانت أحدى علامات الحذر .. عدم إعلان وجود تنظيم، عدم إختيار إسم له.. عدم إصدار مطبوعات .. فقط تحرك شديد الحذر لتجميع عضوية حرص الجميع على إختيارها من وافدين جدد حتى لا يسهل على الأمن إكتشافهم. ولأن التجمعات بلا أسماء فقد إتخذوا لها مسميات:

* مجموعة السمر (ذوى البشرة السمراء) لأنها تضم ضمن قيادتها نوبيون.. زكى مراد ، سيف صادق، مبارك عبد فضل وكانت المجموعة

---

* الغريب انهم بعد أن تصادموا مع السادات تحمسوا لاعادة تأسيس الحزب، دون أن يعلموا أن الحزب قد تأسس منذ زمن.

الأكبر والأقوى.

* مجموعة الحمر (إشارة إلى قائدها ذو الشعر الأحمر د. مختار السيد)

* ومجموعة أخرى كانت بلا إسم هى أيضا وكانت تضم محمود توفيق وسعد كامل ومحمد شطا وآخرين.

* مجموعة القلعة وقد تم إشهار وجودها بعد عملية قبض شملت مجمل قادتها وكان أحدهم خارج البلاد (ميشيل كامل) وبقى بالخارج وجاء اسم القلعة من إحتجاز المقبوض عليهم من أعضائها في سجن القلعة.. وقد توحد الباقون خارج السجن - وكانوا محدودى العدد - بمباركة من رفاقهم في السجن والخارج مع المجموعات الثلاثة السابقة.

وفى ذلك الحين كانت مجموعات من الشباب الناقمين على مجمل القيادات القديمة (التى حلت الحزب) يتشكلون تحت مسمى «جماعة كتاب الغد» التى أصبحت فيما بعد «حزب العمال الشيوعى المصرى» والذى حقق توسعاً كبيراً فى الأوساط الطلابية ولعب دوراً حاسماً فى إعتصام الجامعة الشهير.. لكنه مالبث أيضا أن تلاشى تحت وطأة أحداث أكبر منه، ومجتمع لا يحتمل أفكاراً طلابية تكتفى بالحماس المتحمس.

وبسرعة توحد السمر والحمر والقلعة والمجموعة الأخرى.. وبسرعة بدأوا نشاطاً واسعاً، وأصدروا عديداً من المطبوعات تحمل أفكارهم فى محاولة للتقارب، وسعوا لاعداد مشاريع أولية لبرنامج ولائحة..

وكانت المطبوعات توقع «أحمد عرابى المصرى» وكان أغلبها يطبع فى بيروت فى شكل كتيبات صغيرة الحجم ثم تهرب إلى مصر عبر بعض الاصدقاء.

وفيما الجميع منهمكون فى ترتيبات داخلية لاعداد الوثائق. وفيما العمل الحزبى يتسع ليستوعب عشرات وربما مئات من أعضاء وكوادر منظمة الشباب الناصرى الذين إمتلأوا غيظا من قرار السادات بحل المنظمة. والذين لم يجدوا سبيلا للنضال سوى الانتساب الى الممكن الوحيد..

إنفجرت حركة جماهيرية عمالية فى حلوان و إجتمع مجلس الوزراء وأصدر بيانا إتهم فيه الشيوعيين بالمسئولية عن المظاهرات، وألقى القبض على أغلب قياده التنظيم الذى بلا إسم، أو الذي كان يرمز اليه باسم أحمد عرابى المصرى أما من بقوا خارج السجن فقد إتخذوا قراراً باعلان تأسيس الحزب، وبالفعل وفى أول مايو ١٩٧٥ صدرت شهادة ميلاد جديدة وأعلن تأسيس الحزب الشيوعى المصرى[٨٦] ومالبث عدد من قادته أن إنقسموا مكونين «حزب الشعب الاشتراكى».

* * *

ولكن يبدو انه ليس ممكنا نمضى سراعاً دون ان نتوقف أمام بعض

---

٨٦ – لمزيد من التفاصيل حول نشأة هذه الموجه الجديدة فى نهايات الستينيات راجع:

DR. Tareq ismail, Dr. Rifaat Elsaid . The Egyptian communist movement 1920 -1988.

النقاط العملية والنظرية.

* هناك أولا علاقة الشيوعيين بثورة يوليو. ودورهم الفاعل فيها وتشابكهم معها، ثم صراعهم الحاد معها أيضا، وتتمثل فى هذه العلاقة الحميمة والعدائية فى آن، حالة التناقص المتداخل بأجلى معاينها..

فالشيوعيون [منظمة الحركه الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو] لعبت دوراً هاماً فى صفوف الضباط الاحرار، وتحملت لفترة من الوقت عبئ طبع منشوراتهم، وتوزيعها بالبريد[٨٧] ثم كان التأييد الطبيعي للثوره عندما قامت، وكان تأييداً صاخباً فى وجه موقف أممى [الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية و كل الاحزاب الشيوعية في العالم تهاجم حركه الجيش وتعتبرها إنقلاباً موالياً لأمريكا] ثم كان التصادم فى ساحة الديمقراطية، ودخل الشيوعيون معركة حادة ضد «الدكتاتورية العسكرية» تفتحت فيها مواهب الناصرية فى تعذيب الخصوم السياسيين بصورة تفوق النازية..

ويدور الزمان قليلا.. وتفعل التناقضات المتداخلة فعلها، ويقترب عبد الناصر ولو شكلياً من كثير مما ينادى به الشيوعيون، وترتفع شعارات «الاشتراكية العلمية» و « التطبيق الاشتراكي» وحقوق «العمال والفلاحين». ويصدر «الميثاق الوطنى» مردداً ذلك كله، بينما أصحاب

---

٨٧ - لمزيد من التفاصيل راجع: احمد حمروش - قصة ثورة يوليو - خمسة اجزاء . بيروت (١٩٧٤)

هذه الشعارات رهن سجون بشعة..

وتجرى لعبة التناقض المتداخل فى سرعة ليفرج عن الشيوعيين.. ليبهرهم بريق كاريزما عبد الناصر و.يصدرون قرار حل حزبهم فى ١٩٦٥..

ويعودون بعدها من جديد.

* وهناك ثانيا دور هذه الحركة فى ساحة الوطن.. ودورهم في الثقافه والفن والشعر والمسرح والادب والصحافه والكاريكاتير والسينما.. الاسماء اللامعة فى سماء مصر بغير حصر إبتداء من شبلى شميل - فرح انطون - مصطفى حسنين المنصورى - سلامه موسى - مجمد عبد الله عنان - رمسيس يونان - جورج حنين - عبد القادر التلمسانى - حسن فؤاد - صلاح حافظ - أحمد بدرخان - صلاح أبو سيف - أحمد كامل مرسى - جمال كامل - عبد المنعم القصاص - أنور كامل - يوسف إدريس - زهدى - عبد الغنى ابو العنين - حسين فهمى - فؤاد حداد - عبد الرحمن الشرقاوى - عبد الرحمن الخميسى- صلاح شاهين الاسماء كثيره بغير حصر، وهى تؤكد الدور الثقافى الخلاق للماركسيين المصريين فى تخليق ثقافة هذا الوطن وفنه وفكره وإبداعه.

بما يؤكد ان الماركسية لم تكن مجرد ماكياج أحمر اللون صبغ مساحة من وجه الوطن وفقط.. بل هى مكون أساسى من فكره وثقافته وحضارته.

* * *

لكن الصورة لم تكن كلها ورديه.. كانت هناك أخطاء ورد بعضها فى السياق .. ونريد ان نتوقف أمام البعض الآخر.

والحقيقة أن أكبر هذه الاخطاء لم يتم تصنيعة محلياً وإنما توريده [ولا أقول إستيراده] من الخارج، لكن ذلك لا يعفى أحداً من المسئوليه..

صحيح ان الشيوعيين المصريين تميزوا عن غيرهم .. اختلفوا مع [الاخ الاكبر] الاتحاد السوفيتى عدة مرات، عندما كان ذلك ضرورياً، أوبالدقة ضرورياً جداً.

فعلوها عام ١٩٣٠ [مع ستالين] وعام ١٩٥٢ [دفاعا عن ثورة يوليو] وعام [١٩٥٥] كان السوفييت يمتدحون عبد الناصر والشيوعيون يختلفون معه طلباً للديمقراطية .. لكن الأمر الواقع انه كانت هناك فى إعماقهم .. جرثومة سلفية إقتادتهم نحو عديد من الاخطاء..

ولهذا يتعين علينا ان نتوقف ، نتمهل، لنتحدث عن سلفية الفكر الماركسى، وسلفية الماركسيين المصريين.

ولقد يكون الحديث عاماً عن النظرية وعن أصحاب الكهنوت فيها [السوفييت] لكنه بالضرورة أثر وبشدة فى المناخ الفكرى العام لدى الشيوعيين في كل مكان.. ومنهم الشيوعيين المصريين

والأمر لم يكن سهلاً. فهكذا تكون الأمور دوما عندما يترسخ في العمق الاحساس بأنك تمتلك نظرة صائبة تماماً، ونظرية علمية محكمة، وخالية من أى عيب، أو حتى إحتمال عيب.

كذلك لم يكن الأمر سهلاً، فهكذا تكون الامور دوما عندما يكون هناك

أب روحى وفعلى، بابا متمركز فى فاتيكان الكرملين يملك وحده مفاتيح الصواب والخطأ.أو بالدقة مفاتيح الحلال والحرام. وأى نقد أو همس أولمس أو مساس أو تردد إزاء ما يقول به من أفكار يعد كفراً .. ويخرج صاحبة من «ملكوت» الماركسية.

صحيح أن الشيوعيون المصريين فعلوها . عدة مرات فعلوها إختلفوا مع «البابا» وإن بوجل، الا أنهم كانوا دوما يقرون له بسلطاته البابوية، وبحقوقه فى الهيمنة الفكرية على الاقل، وفى كثير من الاحيان الهيمنة على الافعال، وحتى ردود الافعال. ومع ذلك وبرغم تمردهم المخفف جداً، وبرغم انه هادئ «جداً» ومحاط دوماً بهالات الاعتراف بقدسية الفاتيكان المقيم فى الكرملين، إلا أنهم ظلوا وحتى اليوم الأخير من أيام السوفييت منظوراً اليهم كأولاد مشاغبين لا يؤمن جانبهم، بينما نال الأخرون الكاملى الطاعة والانصياع البركات والمجاملات بغير حدود.

ومع ذلك يظل شبح النظرة الخاطئة للنظرية، وشبح التوجه «السلفى» للماركسيين عموماً محلقاً فوق رؤوس الماركسيين المصريين، أو الكثير منهم، ربما حتى اليوم، وبرغم ما كان .. كل ما كان.

فلنحاول النظر فى عمق بئر السلفية الماركسية.. بأمل ان نتفهم ما كان، - وربما - ما سيكون.

* * *

والحقيقة أنه منذ أيام الشباب الأولى لفت نظرى أن الماركسية رغم كونها نظرية «علمية» تؤمن «بتطور الفكر» وتؤمن فوق هذا بحركة

المجموع ودوره، إلا أنها تتسمى منتسبة إلى فرد.

لكن قدسية الفرد أبعدت هذا الهاجس، الذى عاد وبعد غياب طويل كى يطل من جديد.

فالمنظومة الفكرية لتحرير المجتمع من قيود القديم ،والانطلاق بكل هذا الكون نحو مستقبل أفضل عبر صراع تخوض غمارة طبقات عدة.. تتسمى باسم كارل ماركس، (وبرغم مشاركة بارزة جداً من فريدريك إنجلز إلا أنه قدمنح فى أحسن الأحوال دوراً ثانوياً) ثم تمنح المنظومة قوة دفع جديدة فيضاف إلى قائمة من تنتسب إليهم إسم لينين. ثم تأتى محاولة لإضافة إسم ستالين، ثم ولأسباب سياسية يبعد الاسم.

نحن إذن ندور في مجال الانتساب إلى أفرادرغم أن الجوهر النظرى يعتمد على أن عملية تخلق الفكرة تجرى فى إطار جمعى أو بالدقة مجتمعي، وعبر تخلق لأدوات وقوى إنتاج جديدة، وعلاقات إنتاج جديدة هى أيضاً.

فهل ترك مثل هذا الانتساب أثراً علي المكون الفكرى للملتحقين بالنظرية والسائرين على دربها؟

بالطبع نعم.

فإذا كان إنجلز يقرر«أن الماركسية تتطور مع كل إكتشاف علمى جديد»، وإذ كانت الاكتشافات العلمية تتسارع بصورة مربكة، فإن مجرد الانتساب إلى «صاحب» النظرية يجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل تطوير الأفكار أو تعديلها ناهيك عن النظرة إليها نظرة

إنتقادية. إنتقادية بمعنى التفتيش، ثم معاودة التفتيش، عما يكمن فى بنيتها من أخطاء تتكشف عبر جريانها فى ممرات الواقع.

والتمسك اللاواعى بالقديم يمتزج هنا نفسياً، وفعلياً، بالتمسك بالفكرة ذاتها ومنحها قداسة قد تستمد أغلبها من محاولة الكيد لخصومها، أو محاربتهم، بما هو مطلق الصحة.

فالماركسيون تصوروا أن القول بأن أفكارك هى نسبية الصحة، وأن أفكار خصمك هى نسبية الخطأ، ينعكس بالضرورة - فى مجرى الصراع العملى - إلى تراخ فى المجابهة، فالأمور فى نهاية الأمر نسبية. أو هكذا إعتقدوا.

ومن هنا وقف الماركسيون منذ البداية (ولأن نظريتهم صراعية) فى مفترق طرق، ربما فرض عليهم القول بإطلاقية ما ينادون به، وإطلاقية خطأ فكر الخصوم.

وظلت فكرة الاطلاقية هذه مخيمة على ذهنية الباحثين الماركسيين وتحول كل منهم إلى «مضخة ماصة كابسة» وهو نوع من المضخات يمتص الماء من العمق القديم لينقله كما هو (أكرر كما هو) إلى العمق الجديد.

وظلت الماركسية - أو أن شئنا الدقة الماركسية اللينينية - تدور فى ذات الحلقة المفرغة.. من الكلمات ذات النزعة الإطلاقية، وخلت من أية محاولة للتلاؤم مع الجديد.. مع الاكتشافات العلمية الجديدة وتحولت إلى أقانيم تردد، ويعاد ترديدها.. والويل لمن لا يجيد فن الترتيل المتقن.

وسأقدم بضعة أمثلة:

* فى موسكو وبالقرب من الميدان الاحمر وأمام فندق «راسيا» كان هناك مبنى متهالك لايكاد حجر فيه أن يستقر مع الآخر، وفوقه إعلان كبير جداً يقول «الشيوعية هى السلطة السوفيتية + الكهرباء – لينين» والمبنى بالطبع لمحطة توليد كهرباء.

ويمضى زمن، تقوم السلطة السوفيتية ، وتأتى الكهرباء، وتأتى الطاقة النووية، والطاقة البديلة، وكل الطاقات الأخرى، ولم يفكر أحد فى أن هذه العبارة قد فقدت مضمونها فالشيوعية لم تأت. (فهل يمكن لقول لينين أن يفقد مضمونه؟).

* وحتى إذا عدنا إلى الوراء لأيام ماركس الزاهرة بالعبق الأصيل للفكر الثورى، فقد أدهشنى تماما وأنا أطالع وبإمعان محاضر إجتماعات «الأممية الأولى» التى تحصن فيها ماركس وتحصن بها. إن الاجتماعات وفقاً لنصوص المحاضر خالية تماماً من أى نقاش نظرى، أو فكرى. فالمحاضر لا تتحدث إلا عن إجراءات «ارسال بريد بتكلفة كذا» «تلقى تبرعات»، «إصدار بيان للتضامن»، «توزيع البيان» الخ، ولاشئ آخر.

وكأن المنتمين إلى الأممية (رغم إختلاف نزعاتهم) قد أسلموا قيادهم، أو إستسلموا تماماً لفكر سابق التجهيز، لا مبرر لنقاشه، أو حتى لايجرؤ أحد على إجراء نقاش حوله.

* وكان ماركس وإنجلز يدركان ذلك، ويشعران بخوف طاغ من

«تجمد» الفكر عند حدود القداسة، وتحوله إلى أقانيم، وتراتيل، غير قابلة للتكيف مع الجديد. وحذرا أكثر من مرة، وكررا التحذير، ومارسا قدراً كافياً من الممارسة الموحية بذلك، ولكن بلا جدوى.

فقد كتبا كتاباً ضخماً هو «الأيديولوجية الألمانية» ثم إكتشفا أخطاءً فى بنيته الفكرية، ويقول إنجلز «فتركنا المخطوط لنقد الفئران المرير».. لكن أحداً لم يتعلم الدرس. بل ظل البعض يطبع ويترجم ويعيد طبع وترجمة كتاب «الأيديولوجية الألمانية» ليس من قبيل التعرف الانتقادى. وإنما لأنه يحمل «بركات» المؤلفين ماركس وإنجلز.

* وفي عام ١٨٧٢ كتب ماركس وإنجلز مقدمة للطبعة الألمانية الثالثة عشرة للبيان الشيوعى (أى بعد خمسة وعشرين عاماً من صدوره تقريباً) وقد حرص المؤلفان على التأكيد على حقيقة هامة للغاية «وبرغم أن المبادئ العامة الواردة فى هذا البيان لا تزال بالاجمال محافظة حتى اليوم (لاحظ دقة التعبير فى : بالاجمال و.. حتى اليوم) على صحتها، فإنه يجب (لاحظ يجب) إدخال بعض التعديل علي عدد من الفقرات. إن البيان نفسه يوضح أن تطبيق هذه المبادئ يتعلق دائماً وفى كل مكان بالظروف والأوضاع التاريخية في وقت معين، ولهذا فلا يجب أن تعلق أهمية خاصة على التدابير الثورية الواردة فى نهاية الفصل الثانى. والحقيقة أننا لو أعدنا كتابة هذه الفقرات اليوم لاختلفت فى أكثر من موضع عن الأصل. لقد شاخ (لاحظ شاخ هذه) هذا البرنامج فى بعض نقاطه، نظراً للتقدم العظيم فى الصناعات

الكبيرة خلال السنوات الخمسة والعشرين الأخيرة وما رافق هذا الرقى من تقدم الطبقة العاملة فى تنظيمها الحزبى».

وأكدا أيضاً فى ذات المقدمة «إن الملاحظات بشأن موقف الشيوعيين من مختلف القوى المعارضة ، وإن كانت صحيحة اليوم أيضاً من حيث مبادئها، إلا أنها أصبحت عتيقة من حيث تفاصيلها، لمجرد كون الحالة السياسية قد تغيرت بتمامها».

إنها دعوة صريحة، واضحة ، صارمة للتجديد الفكرى والنظر الانتقادى.

سبق للرسول أن قال بمثلها «أنتم أعلم بشئون دنياكم».

لكن البعض من المسلمين يأبى إلا أن يتجاهل هذا التوجيه الحاسم، ويفضل أن يسميه «رخصة».

والفارق بين «التوجيه» و«الرخصة» واضح. فالتوجيه ملزم. والرخصة إباحة لك أن تستخدمها أو.. لا. وكانت لا.. هى السائدة في الفكر الإسلامى علي مر العصور باستثناءات استثنائية.

كذلك فعل «الماركسيون» بماركسيتهم. رفضوا التوجيه والرخصة معا وتمسكوا بالنص كما هو . ولقد يبدو مدهشاً أن «لينين» وهو المجدد الأول فى الفكر الماركسى قد تناسى «التوجيه» الحاسم من مؤلفى «البيان الشيوعى»، وتمسك هو أيضاً بالصحة المطلقة للنص، دون إشارة إلى الجديد الذى أفسد مذاق الكثير من العبارات، وجعلها بعيدة عن نسيج الواقع الواقعى..

لينين يكتب وبعد سنوات من مقدمة ماركس وإنجلز للطبعة الألمانية، متناسياً كل ما قالاه عن ضرورة مراجعة النص القديم وقياسه على الواقع الجديد، بل لعله يوحي بكلماته الحاسمه بإطلاقية صحة نص «البيان الشيوعى» إذ يقول: «إن البيان الشيوعى يعرض بوضوح ودقة يتسمان بالعبقرية المفهوم الجديد للعالم. يعرض المادية المتماسكة التى تشمل أيضاً ميدان التطور للحياة الاجتماعية، والدياليكيتك بوصفه العلم الأوسع والأعمق للتطور، ونظرية النضال الطبقى والدور الثورى الذى تضطلع به فى التاريخ العالمى للبروليتاريا، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعى».

إن مراجعة متأنية للألفاظ مثل «المتماسكة»، «الأوسع»، «الأعمق»، «التاريخ العالمى» هذه الألفاظ توحى بالإطلاقية بل تكرسها.. وتسد النوافذ أمام أى نظر إنتقادى.

ولعلها كان يمكن أن تكون صحيحة لو تداركت فأضافت ولو بإشارة باهتة إلى إلحاح صاحبى البيان على ضرورة مراجعة النص بعد خمس وعشرين عاماً، فما بالك بعد عشرات أخرى من السنين وهما يتحدثان عن «التقدم العظيم فى الصناعات الكبيرة الذى طرأ فى الفترة من ١٨٤٧ إلى ١٨٧٢ .. فكيف يقاس هذا «التقدم العظيم» وما يتركه من أثر على الفكر النظرى، بل والمحتوى النظرى ذاته، إذا ما قورن بالتطور العاصف الذى طرأ ولم يزل علي الصناعة. وما هو الحجم النسبى لمكنات التأثير والتأثر؟.

هل فكرنا فى البحث عن إجابة لهذا السوال؟

* * *

ولعله يتعين علينا أن نُعمل الفكر ليس فى كيفية تطوير الفكر الماركسى، وإنما أن نتأمل

أولاً فى تحديد حدود الماركسية ذاتها.

أن نحدد حدودها أولاً ثم نعمل على تلاؤمها مع الواقع.

فما هى الماركسية؟

أليس هذا السؤال ساذجاً، خاصة عندما تطرحه بعد قرابة القرن والنصف من الحديث الصاخب، والانتماء الملتهب والواسع الانتشار لهذه النظرية؟

مرة أخرى نطرح السؤال الذى يبدو سخيفاً بقدر ما يبدو ملحاً.

وأنقل لكم إجابة أكاديمية سوفيتيه. (باعتبار أن الكتابات السوفيتيه كانت المرجع الوحيد المسموح بالرجوع إليه لفهم النظرية):

«الماركسية – اللينينية هى نظام علمى متكامل من النظرات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وهى عقيدة (لاحظ لفظ عقيدة) الطبقة العاملة العالمية المدعوة إلى تجديد العالم على أسس الاشتراكية والشيوعية. إنها علم معرفة العالم، علم تحويله تحويلا ثورياً، علم قوانين تطور المجتمع والطبيعة والتفكير البشرى»[٨٨]

---

٨٨ – بوزويف، غرونوف – ما هى الماركسية – اللينينية؟ – الترجمة العربية – دار التقدم موسكو – ١٩٨٧ – ص١٠

ولنتأمل هذه العبارة بإمعان لنكتشف:

الإلحاح على عالمية النظرية.. «الطبقة العاملة العالمية»«تجديد العالم»«معرفة العالم»، «التفكير البشرى» . وبرغم صحة هذه الفكرة، وسيادتها - ربما حتى الآن - إلا أنها يمكنها أن تغلق الباب أمام أى تطوير للنظرية، أو النظر إليها نظراً إنتقادياً أو حتى إلباسها ثياباً محلية، فالنظر الانتقادي سيأتى حتماً من تلامس النص مع التطور «المحلى» . ولا مجال للمحلى هنا إذ لا مساحة له.

لكن الاستكمال الحقيقى لهذا التعريف «السوفيتى» هو أن للثورة العالمية، وللطبقة العاملة العالمية قيادة، هى بالضرورة الحزب القائد أو الحزب «الأم».. «الحزب الشيوعى السوفيتى» فعالمية النظرية من ثم تشل يد الصغار - عن النظر إليها نظراً إنتقادياً، أو حتى الحديث، أو القول بإمكانية تطويرها كى تتلاءم مع الواقع.

وقد أدى إحتكار السوفييت كقياده للحركة «العالمية» لعملية دراسة «النظرية العالمية» إلى تجميد الفكر النظرى عند حدود التجربة السوفيتية، التى أصبحت التجربة «النموذج» أو «المثال».

بل إن الدعوة إلى الاحتفاظ بالنص كما هو «مقدساً» وغير قابل للتعديل كانت الهدف السوفيتي (ومن ثم الهدف البروليتارى العالمى) الأمثل.

فى ذات المرجع السوفيتى السابق نقرأ عبارة تقول: «وكل جيل من الناس يجد فى هذا المذهب أجوبة عن القضايا التى تشغل باله»[٨٩].

---

٨٩ - ص٤

إنه ذات التعامل مع الكتب المقدسة التى تمتلك صحة أبدية، وإجابات مختزنة على كل ما يأتى فى هذا العالم من جديد.

ودون إفاضة غير مطلوبة فقد أدى إحتكار السوفييت للنظرية إلى تضييق حلقة الاحتكار في يد حفنة من الأفراد، كانوا دوماً سلفيين، منغلقين، ليس فقط على النص القديم، وإنما علي حدود مصلحة الدولة السوفيتية.

وإختلط ما هو «علمى» بما هو «مصلحى» ، وإبتكر السوفييت نماذج من « المفكرين المبررين» الذى يمتلكون موهبة تطويع النصوص، لتتلائم مع ما هو «مفيد» لسياسة الدولة الأم.

ومن هنا كان من المفيد إحتكار هذا الدور، وقيام ما يمكن تسميته «أهل الحل والعقد فى الماركسية» وهم جميعاً من السوفييت.

ويمتد نفوذ «أهل الحل والعقد» من إحتكار تفسير، وشرح الماركسية، وتبرير مواقف وسياسات الدولة الأم تبريراً ماركسياً، إلى إحتكار حق تحديد ما هو صحيح وخاطئ (حلال أو حرام) في مواقف الأحزاب الشيوعية على نطاق العالم . ويعترف البعض لهم بهذا الحق دون ملل أو إنكار (حزب عربى شقيق تباهى بأن الخلافات فى داخله كانت محل تحكيم «العلماء» (لاحظ العلماء هذه) السوفييت، ومعرفة أسماء هؤلاء العلماء تثير من السخرية أكثر مما تثير من الشجن).

وفوق هذا فأن «أهل الحل والعقد» يجهدون أنفسهم فى إثبات أن التعرف على الماركسية هو مسألة صعبة ومعقدة وليس من السهل الوصول إليها. إستمع إلى هذه العبارة وتصور عاملاً مصرياً أو فلاحاً

من موزمبيق (أليست النظرية عالمية؟) يطالعها وعلى ضوئها سيحدد إذا ما كان سيجازف بمحاولة التعرف علي الماركسية أم لا.. العبارة وهى من المرجع السوفيتى السابق تقول «ولتفهم هذا العلم العظيم، لا يصح أن نضن بالوقت أو الجهد، ولا يتمكن من ذلك إلا من يتحلى بالصبر والرغبة الصادقة فى التعرف على الحقيقة»[٩٠]

إنه تكريس لفكرة «أهل الحل والعقد» وكنموذج آخر يستهدف إشعار المواطن العادى بالعجز إزاء محاولة فهم الماركسية أو تطويرها (بعد فهمهما طبعاً). يقول مؤلفا ذات الكتاب «توصل ماركس فى السادسة والعشرين من عمره إلى نظرة جديدة، نظرة علمية حقاً للعالم أجمع ولحياة المجتمع وتطوره، وقد أمكنه ذلك من خلال تراكم عمل إبداعى هائل (لاحظ العبارة) فقد إستوعب ماركس ونجح فى أن يدرس دراسة نقدية مبدعة كل تراث الثقافة الأوربية فى مضمار الفلسفة وسائر ميادين الفكر الاجتماعى»[٩١].

(نراجع العبارة. إنها تقدم لنا قديساً صاحب معجزات وليس إنساناً عادياً مثلنا، فمن هذا الذى يستطيع أن يحقق فى السادسه والعشرين من عمره عملاً إبداعياً هائلاً، وأن يستوعب ويدرس كل تراث – مرة أخرى – كل تراث الثقافة الأوربية فى مضمار الفلسفة وسائر ميادين

---

٩٠ – ص١٠.

٩١ – ص ٢٥.

الفكر الاجتماعى دراسة نقدية)؟.

لقد تعمدت التكرار لألفت النظر إلي دور الكهنة الفراعنة الذى لعبه «أهل الحل والعقد السوفييت»بترويجهم لفكرة أن الماركسية معقدة وصعبة.. وصانعها ليس بشراً عادياً. وفهمها يحتاج نوعاً خاصاً من البشر.

مرة أخرى نعود إلى السؤال الساذج بعد أن إستدرجنا أهل الحل والعقد إلى ساحتهم ليقدموا لنا فهمهم الخاص والمصلحى للماركسية. فنسأل ما هى الماركسية؟

الإسلام ورغم أنه معتقد سماوى إلا أن الأمر سهل فى ساحته : قرآن – سنة – فقه.

البعض يكتفى بالقرآن والسنة ثم يفتح باب الاجتهاد، والبعض يكتفي بالقرآن بمقولة أن كثير من الحديث مصنوع. لكننا نعرف للأمر حدوده.

وكذلك المسيحية معلومه حدودها الاناجيل الاربعه . الرؤيا . قرارات مجمع نيقية.

أما الماركسية فقد تعمد «أهل الحل والعقد» إغماض الأمر، وتعقيده، وتعميمه. بحيث تقف أمام صفوف من الكتب بالمئات، ولا تعرف إذا ما كانت هذه هى كل الماركسية أم ليس بعد.

فهل الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز هى الماركسية؟

أم نضيف إليها الأعمال الكاملة للينين؟ أم غيرها أيضاً؟

وكيف نتعامل مع هذه النصوص؟ هل هى بذاتها المكون النظرى؟

أى أن لكل سطر فيها ذات الحجية النظرية؟ أم أن فيها نصوصاً مرسلة ترتبط بكاتبها، وزمانها، ومكانها، ولا يمكن أن تقيدنا فتلزمنا بالالتزام بها. فإن كان فيها الملزم وغير الملزم. فما هى شروط الإلزام وموجباته، ومبررات عدم الألزام؟

أم إن كل هذه النصوص هى تفسيرات، أو شروح ، أو إستنتاجات، أو إفتراضات مبنية على أساس خبرة محددة بزمانها ومكانها؟

ومن ثم فإنه يمكن القول إن كل هذه النصوص هى من قبيل الشروح والتوجهات والتطبيقات التى قد نأخذ بها أو لا نأخذ؟

هذا السطر الأخير لو كتبه كاتب قبل عدة سنوات لا طيح به إلى غياهب التحريفية والانتهازية والانتقائية والثورة المعادية. رغم أن لينين نفسه يعترف «لم يترك مبدعاً هذه النظرية ماركس وإنجلز مؤلفاً شرحا فيه بالكامل منظومة آرائهما فى الطبيعة والمجتمع والتفكير. وليس هناك غرابة فى ذلك، فلم يحدث قط أن نظر ماركس أو إنجلز إلى النظرية إلتى وضعاها علي أنها منتهية. فالماركسية ليست نموذجاً نظرياً للكون. وليست رسماً تخطيطياً ملزماً للجميع، وليست مجملاً للاستنتاجات التى لا تحتمل الخطأ. وإنما هى طريقة وأسلوب لإدراك كل ما هو موجود فى حركته وتغيره. وهى برنامج لإعادة الترتيب الثورى للعلاقات الاجتماعية، وأدوات النضال من أجل تحقيق إعادة الترتيب هذه»[٩٢].

---

٩٢ – لينين – بصدد الماركسية – الطبعة العربية – دار التقدم – ص٦

لكن كلمات كهذه ظلت دوماً أدوات للاستدلال، والترتيل، دون تمعن حقيقى فى مضمونها أو وضعها موضع التطبيق.

لا يوجد إذن «نص» «محدد» له بداية وله نهاية يمكن القول عنه: «هذه هى الماركسية»

هذا النص لم يوجد، ولن يوجد ، ومع ذلك ظل الجميع يتوهمون وجوده.. ويحولون أدوات الاستدلال إلى نظريات، والإستنتاجات إلى حقائق، والافتراضات إلي قوانين ، والممارسات إلي عبادات واجبة الاتباع، وبعد أن نجهد أنفسنا فى إستذكار، أو أستظهار نصوص لا نهاية لها، نكتشف إننا نقرأ مجرد رؤية [رؤية متأثرة بالزمان والمكان والشخصى والملابسات] يمكن أن تلهمنا الاهتداء، لكنها ليست واجبة الاقتداء.

ولعل جوهر المشكلة عند الماركسيين جميعاً هى أنهم خلطوا بين «الاهتداء» بنص أو رؤية وبين ضرورة «الاقتداء» الملتزم. لكن الأمر غاية فى البساطة ، الماركسية ليست نصاً محدداً جامداً أو قابلاً للتجمد. الماركسية منهج وأسلوب للنظر إلى الأشياء والكون.. وكل الكتابات ، والممارسات، التي تواكبت، وتراكمت وتجمعت، هى محاولات فردية، شخصية، لفهم واقع محدد، فى زمن محدد، وفق هذا المنهج.

إذن هي كتابات ملحقة بزمانها، ومكانها ولا يمكنها أن تتمدد لتشمل تحت مظلتها القسرية واقعاً مغايراً زماناً ومكاناً.

والخطأ الذي وقع فيه الماركسيون هو أنهم حولوا الكتب إلى وثن،

والنصوص إلى أقانيم رتلوها ترتيلاً، وكان الأكثر معرفة فيهم هو الأقدر على البحث فى بحار الكتب ليلتقط نصاً يرصع به كتابته، ويؤكد به صحتها حتى لو إقتضى الأمر تجاهل للواقع أو تشذيب له، أو تقليم لأظافره.

وكم قاموا بتقليم أظافر الواقع كى يتلاءم مع النصوص التى لم يلزمهم بها أحد، وإنما كانت لزوم مالا يلزم. وأسهم «أهل الحل والعقد فى الماركسية» فى تكريس إلتزامهم بها، كى يستمروا في إطار التزامهم بهم.. وبما يقولون، وبما يفعلون. لكن الأمر الآن سهل ويسير، لن نحمل مجلدات هذه الكتب إلى زاوية النسيان، فهى بالغة الأهمية لدراسة أسلوب تفكير الماركسيين، وأسلوب فهمهم، وأسلوب تطبيقهم للمنهج الماركسى. وهى ضرورية ليتعلموا منها ذلك، دون أن يلتزموا لا بالنص ولا بالتقليد. فهم يمتلكون، أو بالدقة يتعين عليهم أن يمتلكوا أسلوب تفكيرهم الخاص، وفهمهم الخاص،وتطبيقهم الخاص لهذا المنهج.

أسلوبهم الخاص، ليس لأنهم أولاد عاقون، أو مترفعون عن تقليد غيرهم، وإنما لأن لديهم واقعاً مغايراً زماناً ومكاناً، ومن ثم يتعين ان ينسجوا لانفسهم ماركسيتهم الخاصة بهم. التي تقوم على ثلاثة أقدام:

– التعرف علي المنهج الماركسى من خلال القوانين العامة.

– الاطلاع على كتابات القادة الماركسيين للتعرف على أسلوبهم في التفكير وطريقتهم فى الاستدلال وأسلوب معالجتهم لقضايا واقعهم..

بهدف التعرف والاهتداء وليس التقليد والاقتداء.

- دراسة الواقع المحلي دراسة متأنية والتعرف على تضاريسه والانهماك في تحديد رؤية ماركسية مصرية، تطبق المنهج، وتستفيد من تراث الآخرين، وتلتزم بالواقع المحلى.

ومن هنا فإن المخرج الممكن أمام الماركسيين المصريين هو إستنباط أو إستنبات ماركسية نابعة من التربة المصرية. تشترك مع الفكر العالمى في مشتركين: ذات المنهج . والاطلاع علي ذات التراث، وتتمايز عنه تمايزاً حاسماً فيما يختص بالتطبيق على الواقع المصرى. وهكذا ستكون الماركسية وستبقي كما كان يجب أن تكون دوماً.. نظرية عالمية التوجه تتفرع منها الماركسيات محلية المحتوى.

بهذا، وبهذا وحده، يمكن لفكرة ما أن تبقى وأن تتطور.. بممارسات البشر العاديين وليس بكهنوت «أهل الحل والعقد» ومن خلال إطلاق حرية الابداع المحلى، وليس من خلال إعمال فكرة الحلال والحرام.

* * *

ولكن يتعين علينا قبل أن نغلق هذا الملف - ولو مؤقتاً - أن نسأل سؤالا أكثر تعقيداً.. هل إمتلكت الماركسية معايير محددة لتحديد «ما هى الحقيقة»؟ وما هى؟.

أكاد أقول أن ممارسة أسلوب «أهل الحل والعقد» قد أخفى هذه المعايير، وفرض على الماركسيين أسلوبا سلفياً فى التعامل مع «الحقيقة»، وفى تحديد معاييرها وحتى فى أسلوب التعرف عليها.

فكل ما قاله السلف الماركسى الصالح «حقيقى» وكل ما رفضوه «غير حقيقى».

فقد فرض عليهم ان يرفضوا «دهرنج» لأن ثمة كتاب إسمه «نقد دهرنج». رفضوا دهرنج دون أن يقرأه أحد منهم، وحتى دون أن يقرأ «نقد دهرنج»وكذلك فعلوا مع «المرتد كاوتسكى» ومع «الدولية الثانية».. وهكذا تكرست فكرة «الحقيقة» المطلقة السابقة التجهيز فى كتابات الغير.

ومن يستسلم لها مرة يستسلم لها دوماً.

وتتمدد مظلة الحقيقة السابقة التجهيز من الالتزام بكل ما قاله ماركس (رغم أنف ماركس الذى حذرنا ألف مرة من هذا الالتزام الوثنى، وأكد أنه هو نفسه ليس ماركسياً) إلى الالتزام بكل ما قاله وفعله لينين، إلى .. وهنا تأتي الكارثة الالتزام بكل ما قاله وفعله السوفييت.

وقد استمرأ الكتاب السوفييت إختفاء معايير علمية للحقيقة فراحوا يفرضون علي الماركسيين في كل العالم مقولات خاطئة، لكنها واجبة التصديق برغم أنها واضحة الخطأ على الأقل بالنسبة لهذا الطرف أو ذاك، وهذا الواقع أو ذاك.

وتحت يدى الآن كتيب محشو بأكاذيب مرتدية ثياب الدراسة العلمية المستندة إلى الأرقام. الكتيب لمؤلف اسمه «تيخون بافلوف» أما العنوان الصاعق فهو «متى يلحق الاتحاد السوفيتى بالولايات المتحدة ويسبقها» (موسكو-١٩٦٠)

والكتاب ملئ بالأرقام والمعلومات .. صدقها الجميع، ونسجوا أحلامهم على أساس أنها «الحقيقة» ثم إكتشفوا – وبعد فوات الأوان – الزيف، ليس في المعلومات، وإنما حتى فى الأرقام.

كنماذج نقرأ « وفى الوقت الحاضر يتخطى الاتحاد السوفيتى الولايات المتحدة فى الإنتاج لا من حيث السرعة وحسب، وإنما من حيث المقادير المطلقة للزيادة السنوية في إنتاج المنتجات الصناعية الهامة»[٩٣]

وتقرأ: «تتقدم صناعة الولايات المتحدة علي كل حال إلى الأمام، وإن كان تقدمها هذا يجرى بسرعة تعادل علي وجه التقريب ربع سرعة تقدم الصناعة فى الاتحاد السوفيتى».

ونقرأ «بناء على المعطيات المذكورة (وهى جدوال رقمية) يتضح أن الاتحاد السوفيتى بنتيجة تنفيذ مشروعات السنوات السبع، سيسبق الولايات المتحدة في بعض أصناف المنتجات من حيث مقادير الإنتاج المطلقة، وسيقترب من مستوى إنتاجها الحالى فى بعض المنتجات الأخرى، وفي سنتى ١٩٦٧ – ١٩٦٨ سيتخطى الاتحاد السوفيتى الولايات المتحدة من حيث مقادير الإنتاج الصناعى» [٩٤].

ولست بحاجة إلى تعليق، فالأيام أثبتت مدي ما تملك مثل هذه الدراسات (المدعومة بالوثائق والأرقام) من حقيقة فعلية.

---

٩٣ – ص٩٢

٩٤ – ص ٣٢

ويبقى أمامنا الآن أن نحدد معياراً للحقيقة. يستند إلى إعمال العقل وليس إلى سلفية الفكر والنقل. وأن نتلقن الدرس المرير من تصديق مالا نعرف، والالتزام بما لا نمتلك دليلا موضوعياً علي صحته. وإذا كان للحقيقة معيار محدد فهو ما يقول به العقل تطابقاً مع الواقع، وبهذا المعيار نلتزم، ولسنا ملزمين بغير ذلك.

* * *

وكانت العلاقة غير الحميمة بين النظرية الماركسية وبين الديمقراطية محل مماحكات عديدة علي مدي المسار الصراعى بين الماركسية وخصومها وأنصارها علي السواء.

وفي محاولة - متأخرة جداً - للتعرف علي حقيقة أفكار كاوتسكى (المرتد) وأقطاب الدولية الثانية (أفكارهم كما كتبوها هم وليس كما إنتقدها خصومهم) أكتشف - ومن وجهة نظرى - نزعة إصلاحية صارخة لا تتلاءم مع طبيعة الصراع الثورى الذي كان دائراً آنذاك فى المجتمعات الأوربية، ومن ثم يتبدى لنا وكأن كاوتسكى ونظرائه كانوا مثل المورفين الذى يحاول تهدئة مشاعر الطبقات الكادحة، أو حتى تخديرها لتكتفى بتوجه إصلاحى مسطح تماماً. لكن الشئ الملفت للنظر هو محاولته مناقشة مسألة الديمقراطية بمفهومها الحقيقى أو بالدقة بمفهومها «الليبرالى»، أو كما كان يتهمه لينين بمفهومها «البرجوازى». ولعل حجج كاوتسكى كانت مقنعة إلى الحد الذى دفع لينين إلى اللجوء

لإستخدام الشتائم التى لا تليق بحوار علمى (كاوتسكى يعوى ككلب صغير ضال - كلمات قذرة أقذر من تلك المستمدة من الاسطبلات.. الخ).

لكن لينين كان في رفضه لكاوتسكى.. ماركسياً، بمعنى أنه كان يدافع بحماسه المعهود عن أفكار ماركس.. فما هى الفكرة الأولية للماركسية إزاء قضية الديمقراطية؟

قال ماركس «لايمكن لمملكة الحرية أن تبدأ إلا عندما ينتهى العمل الذى تفرضه الضرورة»[٩٥]

وكتب إنجلز في عام ١٨٤٥ «الديمقراطية فى أيامنا تعنى الشيوعية. وأية ديمقراطية أخرى لا يمكن أن تتواجد إلا فى رؤوس الحالمين.. إن مفهوم الديمقراطية بالنسبة للجميع يستند على الطموح إلى التكافؤ الاجتماعى»[٩٦] ثم تتبلور الفكرة الأساسية واضحة فى «البيان الشيوعى» «إن الخطوة الأولى في ثورة الطبقة العاملة هى رفع البروليتاريا إلي مركز الطبقة الحاكمة وكسب معركة الديمقراطية» ثم «وسوف تستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لكى تنتزع بالتدريج كل رأس المال من يد البرجوازية» ثم «ولا يمكن تحقيق ذلك في البداية إلا بواسطة عمل إستبدادى ضد حقوق الملكية».

---

٩٥ - كارل ماركس - رأس المال - المجلد ٣ - ص٣٣٩

٩٦ - فريدريك انجلز - عيد الأمم في لندن. (مقال).

هكذا بوضوح صريح «عمل إستبدادى ضد حقوق الملكية» وبالطبع ضد المتمسكين أو المدافعين عن حقوق الملكية. لكن هذه الفكرة إرتبطت إرتباطاً وثيقا بفكرة غير دقيقة، أو غير واضحة، تمسك بها ماركس وإنجلز في كثير من كتاباتهما. ونمضى مع «البيان الشيوعى» لنتعرف على جذور هذه الفكرة..

«وعندما تختفى الفروق الطبقية خلال مجرى التطور، ويتركز كل الإنتاج فى أيدى إتحاد عريض من الأمة بأسرها، ستفقد السلطة العامة طابعها السياسى».

هنا يكمن كل شئ نريد أن نقوله.

ماركس دعا إلى خطوة «إستبدادية» لتجريد المالكين من أدوات الملكية، وإقامة دولة «تختفى فيها الفروق الطبقية». وعندما تختفي الفروق الطبقية.. ستفقد الدولة مبرر وجودها، تذبل، تتلاشى وسيقوم مكانها «إتحاد يكون فيه التطور الحر لكل فرد شرط لتحقيق التطور الحر للجميع»(٩٧)

ويفسر إنجلز الأمر بشكل أوضح فى رسالة منه إلى بيبل «إن البروليتاريا تحتاج إلى دولة من أجل القمع. من أجل أن تقمع معارضيها، وبعدها يصبح فى الإمكان الحديث عن الحرية، فإن الدولة

---

٩٧ – ماركس، انجلز – المؤلفات الكامله – الطبعة الانجليزية – جـ١ – ص١٢٦.

فى حـد ذاتها سـتكف عن الوجـود». وتظل هذه الفكرة، وذات الكلمـات عالقة فى الأذهان، راسخة فى الصدور، لتفرض نفسها فى التعامل مع « الخصوم» ناسية أو متناسية أمرين أساسيين:

أ - أن الخصوم قد تغيرت طبيعتهم فى نظر الحكام السوفييت فبدلاً من كبار الملاك والرأسماليين، أصبح الخصم هو المخالف للرأى حتى داخل صفوف الحزب.

ب - أن فكرة الاستبداد المؤقت الوقتى المحدد المدة.. حتى نقهر الخصوم، ثم تذبل الدولة وتعم الحرية، لم يتحقق شقها الثانى فالدولة لم تذبل (فالصراع الطبقى وإن إختفى محلياً أو ذبل أو أسدل عليه الستار، قد حل محله صراع طبقى عالمي شرس تطلب إشتداد عود الدولة، وزيادة سطوتها لحماية المنجزات الاشتراكية في مواجهة التآمر الامبريالى).

وعلي أية حال فما أن وصل لينين إلى السلطة (١٩١٧) حتى تذكر تماماً كلمات ماركس وإنجلز فى شقها الأول على الأقل أى (الاستبدادى).

وفى رسالة وجهها لينين إلى عمال أوربا وأمريكا (عام ١٩١٩) يقول: «إن كل دولة، بما فيها الجمهورية الأكثر ديمقراطية ليست فى الجوهر إلا آله قمع فى يد طبقة ضد طبقة أخرى. والدولة البروليتارية هى آله قمع فى يد البروليتاريا ضد البرجوازية، وهذا القمع ضرورى لمواجهة

القوي المسعورة والشرسة، والتى لا تتورع عن إرتكاب أى شئ.. عندما نبدأ فى نزع ملكيتها»[98]

ومن هنا رفع لينين وبحسم وإطمئنان شعار «كل السلطة للسوفيت» مؤكداً «إن مجالس السوفيتات هى شكل أرقى من الجمهورية الديمقراطية»[99]

ومن هنا أيضاً نحى لينين كل نظرية «الحق» الليبرالية، أو كما تمسك بتسميتها هو «البرجوازية»، وأرسى دعائم نظرية جديدة للحق تقول «إن مصدر السلطة ليس هو القانون الذى يقره برلمان منتخب، وإنما هو المبادرة المباشرة للجماهير الشعبية من القاعدة»[100] .

ويوضح لينين فكرته قائلا «دولة البرجوازية هى دولة ديمقراطية الاستغلاليين، أما دولتنا دولة الذين عانوا من الاستغلال، فهى ديمقراطية لأصحابها وأداة قمع لخصومهم. وقمع طبقة يعنى إنعدام

---

٩٨ – لينين – المؤلفات الكامله – الطبعة الانجليزية – جـ٢٧ – ص٤٥٧ [مقال نشر فى البرافدا فى ٢٤ – ١ – ١٩١٩].

٩٩ – لينين – رسائل من بعيد – المؤلفات الكاملة – الطبعة الانجليزية – جـ٢١ – ص٣٨.

١٠٠ – لينين – المؤلفات الكاملة – الطبعة الأنجليزيه – جـ ٣١ – ص١٤٦.

المساواة لتلك الطبقة، وإستبعادها من إطار الديمقراطية[١٠١]

لكن لينين بإعتباره منظماً ممتازاً لم يترك الأمر بلا تحديد فقال: «تمارس البروليتاريا المنظمة فى السوفيتات دكتاتوريتها، ويتولي حزب البلاشفة قيادة البروليتاريا»[١٠٢]

ثم تتمدد الفكرة مرة أخرى، فيقول لينين أيضاً «تعلمنا الماركسية، أن الحزب السياسى للطبقة العاملة، أي الحزب الشيوعى، هو وحده القادر على توحيد وتدريب وتنظيم طليعة البروليتاريا هى وكل جماهير الشعب العامل.. وأن يقودها سياسياً، ومن خلالها يقود كل جماهير الشعب العامل»[١٠٣]

وهكذا.. تقوم الدولة الاشتراكية، وتمارس «القمع» ضد خصومها الطبقيين. لكنها لا تذبل. بل تتكرس. وتواصل القمع ضد خصومها (خصوم.....ها) وهذه كلمة مطاطة جداً. فمن الذى إعتبر خصماً للدولة الاشتراكية.. فى البداية كبار البرجوازيين والملاك العقاريين، ثم التحريفيين والانتهازيين والتروتسكيين، ثم المتآمرين، ثم المخالفين فى الرأى.. ثم..).

وإذ تكرس الدولة سلطتها «القمعية» ينشأ لها مفكرون يبررون لها ما

١٠١ – لينين – الثورة البروليتارية والمرتدكاوتسكى – المؤلفات الكامله – الطبعة الانجليزية – جـ ٢٨ – ص٢٥٠.

١٠٢ – لينين – الشيوعية اليسارية عبث أطفال.

١٠٣ – لينين – المؤلفات الكاملة – الطبعة الانجليزية – جـ٣٢ – ص٢٤٦

تفعل. وتظهر نظرية جديدة للحق.. ويقول أحد هؤلاء المفكرين (أو المبررين كلاهما صحيحة) «إن الحزب الشيوعى هو طليعة الطبقة الأكثر تقدماً، ولهذا فهو فى ذات الوقت طليعة جميع الكادحين. وهذا يعنى أن المصالح الجذرية للطبقة العاملة تتطابق مع المصالح الاجتماعية لسائر الكادحين، وإن الحزب الشيوعى يعبر ويدافع في المقام الأول عن هذه المصالح، ولهذا السبب يصبح الحزب الشيوعى هو الطليعة للشعب بأسره»[١٠٤].

ولأن الدولة لا تذبل بل يتعزز دورها فإننا نجد من يقول: «إن الحياة نفسها تطرح متطلبات جديدة وأكثر صرامة (لاحظ أكثر صرامة هذه) لمستوى نشاط الحزب في المجالات السياسية والأيديولوجية والتنظيمية»[١٠٥]

بل نجد أن السيد ستراشون يبشر وصراحة بفكرة غريبة تقول:«إن إنتخابات الهيئات التمثيلية تؤدى قبل أى شئ فى ظل الدولة الاشتراكية مهمة ضمان تحقيق الأغلبية فى هذه الهيئات لممثلى الشعب الكادح والحيلولة دون إستيلاء أعداء الثورة علي هذه الهيئات»[١٠٦].

والفكرة واضحة تماماً.

---

١٠٤ ستراشون – التمثيل الشعبى الاشتراكى – دار التقدم – موسكو (١٩٨٧) – جـ ١٤

١٠٥ – معجم البناء الحزبى – دار التقدم – موسكو – (١٩٨٧) ص١٣٦

١٠٦ – ستراشون – المرجع السابق – ص٤٥.

لكننا بحاجة إلى أن نتوقف لنتأمل الفكرة في مجملها وفي تداعياتها..

- ماركس قال أن الدولة، أى دولة هى أداة قمع تمارسه طبقة ضد طبقة.

- إعترف بأن الدولة الاشتراكية ستمارس القمع مؤقتاً ضد خصومها الطبقيين.

- مؤقتاً.. لأن الدولة سوف تذبل بالضرورة.

- الدولة لم تذبل بل تدعمت أكثر. وهذا يعنى أن ماركس الذي فهم وبشكل ممتاز المجتمع الرأسمالى وحلل معطياته ونتائج ممارساته. لم يمتلك ذات الفهم العميق للمجتمع الاشتراكى وآلياته وممكنات تطوره، وهذا طبيعى تماماً ففارق كبير بين الانغماس فى الممارسة والمعايشة، وبين التصور والتوقع أو الاستنتاج، وكل ما إمتلكه ماركس من تصور للمجتمع الاشتراكى إستمده من ممارسة تجربة كوميونة باريس وهى تجربة فرضت عليه الكثير من الافتراضات والتصورات نظراً لمحدوديتها الزمنية والمكانية.

- وعندما قامت الدولة الاشتراكية مارست القمع ضد العدو الطبقى. لكن الماركسية ذاتها لا تضع فاصلاً كبيراً بين الفكر والموقع الطبقى، فهي تعتبر أن الموقف والفكرة هما ثمرة للموقع الطبقى.. أو دفاعاً عنه وعن متطلباته. ومن هنا وعندما تصادمت السلطة الاشتراكية مع خصوم فكريين أو حتى معارضين سياسيين أو مختلفين فى الرأى أو فى الرؤية

إعتبرتهم – وببساطة – أعداءً للثورة، ومن ثم خصوماً طبقيين وطبقت عليهم حد.. القمع.

– إن التطبيق اللينينى زاد علي الفكرة الماركسية إزاء الدولة مسألة التفويض المتمركز والتصاعدى فالشعب تتمحور مصالحه في إطار جماهيره الكادحة. وللجماهير الكادحة طليعة هى الطبقة العاملة (أكثر الطبقات ثورية) وللطبقة العاملة طليعة هى الحزب الشيوعى (أكثر طلائعها صلابة فى الدفاع عن مصالحها). والحزب الشيوعى يمثله ويحدد إرادته هرم متصاعد ومتمركز من المؤتمر إلى اللجنة المركزية إلى المكتب السياسى إلى.. السكرتير العام.

وهكذا يقف السكرتير العام للحزب الشيوعى الحاكم.. فى قمة هرم يعطيه سطوة لا حدود لها، فمن يقف ضده يقف ضد الثورة، ومن يعارضه يعارض الثورة، ومن ينتقده ينتقد الثورة.. وبما أن هناك «فاتيكان» قائم في الكرملين، حيث الاتحاد السوفيتى العظيم – وكان عظيماً حقاً – وحزبه القائد، فأن السكرتير العام للحزب السوفيتى ، أصبح في واقع الأمر سكرتيراً عاماً لعموم الاحزاب «الشقيقة».

إن تشدد [ستالين] تشدد الجميع، إن لان [خروتشوف] لان الجميع.. ان تجمد [بريجينيف] تجمد الجميع.. إن إنهار [جورباتشوف] إنهارالجميع .. أليس هذا ما حدث فعلاولم ينج من ذلك إلابعض من اعتادوا علي بعض من التمرد.

إنها ذات المحاولة التى يفرضها المتأسلمون أو يفترضونها، محاولة

الخلط بين الدين والمتحدثين باسم الدين، فالثورة الاشتراكية إشتبكت فى تلاحم لا ينفصل وغير قابل للانفصال مع ممثلها العام والوحيد السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى. تماما كما يحاول «الأمير» أو «الفقيه» أن يدعى تمثيل الإسلام ذاته.

– إن الفكرة الماركسية كانت فى بدايتها محدودة جداً عند تصورها للمجتمع الاشتراكى.، وأنها إعتمدت على تجربة الكوميون، الأمر الذى حاصرها وحصرها فى إطار أفكار قادة الكوميون الذين كانوا فى أغلبهم برجوازيون صغار يفورون بحماس زائد، وكانوا يمارسون تجربتهم فى حى واحد من أحياء مدينة واحدة هى باريس، ومارسوا ذلك كله لأيام أو أسابيع محدوده.

وينتج عن ذلك أفكار مثل:

– إنتخاب المندوبين من القاعدة مباشرة.

– كل المندوبين يحكمون لبعض الوقت بعد أن يعملوا ثمانى ساعات فى عملهم الوظيفى أو المهنى المعتاد، وذلك لكي لا يوجد من يحكمون كل الوقت فيتحكمون.

– كل المندوبين يشاركون فى التنفيذ وفى التشريع فى آن واحد. فالسلطة الكوميونية لم تعرف الفصل بين السلطات.

وبغض النظر عن مدى صحة أو مدى إمكانية تطبيق مثل هذه الافكار في دولة كبيرة وعلى مدى طويل.. فقد إستفادت القوة المتحكمة فى الدولة السوفيتية من هذه الممارسات وحققت لنفسها نفوذاً طاغياً..

* فالمندوبون (في مجلس السوفيتيات) يعملون فى عملهم المهنى ثمانى ساعات، ومن ثم يكون دورهم في الحكم محدوداً جداً. بما يترك سلطة الحكم الفعلى للمتفرغين.. وهم قادة الحزب.

* وإنعدام الفصل بين السلطات يؤدى إلى إمتلاك السكرتير العام سلطات واسعة.. تنفيذية وتشريعية، ويضعه فى قمة هرم السلطة بلا منازع وبلا سلطة تتوازن معه.

* ان نظرية التفويض المتمركز والتصاعدى قد إستخدمت على النطاق المحلى (سكرتير الحزب فى أى مستوى هو المسئول الأول وهو الحاكم الأوحد) ثم على المستوى العالمى.كذلك ففى خضم معارك الحركة الثورية العالمية ضد الامبريالية العالمية، كانت هناك قيادة هى بالطبع الحزب الشيوعى السوفيتى، ومن ثم فدوره القيادى محفوظ ، وغير قابل للمنازعة، والالتزام بما يقول هو قدر مفروض بل ومفترض، والخروج عليه خروج علي حركة الثورة العالمية وعداء لها .. وخدمة للعدو الأمبريالى.

(راجع ما حدث لتيتو وحتى لماوتسى تونج عندما إختلف كل منهما مع الحزب السوفيتى)

ولعله من الملائم ان أحكى هنا حكاية طريفة ومؤلمة فى آن واحد. فى مرحلة السجن الناصري الصعبة تم تهريب قليل من الكتب الى السجن، وفى سجن القناطر كنا نجلس كل ليلة فى الزنزانة لنستمع إلي رفيق يجيد الفرنسية، يقرأ من كتاب بالفرنسية ويترجم لنا بالعربية

مباشرة .. الكتاب كان عنوانه « تيتومارشال الخيانة» وهو محشو بآلاف مما يقال انه وثائق أو أدلة دامغة على أن تيتو كان جاسوساً وعميلا للامبريالية منذ بداية نشاطه السياسى. تجاسرت وسألت.. وكيف أصبح زعيما، وبطلا شعبياً محبوباً. فأجاب «الملقن» إنها الامبرياليه التى قد تخدعنا بعض الوقت ، ولكن لن تخدعنا كل الوقت. وبعد فترة صعد نجم تيتو كواحد من أبطال عدم الانحياز. وجاء خروتشوف و«تقرر» رد الاعتبار لتيتو. وعاد من جديد بطلا إشتراكياً. وسألت كيف؟ فأجاب «الملقن» إنها الامبريالية خدعتنا فدست علينا وثائق مزوره ضد تيتو. لكنها لا تستطيع أن تخدعنا كل الوقت. وإمتثلت لأنه لم يكن أمامى إلا أن أمتثل.

* * *

لكننا الآن - والآن فقط - نرفض فكرة تناقض «الاشتراكية» مع «الديمقراطية» (بمفهومها الليبرالى).

وقد عانينا نحن فى مصر طويلاً (فى الزمن الناصري) من محاولة وضعنا فى موضع الاختيار الذليل بين الخبز بلا حرية، أو الحرية بلا خبز. فنحن نعتقد أن الإنسان من حقه أن ينال قدراً كافياً من الخبز ومن الحرية معاً، وفى آن واحد.

ومن هنا فإن «الماركسية» يتعين عليها أن تعيد النظر وبشكل إنتقادى ليس فقط فى «التطبيق» الذي مارسته السلطة السوفيتية وغيرها من السلطات المقلدة لها من أيام لينين و حتى الآن فى مجال

الديمقراطية، وإنما يتعين عليها أن تراجع مراجعة نقدية حازمة جوهر الفكرة التى نادى بها ماركس وانجلز عن الديمقراطية، مستندين إلى مقولة «أن الدولة أى دولة هى أداة قمع» وإلى الفكرة التى لم تزل تبدو خيالية وهى «ذبول الدولة» وإنتفاء دورها، مع إنتفاء مبررات الصراع الطبقى، ومن ثم يتحقق ما يقولون عنه «التطور الحر لكل فرد فى إطار التطور الحر للجميع».

ومن ثم فإن علي الماركسية أن تتخلص وبشكل حاسم من فكرة «قمع» الخصم، ومن أفكار أخرى عديدة، مثل نظرية الاستنابة، أو تصور النيابة عن الشعب أو الطبقة أوالحزب.

وعليها أن تتخلص من التصورات «الكميونية» المحدودة الأفق، والتى مزجت كل السلطات معا لتسهيل وضعها جميعاً فى سلة واحدة يقبض على عنقها جميعاً شخص واحد، فنفسح أمامه الطريق، وكأننا نتوسل إليه باسم النظرية، وباسم الشعب وباسم الطبقة، وباسم المستقبل: تفضل من فضلك كى تصبح دكتاتوراً.

لكن ذلك كله سهل.. فهو مجرد قرار، أو إقتناع أو أقناع، أما المهمة الأكثر أهمية فهى محاولة تفهم الواقع المحلى تفهماً تفصيلياً يمكن الماركسيين من أن ينسجوا على أساسه رؤية ماركسية مصرية ويمنحها الصبغة المصرية.

والصبغة هنا لا تعنى مجرد طلاء، وانما أن تتشكل من نسيج محلى النهكة، ومحلى المحتوى.

ويتطلب ذلك فهما متأنياً للواقع وليس مجرد إلمام به.

ومن ثم تكون قادرة علي أن تقدم للجماهير المصرية مقترحاً مصرياً بتصور لمستقبل مصر على ضوء أفكارها وفهمها النظرى للواقع المحلى.

ومثل هذا المقترح سيكون مستنداً بالطبع إلى المنهج الماركسى وقوانينه العامة، وإلى قراءة للخبرات الماركسية الأخري، لكنه جوهره المصرى يبقى هو الأساس.

وهذه مهمة ليست سهلة بالنسبة لبلد كمصر، وبالنسبة لزمن كذلك الذى نعيش فيه حيث وقعت عملية حراك إجتماعى واسعة غيرت من تراتب العديد من الفئات فى السلم الاجتماعى ومن مواقعها إزاء بعضها البعض، وغيرت من التركيب الاجتماعى لفئات عديدة فى الريف والمدينة. الأمر الذى زاد من تعقيدات الواقع المصرى تعقيداً فوق تعقيد.

* * *

لكن صياغة رؤية نظرية كهذه يتعين عليها أن تضع فى الاعتبار المتغير الأساسى الذى أصبح سائداً فى قناعات الجميع أو أغلبهم علي الأقل . وهو ضرورة أن تلتزم الماركسية بالديمقراطية .. بمعنى أن تلتزم بفكرة التعددية الحزبية، وأن يكون الحزب خارج الحكم أو داخله واحداً من أحزاب عدة تعمل فى الساحة السياسية على قدم المساواة، دون أية أفضلية أو إدعاء وهى بأنه الممتلك الوحيد لمفاتيح تمثيل الشعب أو الجماهير الكادحة، ويتطلب ذلك بالضرورة التمسك بفكرة تداول السلطة

. فوصول الحزب إلى السلطة مرتهن بأصوات الناخبين وكذلك إبتعاده عنها.

والإلتزام بذلك سيتطلب بالضرورة بحثاً نظرياً دقيقاً ومدققاً فى تحديد البرنامج ومساحة التغييرات التى سيطرحها.

ففى السابق كان وصول الحزب إلى السلطة بداية لا نهاية لها. ويستند ذلك إلى مفهوم التراتب المتواصل فى تطور المجتمعات، فالماركسية التى وضعت خريطة لتطور المجتمعات (شيوعى بدائى - عبودى - إقطاعى - رأسمالى - إشتراكى) لم تعرف أو تعترف بأى إحتمال لتراجع مرتبة أعلى من هذه التشكيلة إلى الوضع الأدنى. فهل رأيت مجتمعاً إقطاعياً يرتد إلى العبودية، أو مجتمعا رأسماليا يرتد إلى الإقطاع؟ لا. وكانت «لا» هذه قاطعة مانعة. إذن لا مجال لارتداد المجتمع الاشتراكي إلي الرأسمالية من جديد (ونسوا أن هناك فارقاً أساسيا هو أن الانتقال عبر المراحل الأربع الأولى إنتقال بين متجمعات تعترف جميعاً بالملكية الفردية لوسائل الانتاج .. ومن ثم فإلانتقال وإستقراره أيسر وأسهل.)

وقد أدى هذا الفهم بالطبع إلى طمأنينة زائفة إزاء الأخطاء التى تراكمت، ورآها الناس رأى العين، وتجاهلوها، فمسيرة التاريخ تسير قدماً إلى الأمام، ولا مجال للتراجع ولكن ها هو التراجع حقيقة واقعة مجسدة أمام أعيننا.

وفى السابق كانت الأحزاب المنتسبة إلى الماركسية تضع برامجاً

راديكالية تطالب بتغيير شامل كامل، وجذرى فى البنية الاقتصادية والاجتماعية وفى البني الأخرى، وفوراً.

والآن.. وإذ تقبل هذه الأحزاب بفكرة تداول السلطة فهل سيكون من الممكن أو حتى من الجائز تصور إجراء مثل هذه المتغيرات الشاملة والكاملة والجذرية فى البنية الاقتصادية والاجتماعية بواسطة حزب سيحكم لأربع سنوات، وربما فقد الحكم بعدها، وأتى بعده رأسماليون ليعيدوا إستعادة البنية القديمة كما كانت؟، فهل يمكن أن يركب المجتمع أرجوحة المتغيرات المتناقضة تناقضاً حدياً كل أربع سنوات؟ بل هل يحتمل؟

ولعل الأقرب إلى المنطق هو أن يطالب الحزب بمطالب للتنفيذ الفورى غير راديكالية أقصد جزئية، دون ان يلغى ذلك إمكانية طرح برنامج حد أقصى كمطلب نهائى.. أو بالدقة كطموح أو حتى حلم نهائى بحيث يسير الحزب - إذا ما وصل إلى الحكم عبر الانتخابات - بالمجتمع في مسار التغيير بخطوات محسوبة ومحددة، بحيث يمكن للنقيض إذا ما وصل إلى الحكم أن يتراجع عن بعضها [لأنه سيكون من الصعب عليه أن يتراجع عنها كليا] دون أن يحدث إنهياراً مجتمعياً. وهكذا سيحتاج الامر إلى مرحلة إنتقالية طويله الامد.. وربما طويلة جداً.

أو هذا ما أعتقد

* * *

وبعد. عندما مات الرسول وسرت همسات ترددت بهواجس التردد فى صفوف المؤمنين خرج عليهم أبو بكر صائحا «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت».

فهل من أبى بكر يصيح هذه الصيحة؟.

إنتهى الاتحاد السوفيتى ولكن الشوق للعدل والمساواة والحرية لم يزل يجيش فى الصدور، الحاجة إلى الخبز والمسكن والعلم والتقدم والديمقراطية لم تزل تلهب المشاعر.

وأبو بكر الماركسى آت حتما. أن لم يأت من صفوف الماركسيين الحاليين، بحيث يلهب ظهورهم ويدفعهم إلى إعمال العقل والفكر وفهم الواقع المحلى ودراسة كل ما كان ، ودمج المعرفة النظرية بالواقع دمجاً غير قابل للانفصال..

إن لم يأت، أو أتى ولم ينجح، فسيأتى حتما من صفوف جيل جديد.

فالشوق للعدل قديم..

ومتجدد دوما..

ونعود لنلتو تلك الايقونه الفرعونية:

إنهض يا أوزوريس

ان حوريس يحبك.

التأسلم السياسى وروافده

الاخوان المسلمون

«وإن جادلوك فقل الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون»

قرآن كريم.

«لا تبردوا بريداً إلا مع حسن الوجه، حسن القول، حسن الفعل»

حديث شريف

««القرآن لا ينطق وهو مكتوب، وإنما ينطق به البشر، وهو حمَّال أوجه»

على بن أبى طالب

أنا إلاله
لم آمر أحداً منهم أن يفعل السوء
لكن قلوبهم هى التى أفسدت كل ما قلت.
ورغم أن الانسان إعتاد إرتكاب الخطيئة
فإن الرب يعرف دوماً الرحمة.
لأن الإله فى طيبه لا يضيع يومه كل فى الغضب.

.....

.....

قوة المرء فى لسانه
والحديث الطيب أقوى من الحرب
القتل لا يفيد
لا تكن فظاً.

......

......

إختلت الموازين
إختفى الحق
البعض يحاول حتى خداع الآلهة
يذبحون الأوز كقرابين
ويقدمونها للآلهة زاعمين أنها ثيرانا

من بردية فرعونية

★ بدايه عن التسمية

فى كل محاولات تسييس الدين،أو تديين السياسة يبرز إتجاه لإتخاذ أسماء تستهوى قلوب العامة، وتمنح أصحاب هذه المحاولات مساحة من التستر بصحيح الدين لتضليل الناس، ولإستبعاد مخالفيهم من ساحة الإيمان.

ولهذا حرص الإعلام المصرى فى السبعينيات على ألا يستدرج إلى ترديد هذه المسميات«فالجماعة المسلمة « (شكرى مصطفى) أسميت إعلامياً جماعة التكفير والهجرة، و«جماعة شباب محمد» (صالح سرية) أسميت إعلامياً جماعة الفنية العسكرية.

ذلك أن الوقوع فى فخ هذه المسميات يمنح هذه الجماعات مسحة من المهابة الدينية، بينما هى فى حقيقتها لا تستحق ذلك.

كذلك فإن الوقوع فى فخ إستخدام مسميات مثل «الاخوان المسلمون» أو «الجماعات الإسلامية» يعنى لغوياً (كما سنرى فيما بعد) أن كل من هو خارج الجماعة، خارج عن الإسلام. فكأننا إذ نقع فى فخ إستخدام مسمياتهم نكرس مقولاتهم المنافيه للحقيقة، ولصحيح الدين.

ولقد أطلقت على هذه الجماعات مسميات عدة نعتقد أنها جميعاً خاطئة:

١ - الأصوليون:

«معناها الراغبون فى العودة إلى أصل الإسلام، والأصل جليل وهو كلى الصحة، وإعترافنا بإنتسابهم إليه، أو محاولتهم العودة إليه هو إقرار منا بصحة ما يدّعون.

٢ - السلفيون:

وتعنى المحاولين للإنتساب للسلف والإقتداء به. وفى القاموس سلف الرجل هم آباؤه المتقدمون[١] فهم يريدون الانتساب إلى الرعيل الاول من المسلمين، وهم لا يستحقون ذلك، لانهم ليسوا كذلك. .

٣ - المتطرفون:

والتطرف لغة هو الوصول إلى أقصى الشئ دون الخروج عن حدوده. والطرف هو الناحية أو الطائفة من الشئ، ويقال فلان كريم الطرفين أى كريم النسب لأبيه وأمه.[٢]

فكأننا إذ نسميهم بالمتطرفين نؤكد أنهم الأكثر إيماناً، والأكثر إقتراباً من صحيح الدين. فإن كان الأمر كذلك فلم لا نقتدى بهم؟ ونسير على دربهم؟

٤ - التيار الإسلامى أو الإسلاميون:

و«إسلامى» هنا صفة أو نعت، والصفة عند النحويين هى تمييز الشئ عما عداه، كأن تقول «مصريين» لتمييزهم عن غيرهم من الشعوب، فإن أضيفت إليها «ال» أصبحت تعنى إستغراق الشئ كله، فإن قلت «المصريين» فإن من عداهم لا يكون مصرياً.

فهل نردد ما يسمح لهم باعتبار أنفسهم وحدهم ودون غيرهم: «المسلمون».

---

١ - مختار الصحاح - طبعه ١٩٢٠ - ص٣٠٩. باب سلف.

٢ - المرجع السابق - ص٣٩ - باب طرف.

٥ - المتأسلمون:

والتاء هنا تعنى فعل شئ كأنت «تفعل»، فإن تأخرت عن الفعل كانت ضميراً، وإن تقدمت صارت علامة. فالتاء إذ تضاف إلى الفعل «أسلم» تعنى أن صاحبة يتشبه أو يدعى أن مقولاته هى صحيح الإسلام بينما هى ليست كذلك.

وهكذا تقول «تأسلم» كما تقول تأقلم. وتفلسف وتأمرك (أى أتخذ علامات الأمريكيين لكنه ليس كذلك) أو إتخذ سمات الفلاسفة دون أن يستحق،...وهكذا.

لهذا فإن التمسية الصحيحة لغوياً هى فى إعتقادى «المتأسلمون».

وسياسياً يمكن أن تكون (إذ ماتحرج البعض من التسمية اللغوية) الجماعات السياسية المتسترة بالدين.

* * *

..وبداية أخرى
عن تسييس الدين

يقول ابن المقفع «الدين تسليم بالايمان، والرأى تسليم بالاختلاف. فمن جعل الدين رأياً فقد جعله خلافاً، ومن جعل الرأى دينا فقد جعله شريعة».

وهكذا فإن تسييس الدين، أو تديين السياسة هو فعل خاطئ من الناحية المنهجية. ذلك ان السياسى يطرح رأياً أو موقفاً أو برنامجاً فإن إختلفت معه كنت معارضاً له، أو معترضاً عليه. لكن هذا الرأى إن جاء متشحاً بالدين، ومستخدماً رداءً دينياً يوحى لك، أو يفرض عليك أن هذا

القول هو الدين ذاته .. أو في أحسن الأحوال هو الرأى الصحيح في الدين وفي معطياته. فماذا لو خالفته أو إختلفت معه؟ أنت إذن تختلف مع صحيح الدين.

ومن هو هذا السياسي الذى يرغب أو يتجاسر فيختلف مع صحيح الدين؟

ومن هنا فإن فكرة إحتكار الدين لصالح جماعة سياسية يعطيها الحق في الاستقواء بالدين على جميع من عداها. أو وفق التعبير المستخدم لديهم «الاستعلاء بالإيمان» فهم الأعلى. الأجدر. الأقوى. الممسكون بمفاتيح الصحة والخطأ، لأنهم الممسكون بمفاتيح الحلال والحرام. أليسوا هم أهل الحل والعقد في الاسلام؟ ولنا في ذلك تفصيل تال.

والمشكلة هنا تأتي من تعمدهم الخلط بين الرأى في الدين، وبين الدين ذاته. فالدين معطى سماوى كلىُّ الصحة والرأي معطي إنساني نسبى الصحة، فهل يرضى واحد من «أمراء» أو «أئمة» التأسلم السياسي بمنزلة كمنزلة البشر العاديين فيكون رأيه أو رأى جماعته نسبى الصحة؟ فإن رضى فما جدوى «التأسلم» والإلتحاق بالدين، إنه يتأسلم كي يفرض علينا رأيه فرضاً.. فهو جماعه المسلمين، هو صحيح الدين، هو صاحب الحق في تحديد الحدود بين الحلال والحرام..

فماذا لو تجاسرت على مخالفته؟

الاجابة جاهزة ورادعة: من خرج على الجماعة فإضربوه بحد السيف.

ومن هنا وتحت ستار تسييس الدين أو تديين السياسة يكون العنف مفترضاً بل ومفروضاً.

* * *

أتى العنف إلى ساحة السياسة منذ زمن الخليفة عثمان بن عفان. وجاء مرتدياً - وهذا طبيعي - ثياباً إسلامية. أي إذا شئنا التدقيق اللغوى أتى متأسلماً. طرفان أو أكثر إختلفا أو إختلفوا، ثم تحصن كل منهم بنصوص أو دعاوى أو حتى إدعاءات «متأسلمة» مؤكداً أن موقفه وحده هو «صحيح الإسلام».

أو بالدقة هو الموقف «الحلال» وإن الآخر، كل الآخر هو «الحرام».

حتى مقتل عثمان. صاحب رسول الله، ورفيق معاركه.. ومموِّلها، وخليفته الثالث أتى «حلالاً» عند البعض. وإختلط «التأسلم السياسى» بالجاهليات القديمة فتبدى الأمر وكأن الناس قد نسوا إسلامهم أو بعضا منه، وعاودا إلى عادة الثأر الجاهلية و العادات القبلية التى نبذها الإسلام.

وعندما إنتصر «الأمويون» تذكروا علي الفور ثأر بدر.. ونقموا علي أهل المدينة مساندتهم للرسول ضد جدهم أبى سفيان. وعندما زار معاوية المدينة وقف فى سكانها - المرحبين به - على مضض - خطيباً فقال: «أما بعد .. فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة».

أما مسلم بن عقبة قائد معاوية الذى ذهب إلى المدينة ليفرض على سكانها بيعة يزيد إبنه، فقد أشاع القتل والدمار والسبى فى بنات

المدينة، ويقال أن رجاله قد فضوا بكارة ألف بكر من بنات المدينة.. وصمم على أخذ بيعة الناس هناك كالعبيد ، فمن قال بايعته على كتاب الله وسنه رسوله قتله لأنها بيعة مشروطة، وقال: أريد بيعتكم كبيعة العبيد بغير شرط». وإبتهج الامويون.. إستعادوا الثأر القديم.

فالأمويون – وحتى مع مضى الزمن – لم ينسوا ثأر هزيمة جدهم فى غزوة بدر على يدى الرسول وأنصاره من مسلمى المدينة، أى من الأوس والخزرج، فصاح يزيد بن معاوية قائلا:

لیت أشیاخی ببدر شهدوا

فزع الخزرج من واقع الأسل

لأهلوا وإستهلوا فرحاً

ولقالوا لوليد لا فشل

ثم بدأت معركة أصطناع أحاديث منسوبة الى الرسول تبرر كل هذا العنف، وتمنح الأمويين حق إنتزاع الحكم لأنفسهم. فالصراع لم يكن سوى صراع سلطة، أو بالدقة صراع على السلطة.

معاوية قال في تواضع مصطنع «والله ما أردتها لنفسى لولا أنى سمعت رسول الله يقول يا معاوية إن حكمت فأعدل».

أما إبن عباس [وكان مواليا لمعاوية] فقال: «أتى جبريل إلى رسول الله فقال : يا محمد أقرئ معاوية السلام ، وإستوص به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووحيه ونعم الأمين».

وبالمناسبة فإن الشاطبى يقول: [ربما أيضا فى خضم الصراعات] سمعت بأذنى من الامام الشافعي : لم يثبت عن إبن عباس فى التفسير

سوى حوالى مائة حديث»[٣]

ونعلم ما فعلوه فى عبد الله ابن بكر إذتعقبوه حتى الفسطاط، طالب بشربه مـاء فأبوا، ثم أحرقوه حياً وخاطوا عليه بطن أتان وهو لم يمت بعد.

أنها تقاليد الجاهلية الأولى.. والانتقام القبلى بكل بشاعته تأتى مرتدية ثياباً جديدة..

متسربلة أيضا بالحلال والحرام. ومستندة كذلك إلى «أحاديث» نبوية مصنوعة.

ولم يكن الأموين وحدهم وضاعون للأحاديث فعندما أتى العباسيون على رماح فارسية وهزموا بنى أمية بحد السيف وباشروا ضدهم أبشع أنوا ع الانتقام، وفرضوا «فارسيتهم» لغة وتقاليداً وحضارةً على هؤلاء «البدو» فتبدى تحديهم وكأنه موجه لا إلى الأمويين وحدهم، وإنما إلى العرب جميعا.. وأصبح «الموالى» سادة فى بغداد وسادت لغتهم فيها حتى صاح المتبنى غاضبا:

ويغدوا الفتى العربى فيها

غريب الأهل واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها

سليمان لسار بترجمان

---

٣ – الشاطبى – شطب الموافقات.

ولكى يتسق ذلك كله مع المعطى الدينى الذى يظل دوماً المكون الفكرى الأساسى.. وضعوا هم أيضاً أحاديثاً نسبوها للرسول يبررون بها سلطانهم..

سئل رسول الله عن الآية ا لكريمة «وأن تتولوا نول قوماً غيركم» من هم هؤلاء القوم؟ فوضع يديه على منكبى سلمان الفارسى قائلا هذا الفتى ورهطه، والله لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله قوم من فارس». وأسرع «العرب» بالرد بحديث مصنوع هو أيضا «إذا إختلف المسلمون فالحق فى مضر».

وتبارت الأطراف المتصارعة فى «وضع» الاحاديث حتى جمع البخارى ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها إلا ثمانية الآف بعضها مكرر بمعنى أنه روى بأكثر من نص مختلف.

ولقد أفسح هذا المجال لكثير من المنافقين مثل عبد الله بن سبأ الملقب بإبن السوداء، الذى قال بالرجعة أى رجوع الرسول، وقال «العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع، وقد قال تعالى «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» ومحمد أحق بالرجوع من عيسى. ثم قال«إنه كان لكل نبى وصى، وعلى وصى محمد.. محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء»[٤].

وهكذا كان التأسلم السياسى أى إلباس الموقف السياسى أو

---

٤ - إبن الاثير - الكامل فى التاريخ - جـ ٢ - ص٧٧.

المصلحة السياسية ثياباً دينية سبيلا للعبث بالمقدس وبالقيم والتعاليم.

* * *

وتتمادى عملية أسلمة السياسية فتتخلق من ثناياها مقولات وأقاويل..

مثل «جماعة المسلمين».. وهذا التعبير قصد به فى أيام الرسول التمييز بين «مجموع المسلمين » أى مجموع الناطقين بالشهادتين وبين «الكفار» الذين ينكرون علي الرسول دعوته ونبوته وما يدعو إليه.

وإذا يتمادى الصراع علي الحكم تلجأ كل جماعة إلى الأدعاء بأنها وحدها «الجماعة المسلمة» وأن الآخرين خارجون عن ملة الإسلام.

ثم أتى تعبير «أهل الحل والعقد فى الاسلام.. من والاهم فقد والى صحيح الدين، ومن خالفهم خالفه، ومفارقهم مفارق للإسلام» هذه العبارة لم ترد أبداً فى قرآن أو سنة لكنها وردت ولأول مرة علي لسان الأمام الماوردى ٠(توفى عام ٤٠٠ هجرية) فى كتابه «الاحكام السلطانية).

وتستخدم هذه المقولات حينا لدعم «الصفوة الحاكمة» وفي أحيان أخرى لدعم جماعة سياسية بعينها.

ويتكاثر فقهاء السلطان .. ليجعلوا من شخصه محطاً للخضوع والولاء المطلق وأحيانا للتقديس فأبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب «سراج الملوك» يعطى للسلطان كل السلطة والسلطان «فالله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الانصاف . فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر، لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقر لهم معاش . ومن الحكم التى وردت فى

إقامة السلطان أنه من حجج الله على وجوده سبحانه ومن علاماته على توحيده.. العالم بأسره فى سلطان الله كالبلد الواحد فى يد سلطان الأرض».

الطرطوشى يقارن بين سلطان الله فى الأرض، وبين سلطان الحاكم على بلده.

ومن ثم يعطى للحاكم سلطاناً ما بعده سلطان.

ويأتى المتأسلمون الجدد إذ ينكرون سلطان السلطة «الجاهلية» كى يعطوا لأنفسهم هذا النوع من السلطة التى تحدث عنه أمثال الماوردى والطرطوشى.

بل إن الطرطوشى يمجد القهر .. والطغيان .. «كذلك السلطان إذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء فى أهبها محقونه، والحرم فى خدورهن مصونة، والأسواق عامرة والأموال محروسة»(٥) .. وبسهولة ويسر ينقل المتأسلمون المحدثون كل هذا السلطان الطاغى بل والباغى.. إلى أنفسهم بإعتبارهم «المسلمين» أو «الجماعة المسلمة» أو «أهل الحل والعقد» سيان.

* * *

ومن أبواب التأسلم السياسى ما يسمى بالتفسير النصى للقرآن . أى عدم الاعتداد بأسباب التنزيل وبواعثه، وظروفه، والاستناد فقط إلى

---

٥ – أبو بكر الطرطوشى – سراج اللوك – الباب السابع – ص١٥٦.

تفسير حرفي للنصوص..

ولنا فى ذلك تفصيل نأمل إلا يكون مملاً.

كان الخوارج ممن يأخذون بالتفسير النصى للقرآن، فلما عرضت عليهم الآية الكريمة التى تقول علي لسان نوح عليه السلام «وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فأفتوا بقتل الرجال .. والنساء وكذلك الأطفال حتى لا يشبوا كافرين، ويلدوا كفاراً مثلهم.

وأما الآية الكريمة: « فقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين» فأخذوا يعذبون خصومهم ويعملون فيهم القتل ويتمتعون بذلك.. إستناداً إلى فهمهم النصى الخاطئ.

ولنا أن نتوقف الآن لنراجع ما يجرى فى الجزائر من مذابح إستناداً إلى هذا الفهم الخاطئ.

ويروى إبن حزم أن الصحابى الجليل عبد الله بن خباب كان يمضى هو وزوجته فى طريق به جماعة من الخوارج.. فعلق المصحف فى عنقه، فأمسك به الخوارج وقالوا: إن الذى فى عنقك يأمرنا بقتلك، فقال كيف؟ فقالوا له ما قولك فى أبى بكر؟ قال: خيراً. و ما قولك فى عمر؟ قال: خيراً. ثم قالوا ما قولك فى على وقبوله التحكيم؟ قال: على أعلم منى ومنكم بالقرآن.. فذبحوه» ويمضى إبن حزم قائلا «وكان إلى جوارهم

ضيعة صغيرة لأحد النصارى فقالوا لصاحبها: بعنا بعضاً من تمر، قال خذوه بلا ثمن، قالوا: ديننا ينهانا عن ذلك . فقال لهم: أتقتلون إبن خُباب وتحافظون على تمرى؟»[٦] وكان النصرانى محقا فى سؤاله.

وفي ذات الطريق سلك واصل بن عطاء فسأله الخوارج هو وجماعته، من أنتم؟ فقال إبن عطاء: مشركون نستجير بكم.. فقال الخوارج إبتعدوا. فرد عليهم واصل: ألم تسمعوا بالآية الكريمة «فإن أحداً من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» فأجلسوهم وأسمعوهم كلام الله .. ثم إكمل لهم واصل الآية «ثم أبلغه مأمنه» فأرسلوا معهم حراساً منهم حتى أبلغوهم مأمنهم.

وصارت مثلا لما يمكن أن يؤدى إليه التفسير النصى من خلل، فالذى علق المصحف فى عنقه قتلوه، والذى قال أنه مشرك حرسوه حتى أبلغوه مأمنه.

والجماعات المتأسلمة الحديثة يقوم فقهها على التفسير النصى.. فحسن البنا عندما يتعرض إلى أول خلاف داخل جماعته (إختلف معه بعض إخوانه عندما قبل دعماً مالياً من شركة قناة السويس الاستعمارية .. أمر بالمخالفين فضربوا.. وبرر ذلك مستنداً إلى: «من خرج على الجماعة فإضربوه بحد السيف». والسؤال هو:أى جماعة..؟ هذا هو مصدر التلاعب النصى. جماعته هو، أى تنظيمه، أم جماعة

---

٦ – إبن حزم – الفصل.

المسلمين أى مجموع المسلمين؟

.. وشكرى مصطفى أستاذ التشبث بالتفسير النصى.. فالآية الكريمة «وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل» يقول عنها فى كتابه التوسمات «هذا خطاب موجه للمؤمنين فى أول الزمان وفى آخر الزمان، والقوة كما جاء فى الحديث هى الرمى، والخيل هى الخيل فإذا جاء من يقول إن الخيل لا تصلح الآن نقول له عندما نقاتل سيكون قتالنا بالسيف والرمى والخيل».

ويقول: «جاء فى الحديث الشريف الجنة تحت ظلال السيوف فالجنة هى الجنة، والسيف هو السيف ولم يقل الرسول تحت ظلال البنادق»[8]

ونلاحظ أن جماعة (شكرى مصطفى كانت ترفض إستخدام المطبعة باعتبارها عتاد كافر).

وهو يستخدم السيف «لأن وسائل المسلمين وسائل متكررة، والله برحمته وعزته قد برأ الجماعة المسلمة من وسائل الكافرين الجاهلية الحديثة»[9] لكننا نلاحظ أنه إستخدم المسدس وهو من وسائل الكافرين فى إغتيال الشيخ الذهبى.

وشكرى مصطفى يستند إلى الحديث الشريف «قل أعوذ بالله من علم لا ينفع»

ليقول «كانت جماعة محمد تتعلم هذا الدين، لا تتعلمه لمجرد العلم

---

٨ – شكرى مصطفى – التوسمات – مخطوط . ص٥٢.

٩ – المرجع السابق.

ولا نتعلمه للدنيا، ولكن نتعلمه للتطبيق والعمل والعبادة، العلم وسيلة لعباده الله، وكل علم يتعلمه الانسان لغير العبادة فقد تعلمه لنفسه، وتعلمه لغير الله .. وهذا شرك»[١٠]

وبهذا أفتى ان تعلم العلوم الحديثة حرام.

ومن مخاطر التأسلم السياسى ما يسمى بالتفيقة. أي محاولة إعتصار مواقف «دينيه» حول مستجدات دنيوية لم ترد فى أصول الشريعة ولا فى فروعها.

ناسين قول الرسول «أوغلوا فى هذا الدين برفق».

وناسين ان عمر بن الخطاب سئل عما هو «الأب» فى الأية الكريمة «وفاكهة وأبا» فقال: لا أعرف »والتفيقة سمة فى كل حركات التأسلم السياسى الحديث وعلى رأسها جماعة الاخوان..

ولا نريد أن نطيل فى ذلك فقط نكتفى بهذه الواقعة : جاء جماعة إلى عبد الله بن عمر وكان من فقهاء عصره فسألوه: ما حكم قتل حشرة الفراش فى الأشهر الحرام، فقال من أى البلاد أنتم؟ قالوا: من الكوفة قال: لعنكم الله أتقتلون الحسين وتسألون عن حشرة الفراش؟.

* * *

ولقد شربت جماعة الاخوان من كل هذه الآبار المريرة المياه، وتكونت عقليتها على هذه الأفكار وتلونت مواقفها وتوجهاتها بألوانها، لكنها أضافت إلى كل ما سبق كأساً أخرى أشد مرارة.هى الخلط بين

---

١٠ -المرجع السابق - ٢٢.

«الدين» كمعطى سماوى وبين «الفكر الدينى» وهو بالضرورة معطى إنسانى. الدين مطلق الصحة، والفكر الدينى نسبى الصحة (لأنه رؤية إنسانية) لكن حسن البنا فعلها. وخلط بين الاثنين خلطاً متعمداً كى يعطى أفكاره قداسة، ويمنحها حصانة ضد النقد .. وضد الانتقاد.

وعندما قدم البنا ما أسماه «عقيدة الجماعة» للمؤتمر الثالث للجماعة (١٩٣٧) أردفها بتأكيد أكد عليه المؤتمر كله يقول فيه «علي كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه، نقص من الفكرة الاسلامية الصحيحة».(١١)

الأمر الذى دفع الاستاذ طارق البشرى فى كتابه «الحركة السياسية في مصر ٤٥ – ١٩٥٢»، وفى طبعته الأولى، أي قبل أن يغير ما فيها بعد أن تغيرت مواقفه، إلى القول «ان الجماعة بهذا البرنامج تصادر الدين لمصلحتها، وبهذا لا تصبح مجرد جماعة تطبق الدين، وإنما تؤكد أن منهجها هو وحده الاسلام الصحيح، ومن ثم فإن من يقف ضدها كجماعة يكون خارجا على الإسلام، أنه مبدأ يسعى للسيطرة على الإسلام لا للاتصاف به »(١٢)

وتتمادى عملية الخلط بين «الجماعة» و بين «الإسلام» فيكتب صالح عشماوى أحد قادة الإخوان فى ثقة مثيرة للدهشة «إن أى إضطهاد

---

١١ – حسن البنا – مذكرات الدعوة والدعية – ص١٣٨.

١٢ – طارق البشرى – الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ – ١٩٥٢ – الطبعة الأولى – ص١٨٣

للاخوان هو إضطهاد للإسلام ذاته»[١٣]

وعندما قبض عبد الناصر على بعض الاخوان (مارس ١٩٥٤) خطب الاستاذ عبد القادر عوده فى المتظاهرين قائلا: «الاسلام سجين».

والخلط المتعمد بين «الدين» و «فكر الجماعة» .. بين العقيدة والاخوان يقتاد الجماعة بطبيعة الحال إلى «الاستعلاء» على الجميع، وإلى وصم كل خصومها بأنهم ضد الإسلام.. أليس منهجها كله من الإسلام، وكل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية ذاتها؟

بل إن حسن البنا الذي إعتبر نفسه إماماً .. ولم يزل تابعيه وتابعى الجماعة يسمونه بالامام .. يقول ببساطة وبلا أي قدر من التواضع .. «إن الامام هو واسطة العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الافئدة» ثم..«وظل الله فى الأرض» وهكذا وببساطة «ظل الله في الأرض»[١٤]

فإن كان سيادته ظل الله في الأرض فمن يتجاسر بقول أو بفعل أوبموقف يختلف ولو بأقل قدر مع حضرة «ظل الله فى الأرض»؟.

ويسرى ذلك من «الأمام» إلى «الجماعة»، ومن هنا فإن «المسلم» الذى لا ينهج نهج الجماعة ينال من «الامام» سخطاً، وما هو اكثر من السخط:«أتحسب ان المسلم الذى يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة، ويترك الدين والسياسة للعبثة الآثمين يسمى مسلماً؟ كلا أنه ليس بمسلم»[١٥]

---

١٣ - الدعوة - ٢٤ - ٤ - ١٩٥١

١٤ - حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس - ص٤٨

١٥ - الاخوان المسلمون - ٤ -٣ - ١٩٤٥

تأملوا العبارة مسلم يتفرغ للعباده .. انه ليس بمسلم.

ثم يكمل حسن البنا الحلقة لتضيق على أعناقنا فيقول: «لا تحيا الدعوة الا بالجهاد وليس فى الدنيا جهاد بلا تضحية، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم»[١٦].. فإما أن تكون «معه» وإما أن تكون آثماً. والحقيقة أن البنا قد رفض - من حيث المبدأ - قيام أي حزب سوى حزبه هو، فقد طالب صراحة بحل كل الأحزاب السياسية ثم «قيام حزب واحد على أساس برنامج إسلامى صحيح»[١٧]

* * *

وبعد هذه المقدمة التى نعتبرها ضرورية يمكننا أن نبدأ.

نتطلع نحو عمق بئر التأسلم السياسى هو وروافده سعياً وراء فهم حقيقى لجماعة الأخوان، ، نشأتها، تاريخها، فكرها، ممارستها.. ثم توابعها.

ولأن الجماعة إرتبطت برباط وثيق منذ يومها الاول وحتى الآن بالاستاذ الامام المرشد العام حسن البنا، ولأنه هو نفسه حرص على هذا الرباط فعندما حاول أن يقدم نفسه عبر «مذكرات» أسماها «مذكرات الدعوة والداعية».

ولأن أحداً لايمكنه أن يذكر البنا دون الجماعة، أو الجماعة دون البنا.

فلنبدأ بمحاولة نطل فيها على «المؤسس». الاستاذ حسن البنا.

---

١٦ - حسن البنا - دعوتنا فى طور جديد.

١٧ - راجع حسن البنا: مذاكرت الدعوة والداعية.

* * *

*** بطاقة شخصية مطولة:**

الاسم: حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.

تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.

محل الميلاد: المحموديه - بحيره.

مهنه الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضا مهنة إصلاح الساعات، ومن هنا جاء لقب «الساعاتى».

الاخوه: خمسه، وحسن هو الأكبر بينهم.

وإبتداءً نلاحظ أن كل من تحدث عن طفولة حسن البنا حرص على يضفى عليها هالات تقترب به من القداسة ، وتضفى عليه مسحة من التميز.. وقد أتى ذلك من حسن البنا نفسه ووالده، ومريدوه، ممن كتبوا عن أيامه الاولى..

وعلى أيه حال فإن كانت هذه الهالات صحيحه، أو كانت مبالغاً فيها، أو هى حتى مخترعة فإنها تشى بشئ ما يحيط بالشيخ حسن البنا، أو حاول على الاقل هو وأتباعه أن يحيطوه به..

الأب يروى كيف سقط الطفل «حسن» فى ملطم للمونه، وكانت وفاته محققة، ولكن «ينجيك الله يا ولدى لأمر يدخرك له » وقد «إستيقظت أمه وهو طفل لتجده نائما وبجواره ترقد فى هدوء أفعى ضخمه لم تمسسه بسوء» ..«وجمح به فرس بما يؤدى لهلاك أى شخص لكنه نجا من الموت» .. الخ

.. وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كتاب القرية

حيث تتلمذ على يد أزهرى متشدد هو الشيخ محمد زهران.

لكن الطفل غير عادى، أو يتعين أن يبدو كذلك فيما هو محكى عنه ، فالطفل إبن الثامنه لا يقبل بوجود تمثال لامرأة شبة عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ إلى البوليس [وهنا لابد من علامه إستفهام تسأل عن مقدرته فى هذه السن، وأي بوليس فى قرية صغيرة فى مطلع القرن الماضى؟] المهم يلجأ الطفل إلى البوليس ويصمم على إزاله التمثال، وينجح فى ذلك»(١٨)

وفى الثانية عشرة ينتقل حسن البنا إلي المدرسة الابتدائية، حيث إنضم إلى جماعة مدرسية رائدها أحد المدرسين المتدينين «جمعيه السلوك الاجتماعى» وهى جمعية إستهدفت ترويض نفوس أعضائها، ودفعهم للتحلى بالاخلاق الحميدة وتعاليم الدين عامة.وكانت الغرامات المالية المرهقة لتلاميذ فقراء هى سلاح الجمعية فى إرغام أعضائها على الالتزام بتعاليمها..

.. وسريعا ما يصبح إبن الثانيه عشره، رئيساً لهذه الجمعيه، لكنه سرعان ما يكتشف أنها لا تفى بطموحه الدينى، وتطلعاته الأكثر شمولاً.. فيؤسس وهو فى هذه السن [وهنا علامه إستفهام أخرى] جمعية جديدة أسميت «جماعة النهى عن المنكر» كانت تستهدف [منذ هذا السن المبكر] إرهاب السكان وإرغامهم على الالتزام بتعاليم الدين

---

١٨ - المصور - ٢٩ - ٨ -١٩٥٢ - مقال بقلم [والد حسن البنا] الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، وقد أورد فيه العديد من الروايات المماثلة.

عن طريق إرسال خطابات تهديد إلى من ترى أنهم لا يلتزمون بهذه التعاليم.

.. ولكن الأمر لا يستمر طويلا، ويصعد الصبى إلى سن الثالثة عشرة ومعها ينتمى إلى جماعة إسمها «إخوان الحصافيه» وهى جمعية صوفية، جذبت الفتى إلى حلقات الذكر حيث وقف يهتز فى هذه الحلقات وسط رجال يكبرونه سناً.

وفى حلقات الذكر يلتقى بشريكه الأول فى كل ما فعل فيما بعد، ثم خصمه اللدود فيما بعد أيضا.. أحمد السكرى وإكتشف الاثنان معاً أن «التطوح» فى حلقات الذكر ليس بكاف لطموحهم الدينى، ومرة أخرى يؤسس التلميذان جمعية جديدة هى «جمعية الحصافيه» ظلت تعتبر نفسها إمتداداً للجماعة الكبيره «إخوان الحصافية» لكنها تتميز عنها بالعمل الجدى المباشر، مستهدفة الحفاظ على تعاليم الدين، ومواجهة موجة التبشير المريبة التى تسللت إلى مصر فى ذلك الحين، مثيرة، أو مستثيره مشاعر العديد من المسلمين. ومرة أخرى يترأس الفتي إبن الثالثه عشره جمعية ذات طابع دينى وتستهدف العمل المباشر لتحقيق أهدافها.

.. هما مجرد عامان تنقل فيهما الفتي سريعا من «جماعه السلوك الاجتماعى» الى «النهى عن المنكر» عبر خطابات تهديد للمخالفين، ثم الي جماعه صوفيه ومنها إلى جماعه للعمل المباشر..

وعام آخر ويصبح الفتى طالباً بمدرسة المعلمين الأوليه في دمنهور حيث ينغمس إلي مدى أعمق فى نشاطه الدينى، ويرتاد حلقات ذكر

الحصافيين ليصبح فى عام ١٩٢٢عضواً عاملا .. أخذ العهد على شيخهم..

ويجهر الفتي بتميزه الدينى عن تلاميذ مدرسته، فيرتدى لبعض الوقت عباءة بيضاء وعمامة ذات نؤابة وهو زى الحصافيين المتشددين، لكنه لا يلبث ان يعود إلى زيه العادى بعد حين.

.. وخلال قراءاته الدينيه إصطدم الفتى بأول عقبة حقيقية. فقد طالع كتاب أبو حامد الغزالى «إحياء علوم الدين» حيث صدمته مواقف الغزالى التى تقول ان التعليم [بالنسبة لغير الفقهاء] يجب أن يقتصر علي ما هو ضرورى «لتحقيق الواجبات الدينية وإكتساب الرزق». ويتوقف الفتى فى حيرة من أمره، هل يواصل تعليمه مخالفاً رؤيه الامام الغزالي، أم يتوقف عن مواصلة التعليم؟

لكنه يغلب المصلحة، ويواصل التعليم وينجز دراسته فى مدرسة المعلمين الاوليه، التى أسلمته بدورها إلى «دار العلوم» ليلتحق بها عام ١٩٢٣.

هكذا يصل الفتى الذي عمد نفسه، أو عمده بعض مريديه شيخاً عليهم منذ طفولته، يصل الى القاهرة .. وأية قاهرة، إنها قاهرة العشرينات التي كانت تموج بصراعات حزبية، وموجات ليبرالية، ونزعات علمانية، وكانت الثورة الكماليه فى تركيا تلهم الكثيرين بالمزيد من الشجاعة فى نزعاتهم التجديدية والليبرالية والعقلانية.. ورأي الفتى الشيخ فى ذلك كله إضعافاً لشأن الدين. جفل الشاب وإنتحى هو ومن والاه من أصدقائه جانباً، وإغترب عن حياة المدينة الصاخبة. ويسجل حسن البنا هذه الفترة قائلا.. «والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال

لبحث حال الامة، نحلل العلة، ونفكر في وسائل العلاج الممكنة ، ولقد بلغ بنا القلق درجه أوصلتنا إلى حد البكاء»[١٩]

إنها الغربة التى تقود الفتى من جديد إلى الصوفية، فيعود إلى ولائه «لاخوان الحصافيه» وينصت طويلا إلى محاضرات «جمعيه مكارم الاخلاق الاسلامية».

وهنا تبدأ القناعة الحقيقية لحسن البنا فى تبلورها، لقد إكتشف أن «تطوحه» فى حلقات الذكر ، وإنصاته إلى محاضرات جمعية مكارم الاخلاق.. لا تغير شيئا مما يجرى حوله فى هذه المدينة الصاخبة، وأيقن حسن البنا أن «المسجد وحده لا يكفى، فلابد من رجال يهبون حياتهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وكون مع عدد من زملائه «جماعة» يمكن إعتبارها النواة الاولى لجماعة «الاخوان المسلمين»، كانوا يخطبون في المساجد والتجمعات الشعبية.

وقد حدد البنا لنفسه ولجماعته هدفاً .. هو محاوله سد الهوة التى تفصل بين الانسان المنغمس فى هموم حياته اليومية، وبين صحيح الدين وتعاليمه، ومحاولة حث المسلم على أن يكيف حياته، وأن يخضعها فى كل تفاصيلها لهذه التعاليم.

لكن القاهرة لم تكن عبئاً فقط ، ففيها وجد المشوره والنصح ممن هم أكبر منه سناً، وأكثر خبرةً..

فتعرف فى المكتبة السلفية على مديرها محيى الدين الخطيب، وعن

---

١٩ - حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس. ص٧.

طريقه تعرف على الشيخ رشيد رضا وأحمد فريد وجدى وأحمد تيمور .. وجرت مناقشات عديدة حول كيفيه العمل من أجل الاسلام..

والتقى بالعديد من مشايخ الازهر فلم يعجبه منهم إستسلامهم أمام ما يجرى من أحداث،

فما هو السبيل للتصدى لما يجرى حوله؟. ولم يجد الفتى إجابة شافية.. لا عند من قابلهم فى صحبه الشيخ محيى الدين الخطيب، ولا عند الموظفين الدينيين.

ويسجل حسن البنا حيرته وطموحه معا.. كتابةً.

ففى السنه النهائيه بدار العلوم طُلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه «تحدث عن الآمال الكبيره التى تراودك بعد إتمام دراستك، وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال»

قال حسن البنا فى إجابته «إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير السعادة للآخرين وبإسداء المشورة لهم»

وقال فى مرارة «إننى أعتقد أن شعبى قد إبتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها، والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها، وتحت تأثير الحضارة الغربية.. والفلسفة المادية والتقاليد الافرنجية»

وحدد الشيخ طموحه بأن يكون ناصحاً ومعلماً، وأن يكرس نفسه لتعليم الاطفال نهاراً، وآبائهم ليلا.. ويختتم مقاله قائلا «هذا عهد بينى وبين ربى».

بهذه الروح .وهذا المنطلق تخرج الطالب حسن أحمد عبد الرحمن البنا من دار العلوم

عام ١٩٢٧، وعين مدرساً إبتدائياً بمدينة الاسماعيلية.

وبهذا .. نصل إلى نقطه البدايه، الفتى.. أصبح مدرساً، وأصبح مدركا لما يريد أن يفعل..

وقرر أن يبدأ*

* * *

وكانت سنوات ما قبل القرن العشرين ، هى سنوات الحيرة بالنسبة لمصر، فقد وقفت حيرى أمام مفترق طرق كل منها يبدو شاقاً ومغرياً فى آن واحد.

---

* لمزيد من التفاصيل عن نشأة وحياة حسن البنا يمكن الرجوع الى المصادر الآتية مع العلم بأنها تتضمن معلومات متقاربة نظراً لأنها تأخذ فى الاغلب عن مصدر واحد..

- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية.
- موسى إسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثة.
- مجلة الدعوة – [الأعدادالصادرة فى ذكرى وفاة حسن البنا] ١٣ -٢ -١٩٥١، ١٢ -٢ -١٩٥٢ ، -١٠ -٢ -١٩٥٣، ١٦ -٢-١٩٥٤.
- المصور – ٢٩ – ٨ – ١٩٥٢، مقال أحمد عبد الرحمن البنا.
- أنور الجندى – قائد الدعوة : حياه رجل وتاريخ مدرسة.
- أحمد أنس الحجاجى – روح وريحان.
- محمد حبيب أحمد – نهضة الشعوب الاسلاميه في العصر الحديث.
- عبد الخبير الخولى – قائد الدعوه الاسلاميه، حسن البنا.

-Mitchel,R. - The Society of muslim Brothers.

- Khaduri, M. - political trends in Arab world.

فالخلافة الاسلامية تتهاوى، والتحكم التركى المغلف بعباءة الخليفة، أمير المؤمنين ، حامى حمى الاسلام، خاقان البرين والبحرين.. الخ هذا التحكم يرحل، ليحل محله تحكم إستعمارى إنجليزى.

وتحاول مصر أن ترفض الانصياع للتحكم التركى فى مواجهة رفض إسلامى متشدد يعلن على لسان الشيخ عبد العزيز جاويش أن «إنكار الخلافه تضييع للذات». ويرد محمد فريد عليه قائلا «إن حبه للدوله العثمانية أدى به إلى نسيان مصر وحقوقها، فقد أصبح يقول إن مصر للمسلمين لا للمصريين».

ويقول «إن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الاسلام، وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك ان يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية، قائلا انه لا وطنية فى الاسلام»[٢٠]

وقد إستمر «دعاه الاسلاميه» يتشبثون بالخلافة، وبدولتها ناسين – كما يؤكد أحد الباحثين – ان ضعف الخلافة العثمانية ثم إنهيارها «قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الاسلامية، وشجع النزعات الوطنية والقومية»[٢١].

وهكذا يرتفع شعار «مصر للمصريين» برغم مقاومة «إسلامية» ضعيفة. ولكن السؤال الأكثر إلحاحاً يبقى «مصر للمصريين نعم.. ولكن إلى أين؟».

---

٢٠ – محمد صبيح – مواقف حاسمه فى تاريخ القومية العربية – ص٢٨٩
[نقلا عن مذكرات محمد فريد الخطية].

21 - Berger,M. - The ARAB world today.(1964) P318.

وكانت الليبرالية والاتجاهات العقلانية والعلمانية تحاول جهد إستطاعتها أن تشق لمصر طريقاً فى مواجهة صعاب حقيقية..

فمصر كانت تعيش فى حاله من التخلف الفكرى العميق الجذور.. إلى درجة أن مفكراً مثل رفاعة الطهطاوى لم يستطع ان يذكر «إحتمال» أن تكون الارض كروية إلا منسوباً إلى فتوى لعالم إسلامى فى «تمبكتو».

.. لكن الأمر إختلف فى نهايات القرن التاسع عشر، ولم يعد التيار العقلانى بقادر على إحتمال إنكار العلم والعقل، فيكتب يعقوب صروف «إن موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم، وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم»(٢٢)

.. وعندما ينهمر السيل فإنه من الصعب أن يوقف..

ويتجاسر شبلى شميل فيصدر كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء»

وتحدث «رجة» عنيفة وتكال التهم لشبلى شميل الذى يتقبلها هادئا.. معلناً «ان هذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى لايقاظ الافكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون»(٢٣)

ويحاول شميل أن يستميل الناس تجاه العقل فيخاطب قارئه قائلا «إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، وما أطلب منك علماً

---

٢٢ – المقتطف – مجموعة عام ١٨٧٦ .

٢٣ – د. شبلى شميل – فلسفة النشوء والارتقاء – مقدمة الطبعة الثانية – مطبعة المقتطف (١٩١٠) المقدمة ص د

واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده، وتفتحت منافذه، وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس منتجات العقل حقها»[٢٤]

.. ويشتد الهجوم علي الرجل . ويأتى الهجوم على الاغلب من المحافظين ورجال الدين، لكن الرجل لا يتراجع معلنا «لست أخشى تخطئه الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيباً، ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفننى مخطئاً» وفى مواجهة الهجوم المتصاعد يعلن شميل بوضوح «نعم إن القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون»[٢٥]

.. ولم يكن شبلى شميل وحده. كان هناك رعيل متكامل .. فرح أنطون ومجلته الموسوعية «الجامعة»، وسلامه موسى، مصطفى حسنين المنصورى صاحب أول كتاب مصرى وربما عربى وافريقى عن الاشتراكية..

ويتصدى المحافظون ورجال الدين لهذه النزعة.

يتصدون لها فى ظل مناخ يميل إليهم هم، وإلى مقولاتهم، ويميل إلى إتهام كل نزعة تجديد بالكفر والالحاد .. مناخ أرهق دعاه التجديد، حتى أيامنا هذه، ودفع كاتباً جليلا هو الشيخ محمود الشرقاوى لأن يكتب «أى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى

---

٢٤ – مجلة البصير – مجموعة ١٨٧٨ – شبلى شميل مقال «القضاء على القضاء»

٢٥ – شبلى شميل – فلسفة النشوء والارتقاء – المرجع السابق – ص٢٧

عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها.. إن «نوحاً» بنى سفينة من عظام حيوان يبلغ طوله مساحة ما بين السماء والارض، ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى ما يقرأه الناس فى كتاب من كتب التفسير* إن ياجوج وماجوج أمة، وكل أمة أربعمائة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم، يسيرون فى خراب الارض.. وهم ثلاثة أصناف : صنف مثل شجرة الارز، وصنف طوله وعرضه سواء، عشرون ومائة، وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالاخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم في الشام وساقتهم فى خراسان، يشربون آبار الارض وبحيرة طبريا.. »[٢٦]

فى ظل هذا المناخ قامت المعركه.. ويتصدى رجال الدين بعنف بالغ لدعاة العقل والعلم، عنف يستدعى رداً من الشيخ محمد عبده يقول:

ولكنه دين أردت صلاحه

أحاذر أن تقضى عليه العمائم

.. ويرد العقلانيون علي الهجوم بهجوم مضاد، عنيف.

.. ونقرأ عبارات لشملى شميل تقول «فترى مما تقدم ان الدين نفسه

---

* - تفسير الخطيب الشربينى - جـ٢ - ص٢٢٨.

٢٦ - مجلة الهلال - مجموعة عام ١٩٦٨ - مقال الشيخ محمود الشروقاى «محنه الفكر التقدمى فى مصر».

ليس عقبة فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم»[٢٧] ويقول «ولكن الاديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين إتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان» وهو يصب هجومه ضد «رؤساء الاديان من كل دين وملة، الذين علموا الناس غير ما تأمرهم به الأديان، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الايتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم، ولو داسوا الدين بالاقدام»[٢٨]

ولا يقف شميل وحده في المعركه بل يسانده كاتب وشاعر ملهم هو ولى الدين يكن.. الذي يصف رجال الدين بانهم « لا يرغبهم فى الشورى شئ مما هم منقطعون إليه، فهم يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب وأن يبقوا عيالا علي الامة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم»[٢٩]

بل هو يصيح بأعلى صوته « يا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم .. يحزننى خسرانكم، ويشركنى معكم مصرعكم، إن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان السلطان عبد الحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً، ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم، فهم يهاجمون كل من لايكون من

---

٢٧ – شبلى شميل – مجموعة الاعمال –جـ٢ – ص٦٢.

٢٨ – الاخبار – مجموعة عام ١٩٠٩ – مقال : ضحايا الجهل.

٢٩ – ولى الدين يكن – المعلوم والمجهول – جـ ٢ ص١٥٩.

فريقهم، يملأون الدنيا صخباً وضجة ، يكفرون الساعل ، والماخط، والآكل والشارب ، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً، فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون»(٣٠)

ويصل الحد بالمعركه إلى الدرجة التى دفعت شبلى شميل إلى أن يقول يوماً «لو قامت الانسانية في كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الاديان - الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى إرتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين - نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام لما جنوه اليوم علي الانسان»(٣١)

ولم يكن بإمكان معركة كهذه أن تستمر بمثل هذه الضراوه .. طويلا.

وأخيراً آن للمعركة أن تتوقف.

لقد أنجبت مصر من إستطاع أن يوقفها.. من إستطاع أن يوفق بين العلم والدين، بين العقل والايمان.. الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده.

ورفع الشيخ محمد عبده لواء العقل مؤكداً أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولابد من إجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الاوضاع الجديدة فى المدنية الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة، فلابد لهم أن يتسلحوا بما

---

٣٠ - ولى الدين يكن - التجاريب - ص٢٣.

٣١ - الاخبار [مجموعة عام ١٩٠٩] مقال لشبلى شميل بعنوان «ضحايا الجهل».

يتسلح به غيرهم، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم»[٣٢]

ويبدأ الشيخ الامام محمد عبده معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذي يحاولون أن يفرضوه علي البشر فيقول «ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لاعلاهم يتناول بها أدناهم»

.. وكان محمد عبده مفتياً، ولكنه لم يقبع فى بيته منتظراً سائلى الافتاء ، بل تقدم فى عبقرية وشجاعة محاولا أن يرسى دعائم فهم جديد للعلاقة بين الدين ومتطلبات الحياة.وكانت الحياة تلح بأسئلة عدة عن مدى تحريم أو عدم تحريم كثير من مستحدثات العصر إبتداء من التصوير الفوتوغرافى إلى التأمين على الحياة، إلى النظام المصرفى الخ.

ولقد رسم محمد عبده طريقاً جديداً.. يصعب أن نوفيه حقه من البحث بشكل جانبى وبتعجل، لكننا سنكتفى بعبارات لعلها تقدم صورة كافية عن مدى التقدم الذى أحرزته علاقة الدين بالحياة على يديه..

محمد عبده يقول « إن الاسلام لم يتعارض، ولا يمكن ان يتعارض مع العلم، فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة».

ويقول «إن سر تفوق أوربا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث

---

٣٢ - الاخبار - ٢٧ - ٢ - ١٩٧٣ - مقال للشيخ أحمد حسن الباقورى بعنوان «هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجمين؟».

العلمى، وإلى تقدم نظم التعليم فيها».

ورفض الاستاذ الامام مبدأ «التقليد» الذى دعى إليه السلفيون ومازالوا يدعون إليه، وقد أكد أن الاسلام لا يمكنه، أن يرسخ أقدامه عبر الزمان إذا ما إستمر معتمداً علي التقليد، وأكد «انه بدون أستخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين تحقيق أى تقدم أو تطور »

.. وتعالج فتاوى الاستاذ الامام الكثير من مشكلات العصر.. حتى مشكله الحجاب، إلى الحد الذى راجت فيه شائعات قويه أنه أسهم فى تحرير كتاب «تحرير المرأة» الذى أصدره صديقه الحميم قاسم أمين*

وإذ بلغ محمد عبده القمة، وإذ ينجح فى إسكات صوت المحافظين الرجعيين والسلفيين .. إذ ينجح في إسكات ضجيج معركة مفتعلة ويلزم الجميع الصمت.. يرحل.

وبرحيله يخلو الميدان لدعاة الارتداد من جديد

ويورد د. مجيد خضورى تفاصيل هامة عن معركة نشبت بين تلاميذ الاستاذ الامام ..

ويقول «ان البعض من تلاميذ الامام قد حاول أن يطور تعاليمه ويصل بها الى نهايتها المنطقية، أي أن ينفى دور الاسلام كعقيدة تجاه

---

* لمزيد من التفاصيل عن دور الاستاذ الامام محمد عبده فى تحديث نظرة الاسلام الى العقل والحياه ومتطلباتها راجع:

- رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام

-ADAMS - ISLAM AND MODRNISM IN EGYPT -

- K hadduri,M.- Political Trends in Arab world.

المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه.

وكان هذا البعض يرى أن الاسلام عقيدة حية ومن ثم يتعين لها أن تتطور بإستمرار، وان النهاية الحتمية لهذا التطور هى علمانية المجتمع الاسلامى».

ويقول خضورى: ان هذه الآراء قد رفضت بشده من جانب المحافظين من مريدى الاستاذ الامام وخاصة هؤلاء الذين كانوا – برغم ولائهم لشيخهم – إلا أنهم كانوا يرون انه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان علي رأس هؤلاء المحافظين المتشددين الشيخ رشيد رضا»[٣٣].

.. ها هى معركة التجديد التي قادها الاستاذ الامام تحاصر..

ويطبق عليها الخصوم من ناحيتين.

– التقليديون والمحافظون السلفيون الذين طالما هاجمهم الامام وهاجموه..

– المحافظون من أتباع الامام من أمثال الشيخ رشيد رضا وتلاميذه..

وعلى يد رشيد رضا وتلاميذه تبدأ أخطر معارك الارتداد السلفى فى تاريخ مصر الحديث..

* * *

وقد خاض رشيد رضا معركه مزدوجه الاهداف.. ضد مشايخ الازهر ذوى النزعة السلفية فى التقليد، وضد دعاة التفرنج والتجديد.. وكان يخوض المعركتين معا، وبنفس الحدة..

---

33 - Khadduri - Ibid - p 65

وفي كتاب «الخلافه أو الأمامه العظمى» يهاجم رشيد رضا الشيوخ «الذين إزوروا إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم، ودعاة التفرنج، ذلك انه من الجنون أن نسعى إلى إنتزاع مقومات الامة الاسلامية الدينية والتاريخية، وإستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها»

ورويداً رويداً يتخلص رشيد رضا من تعاليم شيخه وإمامه، بل ويقترب كثيراً من معسكر خصوم الامام، ولا يلبث رشيد رضا أن يعلن ان الامل والعمل والجهد يتركز فى شئ واحد هو « الخلافة الاسلامية فهي الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية»[٣٤]

بل إن «الدوله الاسلاميه الاصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر»[٣٥]

ثم يواصل رضا تناقضه الحاد مع تعاليم الامام عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة الاسلامية «هى لأولى الامر الذين أمر الله بطاعتهم»[٣٦]

ويأتى حسن البنا فى هذا المناخ ليعلن «نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا»

فماذا كان حسن البنا يعنى عندما يقول «نحن سلفيون»؟ يفسر ألبرت حورانى الامر قائلا « إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الانسان

---

٣٤ - رشيد رضا - الخلافه أو الامامه العظمى - مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ) - ص١١٦.

٣٥ - المرجع السابق - ص١٢٨.

٣٦ - رشيد رضا - كتاب الوحى - ص٢٢٩.

عن الماضى، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملا يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الاسلامي الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم»[٣٧]

.. وإذا كنا نقول ان الافغانى كان بداية سلم التجديد فى الاسلام وان محمد عبده كان قمته وان رشيد رضا كان بداية الارتداد الحديث.فان حسن البنا ومن موقع متعال علي الجميع يقول» الافغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها، وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثا» وهم جميعا «مصلحين دينيين واخلاقيين يفتقدون الرؤية الاسلامية الشاملة»[٣٨]

بينما يتفوق أحد تلاميذ البنا على أستاذة فى عدم التواضع فيقول «الافغانى كان مجرد مؤذن، ورشيد رضا هو مجرد مؤرخ ..أما المرشد فهو «بنا»[٣٩]

ويميز تلميذ آخر لحسن البنا شيخه على هؤلاء جميعا معلنا أن دعوة حسن البنا تتميز عن غيرها «بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل وانها ليست مجرد رساله فلسفيه»[٤٠]

.. نحن إذن أمام حاله تصف أصحابها بأنهم سلفيون من أتباع

---

37 - Hourani,Albert - ArabicThought in the Liberal age - p.80

٣٨ – حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – المرجع السابق – ص٥٨

٣٩ – الدعوه – ٢٠ – ٢ – ١٩٥١

٤٠ – أحمد أنس الحجاجى – الرجل الذى أشعل الثوره (١٩٥٢) – ص٤٣.

رشيد رضا، بل هم أشد سلفيه من رشيد رضا، وهم أيضا ليسوا مجرد دعوة فلسفية بل جماعة جهاد ونضال وعمل..

وبهذا نقف علي عتبات «الاخوان المسلمين»

فكيف كان الارتداد الذى أراده وأداره حسن البنا؟ وإلى أين وصل بأصحابه، وكيف أوجد نفسه فى التطبيق العملى؟..

كانت مصر تقترب من نهاية العشرينيات، حيث الأزمة الاقتصادية العالمية التى أصابت العالم الرأسمالى، بل والنموذج الرأسمالى كله بالدوار، وحيث تجربة الاستقلال المصرى تتعثر، وتجربة الحكم الدستورى تواجهها عقبات جسيمة.. وأمام كل هذا الاحباط برزت الاسلامية» كمخرج. ولم تكن مصادفة أن يشهد عام ١٩٢٨ تحديداً مولد جماعتين «الاخوان المسلمين» و «جماعة الشباب الحر أنصار المعاهدة» التى أصبحت فيما بعد «مصر الفتاة»

وفى هذه الاثناء تخرج الشيخ الشاب من دار العلوم، وعين مدرساً فى الاسماعيليه، وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبدأ العام الدراسى .. وتبدأ رحله الشيخ ليجتذب أنصاراً .. ومن سته من المريدين تأسست الشعبة الأولى لجماعة الاخوان..

ويحدد الشيخ الشاب أسهم إتجاهه، فيقرر أن يتجه بدعوته إلى :

العلماء – مشايخ الطرق الصوفية – علية القوم – النوادى[٤١]

وتجمع الرجال السته ليخاطبوا الشيخ فى تواضع، ويتباهى الشيخ بما قالوه إلى الدرجة التي دفعته إلى أن يسجله حرفياً فى مذكرات

٤١– حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – ص٢٢

الدعوه والداعية «إنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين والأمه كما تعرفه أنت، وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك كل ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسؤلية أمام الله، ولكى تصبح أنت مسؤلاً أمامه عما يجب أن نقوم به» (٤٢)

* * *

وبدأت رحله جماعة الاخوان المسلمين..

بطاقة شخصيه.. للجماعه:

* الاسم: قال حسن البنا لاتباعه «نحن إخوة فى الاسلام ومن ثم فنحن «الاخوان المسلمون»(٤٣)

* تاريخ الميلاد: شهر ذى القعده عام ١٣٤٧ هجريه [ويلاحظ أن حسن البنا أورد التاريخ الميلادى المرادف له «مارس ١٩٢٨»، لكن روزنتال في مقال «الاخوان المسلمون فى مصر» المنشور فى مجله عالم الاسلام اكتوبر ١٩٤٧ إكتشف من مقارنه التقويمين أن ذى القعدة ١٣٤٧ هـ يوافق إبريل – مايو ١٩٢٩. ونلاحظ أن الجماعه قد إحتفلت بعيد تأسيسها العاشر في يناير ١٩٢٩ لكنها عادت فاحتفلت بعيدها العشرين فى سبتمبر ١٩٤٨]

* الهيكل القيادى: مكتب الارشاد، ويعمل تحت إمره المرشد العام –

---

٤٢ – المرجع السابق – ص٧٣

٤٣ – موسى إسحق الحسينى – الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثه – ص١٧.

وهو بمثابة مجلس الشورى. لكن صالح عشماوى أحد قادة الجماعة يقول وهو يمتدح المرشد «عند أول عهدى بعضوية مكتب الارشاد ثار البحث هل الشورى في الاسلام ملزمه أم غير ملزمه؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الارشاد، أم إن المكتب هيئة إستشارية له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إن شاء .. وكان رأى المرشد ان الشورى غير ملزمه، وأن من حقه مخالفة رأى المكتب»[٤٤] .. مره أخرى كتب عشماوى ذلك مادحاً وليس ناقداً.

* محل الميلاد: الاسماعيليه.

* الحاله الماليه: أول تبرع مالى تلقته الجماعه كان من شركه قناه السويس [الفرنسية]

وقد أكد حسن البنا ذلك وقال إن التبرع كان خمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير بمقياس هذا العصر[٤٥] وعند حل الجماعة عام ١٩٤٨ إتضح انها كانت أغنى الجمعيات والاحزاب السياسية فى مصر.

* طبيعه الجماعه: حرص البنا على أن يضفى صبغة ضبابية علي الجماعة وألا يقدم تفسيراً واضحاً لأهدافها أو طبيعتها حتى يوائم بينها وبين تقلبات الاحوال.

قال البنا «أيها الاخوان: أنتم لستم جمعيه خيرية، ولا حزبا سياسياً، ولاهيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب الامه»[٤٦] .. عباره مطاطه لا يمكن الامساك بأى من أطرافها..

---

٤٤ – الدعوة –١٢ –٢ –١٩٥٢ – مقال لصالح عشماوى

٤٥ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعية – ص٩٦.

٤٦ – حسن البنا – بين الامس واليوم – ص٢١

* البرنامج: لا يوجد..

سئل البنا عن البرنامج فقال «ولم البرنامج انه يفرقنا».. وإكتفى بعبارة عامة «القرآن دستورنا والرسول زعيمنا».

ولقد ظل البنا فى بداية الامر ينكر ان لجماعته علاقه بالسياسه، لكنه ما أن قوى عود جماعته حتى أعلن على صفحات مجله النذير أن الجماعة سوف «تنتقل من دعوه الكلام وحده، إلى دعوه الكلام المصحوب بالنضال والاعمال» وتوجه إلى أتباعه متحدثا عن السياسيين جميعا قائلا «ستخاصمون هؤلاء جميعا في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة ان لم يستجيبوا لكم»[٤٧]

ولم يلبث البنا أن صارح الجميع بهدفه الاساسى، وهو أنه يطمح إلى الحكم ليقيم دولة دينية وقال «الاسلام الذى يؤمن به الاخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد .. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول .. فالاسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء»[٤٨]

وأيضا.. « الذين يقولون ان تعاليم الاسلام إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون.. فالاسلام عبادة وقيادة، ودين دولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، ومصحف وسيف، لا ينفك أحدها عن الآخر»[٤٩]

---

٤٧ - النذير - العدد الاول - مايو ١٩٣٨ - الافتتاحية (بقلم حسن البنا).

٤٨ - حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص٢٨٣

٤٩ - المرجع السابق - ص١٥١.

وبغير ذلك لم يقل البنا.. لم يقل ما موقف جماعته من مشكلات الحياة اليومية.. ولا من متطلباتها، ولا من الجديد فيها.. فقط عموميات لا يمكن الامساك بشئ منها..

* العلامات المميزه:

تميزت جماعة الاخوان المسلمين عن غيرها من القوى السياسية المعاصرة بعلامتين مميزتين أساسيتين .. البيعة والجهاز السرى..

أما عن البيعة فقد إستند فيها حسن البنا إلى حديثين شريفين الأول يقول «من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية» والثانى يقول «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ونازعه فإضربوا عنق الآخر»

وإستند أيضاً إلى اقوال أبو الاعلى المودودى «لا ينتخب للامارة إلامن كان المسلمون يثقون به، وبسيرته، وبطباعه، وبخلقه، فإذا إنتخبوه فهو ولى الأمر المطاع فى حكمه ولا يعصى له أمر ولا نهى»

ويقول إن الأمام أو الامير من حقه أن يملى رأيه حتى على الأغلبية «فالاسلام لا يجعل من كثرة الاصوات ميزاناً للحق والباطل، فإنه من الممكن فى نظر الاسلام أن يكون الرجل الفرد أصوب رأياً وأحد بصراً من سائر أعضاء المجلس»(٥٠)

وقد بايع الاتباع إمامهم بيعة كاملة فى المنشط والمكره، وعاهدوه علي السمع والطاعه..

---

٥٠ - ابو الأعلى المورودى - نظرية الاسلام السياسيه - ص٢٩.

ولم يكن حسن البنا يخفى ذلك على الناس، فهو لم يكن يقبل منهم بأقل من السمع والطاعة، دون نقاش.

«يجب على الاخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أية ناحية، إن الدعوة تتطلب منا أن نكون جنوداً طائعين بقيادة موحدة، لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة، كل الطاعة في المنشط والمكره» [٥١] وأيضا «يتعين على العضو الثقة بالقائد والاخلاص والسمع والطاعة في العسر واليسر» [٥٢]

ويصف البعض ولاء الاتباع قائلين «إن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقه وكاملة وتصل إلى درجة السحر» [٥٣]

وتصف الامر جريدة مصرية فتقول فى تهكم واضح «إذا عطس المرشد في القاهرة، قال له الاخوان فى أسوان يرحمكم الله» [٥٤] ولقد ترتب على البيعة بمفهوم البنا أنه ليس مسموحاً بالخلاف مع المرشد. بل إن كلمة «ليس مسموحا» هذه ليست أمراً معنوياً فحسب، وإنما كان العنف والارهاب المعلن والتباهى به سبيلا لفرضها.

فمنذ البداية دب الخلاف فى شعبة الاسماعيلية، وحاول البعض التمرد على البنا وأبلغوا النيابة العامة ضده فى مخالفات مالية، فكان رد فعل البنا عنيفاً، فقد جمع عدداً من أتباعه حيث «إعتدوا على المخالفين

---

٥١ – الاخوان المسلمون – (الاسبوعيه). ٢٦ – ١٠ –١٩٤٦

٥٢ – حسن البنا – رسالة التعاليم.

٥٣ – موسى اسحق الحسينى – المرجع السابق – ص٥٤

٥٤ – نقلا عن: ابو الحسن الندوى – مذكرات سائح في الشرق العربي – ص٢٦.

بالضرب».

ويعترف البنا بذلك ويتباهى به ويبرره بأن «المخالفين قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك، وان من يشق عصا الجمع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان» ويتأسف البنا على رفض البعض لضرب المخالفين وردعهم قائلا «اننا قد تأثرنا إلي حد كبير بالنظم المائعه التى يسترونها بالفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية»[٥٥].

اما العلامة المميزة الثانية فهى الجهاز السرى الذي مارس عمليات إرهاب وقتل – كانت البداية والنموذج والقدوة للارهاب المتأسلم. وقد تدرج الفكر التنظيمى لحسن البنا فى سلاسه ويسر ليصل إلى هذا الهدف غير المعلن، فبدأ «بالجوالة» بهدف تعويد الاخوان على النظام شبه العسكرى، وتدريبهم علي الطاعة التامة والتفانى المطلق..

ثم كانت «كتائب أنصار الله» وهى مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الاعضاء النشطين في الجماعة يلتقون معا ليله كل اسبوع حيث يقضون الليل فى العبادة والتلاوة.

.. والعيون اليقظة تتابع ذلك كله لتفرز منه من يصلحون للجهاز الخاص..

ولقد أنكر البنا طويلا أنه يوجد ثمة جهاز خاص، ونفى ذلك نفياً قاطعاً، بل لقد وصف القائمين بأعمال النسف والتفجير والقتل عام ٤٨ – ١٩٤٩ بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»

---

٥٥ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعيه.

.. وظلت الجماعه علي إنكارها لوجود الجهاز الخاص حتى برغم إعترافات عشرات بل مئات من أعضائه أمام محكمة الشعب، وقيل ساعتها أنها أكاذيب أمليت ورددت تحت وطأة التعذيب..

ثم لا تلبث الحقيقة ان تظهر عندما يتنافس رجال الارهاب الاخوانى القدامى في كتابة مذكرات يحاول كل منها أن ينسب إلى نفسه أكبر قدر من القتل والارهاب .. فكانت مذكرات صلاح شادى - أحمد عادل كمال - عبد المنعم عبد الرؤوف - محمود الصباغ. وقد إعترفوا جميعا بأعمال ارهابية بشكل مثير للدهشة، لأنهم تحدثوا في تباه وتمجيد للفعل الارهابى، مؤكدين إنتسابهم الى الجهاز السرى وإلتزامهم بصيغته واهدافه.

* * *

وقد ظل حسن البنا طوال عشر سنوات كامله ينكر أيه صفة سياسية لجماعته ويؤكد فى إلحاح انه لا علاقة له بالسياسة، ولكنه ما أن شعر بالقوه، وبضعف الآخرين حتى جاهر بدوره السياسى:

الدين شئ والسياسه غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

ثم ما لبث أن قال بصراحه «أستطيع أن أجهر بصراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر فى شئون أمته مهتماً بها غيوراً عليها»(٥٦)

---

٥٦ - الاخوان المسلمون - ١٦ - ٤ - ١٩٤٦ - حسن البنا مقال : الاسلام سياسه وحكم.

لكن الامر لا يكون مستقيما أبداً مع الشيخ البنا.

فهو يعود ليغمض القول «هل نحن طريقة صوفية، مؤسسة إجتماعية، حزب سياسى»؟

ويجيب على هذه الاسئلة بالنفى مؤكداً «نحن دعوة القرآن الحق الشامل..»[٥٧]

لكنه لا يلبث أن يعود ليؤكد «إن الاخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة ثقافية، شركه إقتصادية، فكرة إجتماعيه»[٥٨]

متى تستطيع أن تمسك بالزئبق؟ فالشيخ يعود لينفى ما قال «أيها الاخوان أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد ولكنكم روح جديد ونور جديد، وصو ت داو»[٥٩]

.. ومع ذلك فإن أحداً لا ينكر أن الاخوان قد تداخلوا فى السياسية، وشاركوا فى غمارها مشاركة كاملة..

وحتي فى المبادئ الجوهرية كان الاخوان يتلاعبون تلاعب السياسيين غير المبدئيين.

فبعد أن يوجه البنا نقداً شديداً للدستور قائلا «إن فيه ما يراه

---

٥٧ – أنور الجندى – الاخوان المسلمون فى ميزان الحق. ص١١

٥٨ – المرجع السابق ص١٥

٥٩ – المرجع السابق – ص١٥

الاخوان مبهماً غامضاً يدع مجالا واسعاً للتأويل والتفسير الذى تمليه الغايات والاهواء»[٦٠]

لكنه يعود فيتراجع تحت ضغط قيل أنه قد أتي من القصر الملكى ليعلن «إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن .. وإن ما نحتاج إلى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته».[٦١]

ويؤكد «و ما كان لجماعة الاخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه.. ما كان لها أن تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة فى النار» [٦٢].

ولكن لعبة السياسه عند الشيخ إستمرت على هذا المنوال قول ونقيضه فى آن واحد.. وإن كان الخط الثابت هو المناورة بين الجميع، والتلاعب بالجميع، غير أن الشيخ قد أدرك وإن متأخراً أن الجميع كانوا يتلاعبون به، بينما يتخيل هو انه يتلاعب بهم.

ولعبة السياسة عند الشيخ بلا مبادئ ولن نطيل وسنكتفى باشارات.

- شركة قناة السويس الاستعمارية قدمت له عوناً مالياً وقبله.
- الطاغية إسماعيل صدقى قدم له عوناً مادياً ومعنوياً كبيراً فى

---

٦٠ - حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس.

٦١ - أنور الجندى - المرجع السابق - ص٦٢.

٦٢ -النذير - العدد ٣٣ - حسن البنا - مقال: الاخوان المسلمون والدستور المصرى.

بداية نشأة الجماعة..

– على ماهر داهية القصر والموصوم بعلاقات مريبة خارجية كان الصديق الحميم للجماعة..

–عقد الاخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع خصيصاً للاحتفال باعتلاء «جلاله الملك العرش».

وقام الجوالة بدور المنظم في الاحتفالات الصاخبة بهذه المناسبة(٦٣)

– عندما إختلف النحاس باشا مع الملك وخرج الوفديون فى مظاهرات تهتف «الشعب مع النحاس» فى مقابلها خرجت مظاهرات الاخوان إلى قصر عابدين تهتف « الله مع الملك».

– كتب أحد قادة البوليس تقريرا يقترح «أن تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها فى البلاد حتى يكون فى ذلك أكبر خدمة للأمن والاصلاح» ويتباهى حسن البنا بذلك ويورده فى مذكراته»(٦٤)

– يقول ريتشارد ميتشل «منذ اكتوبر ١٩٤١ قامت علاقات بين البنا والانجليز»(٦٥)

وتؤكد جريده الاخوان إن إتصالا قد تم مع الانجليز، وان الطرف الانجليزى قد أبدى إستعداده لتقديم عون مالى للجماعه، وتقول أن البنا

---

63 - Mitchill, R. - The society of Muslim Brothers - p 16

٦٤ – حسن البنا – مذكرات الدعوه والداعيه – ص ٨٩.

65 -Mitchill - ibid.

قد رفض ذلك»[٦٦]

ولكن باحثاً آخر يؤكد إستناداً إلى ما أسماه مصدر إخوانى كان على علاقة بالسفارة البريطانيه «ان عونا مالياً كبيراً قد قدم بالفعل، وخاصة فى غضون ١٩٤٧»[٦٧]

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة محيرة: يعترف البنا ان الطاغية اسماعيل صدقى قدم عرضاً بمعاونة مالية، وأن الانجليز قدموا ذات العرض، ويقول انه رفض، حسناً، ولكن لم لا نسأل أنفسنا لماذا هؤلاء بالذات يعرضون مساعدة الجماعة ؟

- وهل ننسى أحداث ١٩٤٦، وخروج الاخوان يهتفون للطاغية إسماعيل صدقى صائحين «واذكر فى الكتاب إسماعيلا»؟

- وهل ننسى تأييد معاهدة صدقى - بيفن؟

ويورد شاهد محايد - صلاح الشاهد - الواقعة التالية «توهم صدقى أن للاخوان قاعدة شعبية ذات وزن فإستدعى المرشد بعد عودته من لندن بساعتين وأطلعه على مشروع إتفاقية صدقى - بيفن قبل ان يطلع عليه النقراشى وهيكل المشاركين له فى الحكم، وحصل على موافقته على المشروع، وعندما تصاعدت المظاهرات الشعبية ضد هذه الاتفاقية طلب صدقى باشا من المرشد أن يركب سيارة سليم زكى

---

٦٦ - الاخوان المسلمون - ٢١ - ٧ - ١٩٤٦

67 - Heyworth Dunne - Religious and political Trends in Egypt.p38 - 41

باشا مساعد الحكمدار المكشوفة ليعمل على تهدئه الجماهير، وإستجاب المرشد لطلب صدقى باشا »[٦٨]

.. وبهذا نكتفى فى مجال السياسه .. فكل الخطى متشابهه..

* * *

والعنف هو النتيجة المفترضة للخلط المتعمد بين الدين والفكر الدينى.. وبذرته الخبيثة موجوده منذ البدايات الأولى للجماعة..

.. فعندما أصدرت جماعة الاخوان مجلتها النذير، تعجل الشيخ عبد الرحمن الساعاتى[والدالمرشد العام حسن البنا] فى أن يجعلها نذيراً للجميع فكتب فى عددها الأول مقالاً عنوانه « إستعدوا يا جنود» يقول فيه « إستعدوا يا جنود ، وليأخذ كل منكم أهبته، ويعد سلاحه، ولا يلتفت منكم أحد، إمضوا إلى حيث تؤمرون» ثم يقول «خذوا هذه الأمه برفق فما أحوجها إلى العناية والتدليل، وصفوا لها الدواء فكم على ضفاف النيل من قلب يعانى وجسم عليل، إعكفوا على إعداده فى صيدليتكم، ولتقم على إعطائه فرقة الانقاذ منكم، فاذا الامه أبت فأوثقوا يديها بالقيود، وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فإقطعوه، أو سرطاناً خطيراً فأزيلوه .. إستعدوا ياجنود – فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر، وفى عيونهم عمى»[٦٩]

---

٦٨ – صلاح الشاهد – ذكرياتى فى عهدين – ص٤٨

٦٩ – النذير – أول المحرم – ١٣٥٧ هـ.

والعنف هنا مقصود لذاته بل هو السبيل الوحيد، فحسن البنا يقول: «وما كانت القوة إلا كالدواء المر الذى تُحمل عليه الانسانية العابثة المتهالكة حملا ليرد جماحها ويكسر جبروتها وطغيانها، وهكذا كانت نظرية السيف فى الاسلام. لم يكن السيف فى يد المسلم الا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعى»[٧٠]

بل انهم يعتبرون – وحتى أكثرهم إعتدالا – أن «القتل» سلاح فى العمل السياسى يمكن لآحاد الناس أن يوقعه متى إعتقد انه يقيم الحد.. ويُسال الشيخ محمد الغزالى [أحد أكثر الاخوانيين إعتدالا] فى شهادته أمام المحكمة التى حاكمت قاتل «د.فرج فوده» ويجيب عبر الحوار التالى:

س – من الذى يملك إقامة الحد؟

جـ – المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمه..

س – هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته؟

جـ – حكم الله لا يلغيه أحد، والحد واجب الإيقاع.

س – ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس؟

جـ – يعتبر مفتئتا على السلطه، أدى ما ينبغى أن تقوم به السلطه.

س – هل هناك عقوبه للإفتئات على السلطه؟

ج – لا أذكر أية عقوبة فى الاسلام»[٧١]

يقول هذا بقلب بارد لأن فرج فوده بالنسبه له هو النقيض .. العدو،

---

٧٠ – النذير – رمضان – ١٣٥٧ هـ.

٧١ – محضر أقوال الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة فى قضية اغتيال د. فرج فودة.

ناسياً الحديث الشريف « لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً» [أخرجه البخارى].

وناسياً روايه المقداد بن الاسود رضى الله عنه إذ قال: «قلت يا رسول الله: أرأيت إذ لقيت رجلا من الكفار فإقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف ثم لاذ منى بشجرة وقال: أسلمت لله، أأقتله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله: لا تقتله، فقلت : إنه قطع إحدى يدى ثم قال ذلك؟ فقال النبى: لا تقتله، فإن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته .. أى مباح الدم» [أخرجه البخارى ومسلم وأبو دواد].

وكان فرج فوده يعارضهم بقلمه.. مجرد القلم ولم يقطع لهم يداً ولا أصبعاً، وكان فى كل يوم يقر بإسلامه، ويتمسكه بالاسلام.

ونسى فضيلة الشيخ المعتدل قول أحمد بن حنبل «ومرتكب الكبيرة ليس بكافر، ولا هو في منزلة بين منزلتى الكفر والايمان، كما أنه ليس معفواً عنه، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله، فإن زعم أحد أنه كافر فقد زعم أن آدم كافر ، وأن إخوه يوسف حين كذبوا أباهم كفار. والحاصل أنه لا يكفر أحد من أهل التوحيد، وإن عمل الكبائر» ولسنا نعتقد أن فرج فوده بإنتقاده لافكار هؤلاء المتأسلمين قد إرتكب كبيرة أو صغيرة، بل لعله كان الأقرب إلى صحيح الاسلام.

فإذا كانت هذه فتوى الأكثر إعتدالاً.. فإن الاعضاء الآخرين كانوا أكثر صراحة .. وربما أكثر عنفاً.

وما من مجال لسرد كل الدعاوى الاخوانيه التى تقرر أن العنف والارهاب هو أساس الدعوة.. وجوهرها، فلقد يحتاج الأمر إلى مجلدات .. فقط أدعو القارئ إلى قراءة الكتب الآتية التى أصدرها قاده بارزون

من الجماعه، بل لعلهم كانوا أبرز القادة الفعليين، فهم قادة الجهاز السرى الذى كرس الارهاب المتأسلم فى مصر.

– أحمد عادل كمال – النقط فوق الحروف ويقول فيه: جماعة دون عنف يحميها .. تهريج.

– صلاح شادى – حصاد العمر [ويورد مئات الوقائع عن إرتكاب أعمال إرهابية].

– عبد المنعم عبد الرؤوف – أرغمت فاروق على التنازل عن العرش [وفيه يؤكد أن الاخوان هم الذين حاولوا إغتيال عبد الناصر فى حادث المنشية ويورد تفاصيل الترتيبات].

– محمود عبد الحليم – الاخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ [وفيه يؤكد أن رئيس الجهاز السرى للاخوان عبد الرحمن السندى هو الذى دبر قتل نائبه سيد فايز ويقول:« وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذه الجريمه الأثيمه كانت بتدبير السندى»[٧٢]

وإذ يطالع القارئ هذه الكتب أو حتى واحداً منها سيجد فيضاً من المعلومات والأدله والاعترافات والاتهامات المتبادلة .. تكفى وتزيد لاقناعه بأن جماعة الاخوان كانت المصدر الأساسى للارهاب المتأسلم فى العصر الحديث . ولكن ليأذن لى القارئ ان نتوقف أمام كاتب إخوانى من قاده الجهاز السرى، نتوقف أمامه لأنه الأصرح والأوضح .. وربما الأفدح، إنه الاستاذ محمود الصباغ. ونقرأ:

يبدأ عضو الجهاز الخاص بالبيعه « يدخل إلى حجرة مطفأة الانوار،

---

٧٢ – محمود عبد الحليم – الاخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ – جـ٣ – ص٢٠٥.

ويجلس على بساط في مواجهة أخ فى الاسلام مغطى جسده تماماً من قمة رأسه إلى أخمص قدمه براداء أبيض، ثم يخرج من جانبه مسدسا ويطلب من المبايع أن يتحسسه، وأن يتحسس المصحف الشريف ثم يقول له: فإن خنت العهد أو أفشيت السر، فسوف يؤدى ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك، ويكون مأواك جهنم وبئس المصير»[٧٣]

ما معنى «إخلاء سبيل الجماعة منك»؟ تأتى الاجابه فى صفحة أخرى عندما يورد الاخ الصباغ نصوص لائحة الجهاز الخاص [الجهاز السرى لجماعة الاخوان]م١٣: إن أيه خيانة، أو إفشاء سر بحسن قصد، أو بسوء قصد يعرض صاحبه للاعدام وإخلاء سبيل الجماعه منه، مهما كانت منزلته، ومهما تحصن بالوسائل، وإعتصم بالاسباب التى يراها كفيلة له بالحياة»[٧٤]

بل إنه يعطى لنفسه ولزملائه الحق فى القتل المباشر دون إذن من القيادة «إن أعضاء الجهاز يمتلكون – دون إذن من أحد – الحق فى إغتيال من يشاؤون من خصومهم السياسيين، فكلهم قارئ لسنه رسول الله فى إباحة إغتيال أعداء الله».[٧٥] فقط نلاحظ ان «خصومهم السياسيين» هم أعداء الله ويباح إغتيالهم.

بل إن الاستاذ الصباغ يغالى فيقول «إن قتل أعداء الله [أى الخصوم السياسيين للجماعة] غيله هو من شرائع الاسلام، ومن خدع

---

٧٣ – محمود الصباغ – حقيقة التنظيم الخاص – ص١٣٢.

٧٤ – المرجع السابق – ص١٣٨

٧٥ – المرجع السابق – ص٤٢٩

الحرب فيها أن يسب المجاهد المسلمين وأن يضلل عدو الله بالكلام حتى يتمكن منه فيقتله»[٧٦]

.. فقط يبقى أن نشير إلى أن الاستاذ مصطفى مشهور مرشد الجماعة الحالى هو صاحب مقدمة هذا الكتاب.

ومادمنا فى إطار الحديث عن لائحة الجهاز الخاص وعن أساليبه، فلنطالع بعضا من أوراقه التى تم ضبطها فى القضية الشهيرة المسماة «قضية سيارة الجيب» وقد أوردهاالاستاذ عصام حسونه الذى كان وكيل النيابه المحقق، فى كتاب له. فورقه تعليمات صادرة من قيادة الجهاز لاعضائه تقول « إن كل من يحاول مناوأتهم ،أو الوقوف فى سبيلهم مهدر دمة، وان قاتلة مثاب على فعله» و «ان من سياستنا أن الاسلام يتجاوز عن قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة» و.. «إن من السياسيين من يجب إستئصاله وتطهير البلاد منه، فإن لم توجد سلطة شرعية تصدهم، فليتول ذلك من وضعوا أنفسهم للاسلام جنوداً، وأن الاسلام يتجاوز عن إحتمال قتل المسلمين إذا كان فى ذلك مصلحة»[٧٧].

.. ومن أشكال العنف .. «الفتوى»، فالمفتى من أعضاء الجماعة يضع السم فى الشراب ويترك الآخرين ليتجرعوه، وكمثال نورد الفتوى التالية التى كانت سبباً فى موجه للاعتداء على الكنائس وإحراقها.

فى مجلة الدعوه [لسان حال الجماعه] وردت الفتوى التالية التى أفتى بها مفتى المجلة الشيخ محمد عبد الله الخطيب حول حكم بناء

---

٧٦ - المرجع السابق - ص١٢٨

٧٧ - عصام حسونه - ٢٣ يوليو وعبد الناصر - ص٤٦

الكنائس فى ديار الاسلام.

«حكم بناء الكنائس فى ديار الاسلام على ثلاثة أقسام:

الأول: بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوان وهذه البلاد وأمثالها لا يجوز فيها إحداث كنيسة ولا بيعة.

والثانى: ما فتحه المسلمون من البلاد بالقوه كالاسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا فهذه أيضا أيضا لا يجوز بناء هذه الأشياء [لاحظ كلمة هذه الاشياء] فيها، وبعض العلماء قال بوجوب الهدم لأنها بلاد مملوكه للمسلمين.

والثالث: ما فتح صلحاً بين المسلمين وبين سكانها، والمختار هو إبقاء ما وجد بها من كنائس وبيع علي ما هى عليه فى وقت الفتح، ومنع بناء وإعاده ما هدم منها، وواضح انه لا يجوز إحداث كنيسة فى دار الإسلام»(٧٨)

هذا هو الفكر الاخوانى، ولسنا نريد الخوض فى تفنيد هذا الرأى وتخطئته شرعياً، وعبر الممارسات الاسلامية على مدي التاريخ من عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وحتى الآن.. وانما فقط نشير إلى أن فتوى كهذه كانت أساساً لأن يقوم بعض الصبية الذين صدقوها وإلتزموا بها بالتعدى علي الكنائس ومحاوله إحراقها.

.. ولعل هذا يقودنا.. الى فكرة طالما نادينا بها وهى : أن الارهاب

---

٧٨ – الدعوة – ديسمبر ١٩٨٠.

يبدأ فكراً.

* * *

.. **ومنذ** البدايات الأولى حاول الاستاذ حسن البنا – وإن بحذر – ان يضع اللبنات الاولى للمفارقة بين عضو الجماعة والمجتمع حكاما ومحكومين.. وللمفاصلة التامة بينهما. بل ولتكفير المجتمع.. حكاماً ومحكومين. وإنكار ما يقوم عليه المجتمع من أسس دستورية وقانونية .

وفي رسالة التعاليم يحدد حسن البنا واجبات «الأخ المجاهد» وعددها ٣٨ واجبا، الواجب رقم ٢٥ منها يأمر العضو « أن تقاطع المحاكم الأهلية، وكل قضاء غير أسلامي، والأندية والصحف، والجماعات، والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الاسلامية مقاطعة تامة»[٧٩] .. والبند رقم ٣٧ يأمره «أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك»

وعلى نهجه سار الاستاذ عبد القادر عوده .. إذ قرر تكفير كل قائل بالقانون الوضعي [والغريب انه ظل وحتى آخر أيام حياته محامياً ويدير مكتباً كبيراً للمحاماة التي تعتمد وفقط على التحاكم إلى القانون الوضعي].ويقول الاستاذ عوده «من الامثلة الظاهرة علي الكفر بالامتناع في عصرنا الحالي: الامتناع عن الحكم بالشريعة الاسلامية وتطبيق القوانين الوضعية بدلا منها» [٨٠].

ويقول: «فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر عليه، فهو كافر قطعا»[٨١]

---

٧٩ – حسن البنا – رسالة التعاليم – ص١٢

٨٠ – عبد القادر عوده – التشريع الجنائي الاسلامي – جـ ٢ – ص٧١٠

٨١ – المرجع السابق – ص٧٠٩

ويقول مفكر إخوانى آخر هو الاستاذ على جريشه «ولا خلاف فى جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل الشريعة، والقعود عن الجهاد تهلكة نهى الله عنها»[٨٢]

وغنى عن القول أن القول بتكفير كل من يقبل بالقانون الوضعى، هو تكفير للحكم والمجتمع والمحكومين، أما القعود عن الجهاد ضد هذا المجتمع فهو «تهلكه نهى الله عنها».

دون صعوبة إذن نكتشف أن جوهر فكرة التكفير ومن ثم «المفاصلة» مع المجتمع، والعنف ضده ، قديمة قدم الدعوة ذاتها، وأن الذى أرسي أساسها هو مؤسس الجماعة ذاته.. الاستاذ حسن البنا.

والذين يتصورون أن الاستاذ سيد قطب أستاذ «التكفير» والذي إنبثق من فكره كل دعاة الارهاب المحدثون [إلى درجة انهم يسمون بالقطبيين] كان شارداً عن خط الجماعة واهمون .. هو فقط وضع الكلمات فى موضعها الواضح، ولم يتلاعب بالألفاظ كما فعل سابقوه.

وسيد قطب رجل لا يعرف المساومة..

فيقول: «ان الاسلام لا يعرف إلا نوعين من المجتمعات: مجتمع إسلامى، ومجتمع جاهلى» والمجتمعات الجاهلية عند سيد قطب هى كل المجتمعات «الشيوعية والوثنيه واليهودية والمسيحية، والمجتمعات التى تزعم انها مسلمه»[٨٣]

وبشكل أوضح يقول: «يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى جميع

---

٨٢ – د. على جريشة – أصول الشريعة الاسلامية – ص٤٩.

٨٣ – سيد قطب – معالم فى الطريق – ص١٠٦.

المجتمعات القائمة على الارض»[٨٤]

وكما قلنا لا حل وسط فهو يقول: «فنحن وهذه الجاهلية علي مفرق الطريق.. فإما إسلام وإما جاهلية، وإن وظيفتنا الأولى هى إحلال التصورات والتقاليد الاسلامية فى مكان الجاهلية، ولن يكون هذا بمجاراة الجاهلية فى بعض الخطوات لأننا حين نسايرها خطوة، فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق»[٨٥]

وهو لا يعترف بإسلام المسلمين «إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية، ليس هذا إسلاما، وليس هؤلاء مسلمين . والدعوة إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الاسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد»[٨٦]

تأملوا «لتجعل منهم مسلمين من جديد». وهو لا يعتبر أن الاسلام قائم إلا فى حدود جماعته ومن ثم فهو يدعو إلى إعاده «إنشائه» قائلا «وينبغى ان يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس إعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولا إلى إعتناق العقيدة، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون، فاذا دخل فى هذا الدين عصبة من الناس، فهذه العصبة هى التى يطلق عليها اسم المجتمع المسلم» [٨٧]

وسيد قطب ينكر أية رابطة سوى رابطة الاسلام فهو لا يعترف

---

٨٤ – المرجع السابق – ص٨٤.

٨٥ – المرجع السابق – ص٨٥.

٨٦ – المرجع السابق – ص١٧٣.

٨٧ – المرجع السابق .ص٤٠.

بالوطن ولا بالوطنية «لا رابطة سوى العقيدة، ولا قبول لرابطة الجنس والارض واللون واللغة والوطن والمصالح الأرضية والحدود الاقليمية» «إن هى إلا أصنام تعبد من دون الله»[٨٨]

مرة أخرى انه رجل لا يعرف المساومة «لا حل وسط، ولا منهج بين بين.. إنما هناك حق وباطل، هدى وضلال، إسلام وجاهلية»[٨٩]

ومرة أخري هو يرفض كل المجتمعات «سواء كان إسمها حكم الفرد أو حكم الشعب، شيوعية أو رأسمالية، ديمقراطية أو ديكتاتورية، أو أتوقراطية أو ثيوقراطية»[٩٠]

.. ما معنى ذلك كله؟ ما معنى تكفير المسلمين جميعا.. حكاماً ومحكومين.. معناه ببساطة انهم جميعا مرتدون. ثم

.. الارهاب.

وهكذا فإن الارهاب يأتى منقاداً وبشكل طبيعى للفكرة الاولى الذى وضع بذرتها الاستاذ حسن البنا ومدها على إستقامتها الاستاذ سيد قطب..

ولعل وضوح وصراحة سيد قطب قد دفعت كثيراً من الاخوانيين المعتادين على «التقية» والممالأة ، والتلاعب بالكلمات إلى القول بأن سيد قطب قد تباعد عن فكر الجماعة. مستندين فى ذلك إلى كتاب «دعاة لاقضاة» الذي أصدره الاستاذ حسن الهضيبى [مرشد الاخوان آنذاك] وهو في السجن. ناسين أن الاستاذ الهضيبى كان كغيره من قادة الجماعة، يجاهر أحياناً بغير ما يعتقد، وملتجئاً إلى «التقية» ولنا على

---

٨٨ – المرجع السابق – ص٥٨.

٨٩ – سيد قطب – فى ظلال القرآن – جـ ١ – ص١١

٩٠ – سيد قطب – مقومات التصور الاسلامى – ٢٣

ذلك أدله عديده..

«أرسل الاستاذ الهضيبى من سجن طره الي الاخوان في الواحات مؤكدا أن تفسير الاخ سيد قطب للقرآن هو الحق الذى لا يسع أى مسلم أن يقول بغيره»(٩١)

ولقد يقول قائل - ولقد يكون - علي حق - أن هذه أقوال متهم قد أُجبر عليها تحت وطأة التعذيب.

فلنأت إلى شهادة أخرى، كتبت في الزمن السعيد زمن التهادن بين الاخوان والسادات.

الاخت زينب الغزالى تقول «إن فضيلة المرشد [الاستاذ الهضيبى] قد قرأ كتاب معالم فى الطريق، وأعاد قراءته قبل طبعه، ووافق عليه.. وقال أن هذا الكتاب قد حصر أمله كله فى سيد، وانه الأمل المرتجى للدعوة الآن»(٩٢)

وفى كتاب آخر أصدره واحد من مفكرى الجماعه [الاستاذ صفوت منصور] نقرأ «والاستاذ سيد قطب صاحب كتاب معالم فى الطريق يعد فى ميزان الرجال عماداً هائلا فى تجديد شباب الحركة الاسلامية، والإمتداد الفكرى والحركى لجماعة الاخوان المسلمين(٩٣)

ويعود فيؤكد ان فكر الاستاذ سيد قطب «هو إمتداد لفكر جماعة الاخوان المسلمين، وتجديد لشبابها الفكرى والحركى»(٩٤).

وقائد إخوانى مبرز هو الاستاذ صلاح شادى يكتب كتاباً أسماه

---

٩١ - محضر تحقيق النيابة فى القضية ١٢ لسنة ١٩٦٥ - أمن دوله عسكريه عليا - المتهم فيها سيد قطب وآخرون - محضر أقوال عزمى بكر محمود شافع.

٩٢ - زينب الغزالى - أيام من حياتى - ص٣٦.

٩٣ - صفوت منصور - المنهج الفكرى للعمل الاسلامى - الاخوان المسلمون - ص٩٢.

٩٤ - المرجع السابق - ص٩٨.

« الشهيدان – حسن البنا وسيد قطب» يقول فيه «لقد كان حسن البنا البذرة الصالحة للفكر الاسلامى، وكان سيد قطب الثمرة الناضجة لهذا الفكر»[٩٥]

* * *

الموقف الاجتماعى لجماعة الاخوان.

ولأن القرآن حمّال أوجه. ولأنه لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر كما قال الامام علي بن أبى طالب.

«فإن تلك الجماعة التى أكدت وتؤكد انها تتخذ من الاسلام منهجاً متكاملا، والتي كسبت تأييداً لا بأس به لأنها تقدم تصوراً يقول انه يستهدف تغيير النظام السياسى التقليدى فى مصر تغييراً شاملا»[٩٦]

فقد إستخدمت الدين بما يحقق لها مصالحها السياسية

ولأن الاسلام شأنه شأن أى معتقد سماوى أو فكرى يمكن الدخول إليه من أكثر من مدخل. وبرغم أننا تعلمنا على أيدى مفكرين أسلاميين المدخل الصحيح نحو البعد الاجتماعى للاسلام.. مفكرين مثل رفاعة الطهطاوى، وجمال الدين الافغانى الذى قال «إن أول من عمل بالاشتراكية هم الصحابة» والذى منح كلمة الاشتراكية تعريفا موجزاً ودقيقاً إذ قال

« الاشتراكية هى التى تعطى حقاً مسلوباً للشعب العامل»[٩٧]

---

٩٥ – صلاح شادى – الشهيدان – حسن البنا وسيد قطب – ٧٧.

96 -wheellook ,Kwith - New Egypt. (1960) - p3.

٩٧ – جمال الدين الافغانى – خاطرات جمال الدين – أملاه على محمد باشا المخزومى – ص١٦١.

وأمثال الاستاذ الامام محمد عبده الذي كان يرى كما يؤكد تلميذه رشيد رضا «ان تراكم الثروة لدى البعض يخلق مشاكل إجتماعية، وأن الاضرابات العمالية والمشكلات في علاقات العمل هى مجرد ثمرة لهذا الوضع»[98]

فان آخرين إختاروا مدخل إتخاذ الدين الدين كسلاح فى يد الرجعية وكبار الملاك والرأسماليين.

أما حسن البنا فقد وجد نفسه فى مأزق حقيقى.

فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيريه وسط جموع الفقراء. لكنه لا يريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك فإتخذ موقفاً يمكن القول بأنه «وسط» وبأنه «مرن» وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

وإكتسب هذا الموقف مزيداً من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض فى الواقع إعلان أي برنامج سياسى أو إقتصادى محدد وواضح وإكتفى بالعموميات مثل «القرآن دستورنا».

لكن واقع الحياة كان يفرض علي الجماعة أن تحدد موقفاً من مجمل البنية الاجتماعية والاقتصادية. فاضطرت الى ذلك وإتخذت من الوسطية والمرونة سبيلاً لتلافى أى إختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبايجاز شديد تلمس الأسلوب الذى حددت به الجماعة ومفكروها «الموقف الفكرى» من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة.

---

٩٨ - رشيد رضا - تفسير القرآن الكريم - جـ ٣ (١٣٦٧هـ) ص١٠٧

يقول أحد مفكرى الجماعة الشيخ محمد الغزالى: أن الإسلام يطرح نظاما إقتصادياً يمكن تسميته بالنظام الوسيط» وهو لايتردد فى القول بأن مثل هذا النظام «قد يطبق بأشكال مختلفة باشراف الدولة على مصالح الشركات الكبرى إشرافاً مباشراً.. وهو ما إعتبره وسطاً بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه».[٩٩]

بينما يقول مفكر آخر من مفكرى الجماعة هو سيد قطب «أن النظام الإسلامى ليس هو الرق.. وليس هو الإقطاع وليس هو الشيوعية، أن النظام الإسلامى هو فقط النظام الأسلامى»[١٠٠]

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة فى المجال الاجتماعى فهى تكتفى بنفى صفات محددة دون أن توضح تحديداً ماذا تريد.. لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة «الرأسمالية» عن النظام الإسلامى، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادماً مع الرأسمالية.. .. فالعبارة قيلت عام ١٩٥٣ حيث كان حكام يوليو ضد الإقطاع وضد الشيوعية لكنهم لم يتخذوا أى موقف ضدالرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضفى ظلالاً غيبية علي موضوع الملكية

---

٩٩ – الشيخ محمد الغزالى – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – (١٩٥٢) – ص

١٠٠ – سيد قطب – مقال – مجلة المسلمون – مارس – ١٩٥٣

ذاته «فالاسلام لا يعرف الملكية وإن كان يعرف الحيازة. إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكاً أصيلاً لأى شئ لا لذاته أو جسده ولالزرع أو ضرع ولا أرض أو ماء أو هواء .. وإنما هو خليفة الله سبحانه في ملكه»(١٠١)

وإذا كانت«الملكية» لله وحده والإنسان مستخلف فيها: فإن الاستغلال ليس ملازما للملكية.

فالشيخ البهى الخولى الذى كلف باعداد البرنامج التثقيفى للجماعة يقول: «إن مقاومة الاستغلال لا تكون بالغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الأنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسناً كريماً. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلي معالجة أو مقاومة، وإنما إلى تهذيب».(١٠٢)

ووفق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها.

ويقول حسن البنا في رسالته المعنونة «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامى».

«إن التفاوت عظيم والبون شاسع والفرق كبير بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع» وقد يتصور القارئ أن

---

١٠١ – الدعوة – العدد الأول – (١٩٥١).

١٠٢ – البرنامج التثقيفى لجماعة الإخوان المسلمون – محاضرة التثقيف الاقتصادى إعداد البهى الخولى.

الجملة التالية ستكون دفاعا عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتى دفاعاً عن الطبقة الوسطى «فالطبقة المتوسطة تكاد أن تكون معدومة. والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليست إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين علي قاعدة بعض الضرر أهون من بعض»[١٠٣]

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادى فى الإسلام من بينها:

- إعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.
- تقرير حرمة المال وإحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة.

ويستند البنا فى تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوى «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله».

ويمضى البناء قائلا: «لقد امتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بمنزلة الغنى الشاكر الذى يستخدم ماله فى نفع الناس ورضاء الله»[١٠٤]

---

١٠٣ - حسن البنا - مجموعة الرسائل - ص٤٢٠.

١٠٤ - المرجع السابق - ص٤٢٥.

ويشير أحد مؤرخى الجماعة إلى تعمدها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول:

«إلتزمت الجماعة بالفكر والمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقى.

لذلك فقد إقتصر إهتمامها بالقضايا العمالية على إظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من إضطهاد من جانب أصحاب الأعمال وإكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم»(١٠٥)

وبعد أسبوع واحد من ثورة يوليو نشرت الجماعة ما يمكن إعتباره «برنامجاً» سياسياً وإقتصادياً، ولعلها فعلت ذلك بهدف إحتواء القيادة الجديدة أوتحت ضغطها. وكذلك لمحاولة كسب جماهيرية وسط الشارع المصرى الذى كان ثوار يوليو ومؤيدوهم من الشيوعيين يكسبون مواقع هامة فيه. وقد جاء فى هذا البرنامج:

«العمل فرض على القادر عليه، ولا يجوز له أن يتخلى عنه، ولا يجوز إعانة رجل لا يعمل وهو قادر، بل يحمل على العمل حملاً، ويجب على ولى الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له.

فإذا لم يجد عملاً أصلاً، أو كان عمله لا يكفيه أو كان غير قادر عليه، وجب على ولى الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة بالزكاة

---

١٠٥ - د. زكريا البيومى - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية - (١٩٧٩) - ص٣٠٤.

، فإن لم تكف الزكاة لتوفير الحاجات الضرورية، وجب علي من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم، فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك وإتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات.

كذلك يجب إستكمال التشريعات العمالية بإعادة النظر فى التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال الزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والاصابة والعجز.. مع مراعاة جعل الانتساب للنقابات إجبارياً و إباحة تكوين الاتحادات النقابية وتحديد أجور العمال وفق المبادئ الإسلامية»[١٠٦]

إنه تطور مفاجئ فى موقف الجماعة تحاول به التقرب من العمال والفقراء عموما والمزايدة علي شعارات ثورة يوليو.

ويواصل الإخوان عملية المزايدة،ففى احتفالهم بالمولد النبوى عام ١٩٥٢ وفى حضور محمد نجيب وجمال عبد الناصر ألقى المرشد العام للجماعة الهضيبى كلمة قال فيها: «كل إنسان عليه واجب الحصول على عيشة عن طريق العمل الحلال بحسب ما تؤهله له مواهبه، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، وإذا كان عمل العامل لا يكفيه، أو لم يجد أصلاً أو كان غير قادر على العمل فهو فى كفالة المسلمين جميعاً أى

---

١٠٦ - صحف ٢ /٨ / ١٩٥٢ نقلا عن : محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ - جـ ٣ -ص١٢١.

فى كفالة الدولة تمده بما يحتاج إليه من حاجاته الضرورية»(١٠٧)

لكن ذلك كله يبقى فى العموميات فالإخوان لم يخرجوا أبداً عن إطار العموميات فى حديثهم السياسى والاجتماعى، وإن كان لابد من تخصيص فهو ليس فى صف العمال ولا فى صالحهم.

فحسن البنا يعد محاضرة لقسم العمال بالجماعة يؤكد فيها «إن على العمال أن يتذكروا دوماً واجبهم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل»(١٠٨)

أما «الأضراب» فهو عند الجماعة وبشكل حاسم «أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم»(١٠٩).

وإذا كان البعض يرى في الإضراب سلاحاً عمالياً فإن الإخوان يقدمون أسلحة أخرى «لابد للعامل من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق. فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل علي الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هى أنجح الوسائل»(١١٠)

وعندما تزايدت حدة أزمة البطالة شكل «قسم العمال» بالجماعة لجنة لشئون العاطلين درست المشكلة ثم تقدمت باقتراح غريب هو «إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إبان الحرب للعمل فى المدن.. إلى قراهم الأصلية»(١١١)

---

١٠٧ - المرجع السابق - ص٩٠.
١٠٨ -الإخوان المسلمون - ٢٤ / ٨ /١٩٤٦.
١٠٩ - المرجع السابق.
110 - Boehm,jacob. Les freres Musulmans - Mondenon- chretien XXvi-june

١١١ - الإخوان المسلمون ١٨ / ١٩٤٦/٨

ولابد هنا من الإشار إلى مسألة هامة تشكل محور الموقف الفكرى للجماعة من القضية العمالية. فقد هاجم الإخوان وبحماس شديد الرأسماليين الأجانب (وكان كثير منهم من اليهود) ووصفوهم «بالاستعمار الاقتصادى» وطالبوا بتوجيه ضربات شديدة لهم، بل لقد تطور الأمر عام ١٩٤٩ إلى نسف مصانعهم وشركاتهم لكنهم فى نفس الوقت لم يهاجموا علي الإطلاق الرأسماليين المصريين.

إن وثيقة بريطانية تلمح إلى هذه المفارقة بذكاء.. فبعد مقتل حسن البنا أعدت السفارة البريطانية تقريراً لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه:

«كان حسن البنا يستهدف مساندة العمال المصريين ضد أصحاب الأعمال الأجانب، لكنه لم يكن ضد أصحاب الأعمال المسلمين»(١١٢)

ولعل لهذا الموقف مدخله الدينى والاجتماعى والانتهازى فى آن واحد.

* * *

ونأتى إلى ساحة الممارسة. ولقد تعودنا من جماعة الإخوان أن تختلف الأقوال عن الأفعال .. وفى البداية يحدد محمد شريف مسئول مكتب العمال بالجماعة الهدف الأساسى للجماعة من العمل وسط جماهير العمال «أكد محمد شريف أن معاداة الشيوعية كانت أحد هدفين أساسيين إستهدفتهما الجماعة من عملها المنظم فى صفوف الطبقة العاملة أما الهدف الآخر فهو السعى لنشر دعوة الإسلام فى الأوساط العمالية»(١١٣).

---

112 - F.O.371 - 73474 - 13567.(1949). [المتحف البريطانى]

113 - Beinin and loekman - workers on the nile -(1987) - interview with m.shar if.p.369.

ولا شك أن نشاطاً من هذا القبيل قد لقى ترحيباً شديداً من جانب الحكومات والرأسماليين علي السواء..

والحقيقة أن تركيز الإخوان فى نشاطهم علي مقاومة الشيوعية قد أوقعهم فى محاذير شديدة الخطر، فدفعوا عضويتهم إلي التجسس على العمال النشطين، وعلى الشيوعيين عموماً وإبلاغ السلطات عنهم..

وأمام محكمة الشعب (التى شكلتها سلطة يوليو لمحاكمة الإخوان عندما تصادمت معهم) وقف أحد قادة الجماعة وهوصلاح الدين أبو الخير ليعترف صراحة «أن قسم الأخبار فى الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التى تهم الجماعة وأيضا نشوف حاجة.. خلية شيوعية مثلاً.. وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا وأبلغوا عنها»[١١٤].

ولكن أغلب النشاط الإخوانى التجسسى ضد اليسار عموماً، تركز أساساً فى المجال العمالى «حيث كانت أعين وإهتمامات أجهزة الأمن والقصر والرأسماليين مركزة هى أيضا»[١١٥].

ويعتقد ريتشارد ميتشل وهو باحث متخصص في تاريخ الجماعة .. أن هذا الموقف قد أضر ضرراً شديداً بالنشاط الإخوانى وسط العمال بحيث وصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصفية.[١١٦]

---

١١٤ - محكمة الشعب - الجزء الثانى - ص٢٩.

115 - For more detailes see -Badaoui - Zaki,les problemes du travail et les organisations ouvries.

116 - mitchell.richard - The society of the muslim brothers - (1969) p.282.

ولعل هذا الموقف هو الذى دفع العديد من الأبحاث الأكاديمية إلى دراسة ممارسات جماعة الإخوان فى صفوف العمال من خلال أو بالتوازى مع دراستهم لصراعهم مع الشيوعيين .. ففى كتاب Workers on the nile نقرأ:

«وقد إنعكس ذلك فى صفوف العمال فى شكل تصادم حاد مع الشيوعيين حيثما وجد لهم نفوذ، فلقد بدأ الإخوان المسلمون فى معارضة كل محاولة للشيوعيين لاستقلال النقابات والعمل النقابى عن رؤساء العمال فى المصانع، ولتصعيد النضال العمالى الذى إعتبره الإخوان دعوة لإثارة الخلاف بين المسلمين. وفى نفس الوقت دأبت الجماعة على مقاومة كل أشكال النفوذ الشيوعى سواء بالدعاية أوحتي بالتدخل العملى». ومن ثم فإن منطقة شبرا الخيمة وصناعة النسيج بشكل عام أصبحت أحد أهم مجالات الصراع المحتدم بين الاخوان والشيوعيين فى صفوف الحركة العمالية»[١١٧].

..ويمكن القول أن الظروف كانت مواتية كى يمارس الإخوان دوراً أزيد بكثير مما فعلوا.

فهناك أولاً المشاعر الدينية المسيطرة على جماهير العمال باتجاه الجماعة.وهناك أيضا الفراغ السياسى فى صفوف الطبقة العاملة في مطلع الثلاثينيات عند نشأة الجماعة. فالحزب الشيوعى المصرى

- 117 - see beinin - ibid .p..365.

وجهت له ضربات عنيفة. والاتحاد العام لنقابات العمال الذى أسسه الحزب عام ١٩٢١ تم حله أيضاً وصودرت ممتلكاته وسجن قادته، وحلت محله إتحادات عمالية شكلية تابعة بشكل مباشر للأحزاب البورجوازية أو للقصر الملكى، وتولى رئاستها بكوات وباشوات، بل وأحد نبلاء الأسرة المالكة. وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع بالعمال إلى العمل المباشر..

لكننا نعتقد أن المناورة السياسية والمراهنة على القصر الملكى وعلى عدم إغضاب كبارالملاك والرأسماليين بالإضافة إلى المنطلق المعتقدى، كل ذلك أدى بالجماعة إلى العجز عن الاستفادة من كل هذه الممكنات.

وبرغم ذلك فلابد لنا أن نلاحظ وباهتمام أن أول من إنضم إلى حسن البنا فى عملية تأسيس الجماعة كان ستة من العمال[١١٨] لكن الإسهام المكثف فى عملية التأسيس لم يتواصل معه تواجد جدى للجماعة فى صفوف العمال.

وعلى أية حال فقد تطور موقف الإخوان إزاء الطبقة العاملة من الاتصالات الفردية.. إلى العمل المباشر والمنظم، وشهد عام ١٩٣٨ بداية هذا التوجه ففى ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ «ألتقي بالمركز العام للجماعة مجموعة من العمال «المتعلمين» وتداولوا الأوضاع السيئة التى

---

١١٨ - حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص٥٣

تعيشها الحركة العمالية وحول إمكانية تأسيس حزب عمالى»[119].
ويعلق أحد الباحثين على هذه المحاولة قائلاً:«ويبدو أن هذا الحزب قد تكون من عدد محدود ولفترة وجيزة. واتخذ له مقراً المركز العام للجماعة. ويبدو أنه كان مجرد واحدة من المناورات التى حاكها القصر ضد الوفد»[120].

وبعد عدة أشهر من هذه المحاولة الفاشلة أى فى عام ١٩٣٩أضرب ثمانية من قادة العمال بمدينة المحلة الكبرى عن الطعام إحتجاجاً على سوء أحوال الطبقة العاملة ومطالبين الحكومة باصدار تشريع يسمح بحق التنظيم النقابى. وقد إهتمت مجلة النذير (لسان حال الجماعة فى ذلك الوقت) بهذا الإضراب بالرغم من أن المضربين كانوا يساريين أو قريبين من اليسار، وهاجمت الحكومات المصرية المتعاقبة لأنها لم تف بوعودها للعمال وطالبت الوزارة بإصدار تشريعات منصفة لهم. لكنها فى الوقت نفسه هاجمت الاضراب كوسيلة وكأسلوب، وأكدت أنه يتنافى مع تعاليم الإسلام.[121]

وتأتى الأربعينيات لتشهد إنطلاقة يسارية واسعة، ونشاطاً شيوعياً فى صفوف العمال، ولعل هذا هو الذى دفع الجماعة لبذل إهتمام مضاعف بالقضايا العمالية.

---

١١٩ - شبرا - ٢٥ /٨ /١٩٣٨.

١٢٠ - د. زكريا البيومى - المرجع السابق - ص٣٠٥.

١٢١- النذير - ١٩ / ٦ /١٩٣٩.

وفى ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ صدر العدد الأول من جريدة «الإخوان المسلمون» ليعلن تأسيس «قسم الشئون الاجتماعية» بالجماعة.. بما يعنى بداية إهتمام منظم ومنتظم بهذه المسألة.

ويلاحظ مؤلفا كتاب «العمال علي ضفاف النيل».« أن المقالات التى نشرت عن الإصلاح الاجتماعى منذ ذلك التاريخ وحتى لحظة التوقف المؤقت للجريدة في يناير ١٩٤٤ كانت مقالات عامة، ومجردة تعكس فقط الرؤية الإسلامية الاجتماعية. ولم نجد بينها مقالاً واحداًيمتلك رؤية محددة حول مسألة عمالية محددة».(١٢٢)

لكن الجريدة إذ عاودت الصدور فى ديسمبر ١٩٤٤، عادت بتوجه جديد ومباشر نحو الطبقة العاملة - وإتسمت مقالاتها عموماً بالبساطة والشعبية والنبرة السياسية والاجتماعية الأكثر حدة. وتوافق ذلك مع توجه الجماعة لعمل نشط وسط العمال.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أسست الجماعة «قسم العمال» بالمركز العام، لكنها حرصت على التأكيد بأن «الغرض من إنشاء هذا القسم ليس التدخل فى شئون العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية، أو التعرض للعمال فى مصانعهم أو شركاتهم، ولكنه أنشئ بغرض توصيل الدعوة إلى نفوسهم وحتى يكون دافعاً لتمسكهم بتعاليم الدين».(١٢٣)

122- beinin - ibid p.366

١٢٣ - الإخوان المسلمون ٢٨ / ٦ / ١٩٤٥

ومرة أخرى فإن أغلب مؤرخي هذه الفترة يربطون بين توجه الإخوان للعمال وبين تصاعد النفوذ الشيوعي في صفوفهم ويؤكدون أن واجب «العداء للشيوعية» كان أحد دوافع الإخوان للنشاط وسط العمال..[124]

وقد حاول الإخوان أيضاً «إقامة نقابات عمالية تستوحى أفكارهم وقد حققوا فى ذلك نجاحاً ما، ونشرت صحيفتهم أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل على هدى رسالة الإخوان. كذلك أصبح لهم نفوذ فعال في عمال البترول بالسويس، مع بعض مجموعات من عمال النسيج فى المحلة وشبرا الخيمة »[125]

لكن بعض الباحثين والخصوم السياسين للإخوان يؤكدون أن الجماعة وجريدتها كانت تبالغ إلى حد كبير في نشر معلومات عن النشاط الإخوانى وسط العمال.

وكمثال على ذلك نروى الواقعة التالية: ففى أعقاب تأسيس «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» (وهى تجمع يسارى جماهيري ضم ممثلين للشيوعيين ويسار الوفد فى صفوف الطلاب والعمال، وقاد تحركاً وطنياً واسعاً ضد قوات الاحتلال، وقاد مظاهرات صاخبة في ٢١ فبراير و٤ مارس ١٩٤٦)، نشرت جريدة الاخوان المسلمون أنه قد تأسست

---

١٢٤ - راجع زكريا البيومى - المرجع السابق.

١٢٥ - زكريا البيومى - المرجع السابق - ص٣٠٦.

لجان تابعة للجماعة فى مختلف مصانع منطقة شبرا الخيمة (كبرى المناطق الصناعية بالقاهرة) وتأسست لجنة عليا لمندوبى هذه المصانع.

وعلى الأثر أصدر قادة اللجنة الوطنية العامة لعمال شبرا الخيمة (أحد القوى الأساسية المكونة للجنة الوطنية للعمال والطلبة) بياناً جاء فيه:

«نشرت جريدة الإخوان المسلمين أنه قد تألفت لجنة فى كل مصنع من مصانع شبرا الخيمة، وتألفت لجنة عليا من هذه اللجان، والحقيقة أنه لم تتألف لجان برغم المساعى الشديدة لهذه الجماعة، ولقد ذهبنا نحن ممثلى العمال لمقابلة المسئولين فى الجماعة وسألناهم عن هذه المحاولات التى تتم فى مواجهة نقابات العمال فلم نظفر بجواب مقنع بل وجدناهم يتكلمون بلغة المستعمر وأصحاب الأعمال. وأمام هذا أعلنا لهم عدم موافقتنا على تشكيل أى لجنة .. وهذه حقيقة نعلنها للرأى العام»(١٢٦)

كذلك أصدر التشكيل النقابى الأساسى فى مصر فى ذلك الحين «مؤتمر نقابات عمال الشركات الأهلية» بيانا جاء فيه:

«دأبت جماعة الإخوان المسلمين منذ فجر البعث الوطنى الحالى على بث الدسائس وتدبير المؤامرات التى ترمى فى مجموعها إلى القضاء على الحركة الوطنية أو تحويلها عن أهدافها مما لا يخدم غير

---

١٢٦ - محمد حسن أحمد (اسم سرى) - الإخوان المسلمون فى الميزان (١٩٤٦) - ص٩٨.

الاستعمار. ولما كانت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هى اللجنة الشرعية المثلة للطلبة والعمال والموظفين، والمنتخبة إنتخاباً ديمقراطياً،والمنظمة لكفاح طوائف الشعب حتى يقضـــى على الاستعمار .. فقد دبر الأخوان مؤامراتهم خاصة ضد اللجنة، وبدأوا فى إعلان تكوين لجان خاصة بهم وسط العمال.. ويعلن المؤتمر أنه والهيئات الوطنية للعمال والطلبة، يحذرون الزملاء العمال من الانضمام إلى أية لجنة تؤلفها جماعة الإخوان المسلمين وكل عامل ينضم إلى أى لجنة من لجانها لا يمثل إلا نفسه.

- لتحيا اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.
- لتسقط الفاشية.
- ليسقط الاستعمار». [١٢٧]

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه لا صحة لما أعلنته جريدة الجماعة من تأسيس لجان فى المصانع بشبرا الخيمة تابعة للجماعة إذ لم يبرز أى نشاط لهذه الجان، وإن كانت الجماعة قد ظلت تمتلك تواجداً محدوداً فى مصانع هذه المنطقة.

ويؤكد مؤلفا « العمال على ضفاف النيل»:

«إن قادة عمال النسيج فى شبرا الخيمة الذين تمسكوا بالخط السياسى للجنة الوطنيةللعمال والطلبة لم يخفوا عداءهم لمحاولات

---

١٢٧ - المرجع السابق - ص١٠١.

التسلل الإخوانية فى صفوفهم»[128]

والحقيقة إن موجة العداء التى تصاعدت ضد الإخوان وسط صفوف العمال لم تكن فقط بسبب الممارسات السياسية المعادية للمشاعر الوطنية، والتى وقفت بالإخوان فى صف رئيس الوزراء الطاغية إسماعيل صدقى، وضد حركة الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار بقيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، وإنما كانت بسبب ممارسات محددة ضد مصالح العمال المباشرة، وكنموذج لهذه الممارسات يذكر الباحثون فى تاريخ هذه الفترة..إضراب شبرا الخيمة الشهير .. ففى سبتمبر ١٩٤٥ قاد الشيوعيون إضراباً شاملاً وناجحاً فى منطقة شبرا الخيمة حيث توقفت كل مصانع المنطقة عن العمل، وتشكلت قيادة سرية للإضراب عجز البوليس عن الوصول إليها.. وفي البداية أيدت جماعة الاخوان الإضراب لكنها ما لبثت أن انسحبت منه، وبدأت حملتها ضده ،بل لقد أرسلت وفوداً من دعاتها إلى المنطقة لإقناع العمال بالعدول عن الإضراب بحجة «أن الدين يحرم الإضراب لأن فيه خسارة لأصحاب المصانع من المسلمين».[129]

وعاد عمال شبرا الخيمة إلى الإضراب من جديد، فى إضراب أكثر شمولاً وأكثر تنظيماً إستمر طوال شهرى مايو - يوليو ١٩٤٦ .. ومنذ

---

128 - beinin - ibid p. 371.

١٢٩ - محمد حسن أحمد - المرجع السابق - ص٩١

البداية وقف الإخوان ضد الإضراب..

وإتهم قادة الإضراب - وأيدتهم فى ذلك صحف الوفد - أعضاء جماعة الإخوان «بأنهم قد سلموا البوليس قوائم بأسماء وعناوين القادة السريين للإضراب ونتيجة لهذه المعلومات ألقى القبض على أكثر من مائة من القادة العماليين».[١٣٠]

لكن الاضراب إستمر رغم ذلك.وصمم أصحاب المصانع على عدم السماح للعمال بالعودة للعمل إلا إذا تعهدوا كتابة بعدم العودة للإضراب. وأيدت جريدة الإخوان ذلك ،ودعت العمال «إلى إنهاء الإضراب والتوقيع على التعهد الذى طلبه منهم أصحاب المصانع ومكتب العمل بعدم اللجوء إلي سلاح الإضراب فى المستقبل» وقالت الجريدة أنها «تؤمل بعد عودة العمال للعمل وتوقيعهم على التعهد المطلوب أن تعمل الحكومة على حل مشاكل العمال»[١٣١]

بل إن جريدة الجماعة تواطأت مع السلطات فى محاولة تخريب الإضراب فنشرت خبراً غير صحيح يستهدف تصفية الإضراب، فقالت: «أن وفداً من عمال شبرا الخيمة أعلن إعتزام العمال إنهاء الإضراب».[١٣٢]

وردت عليها إحدى صحف حزب الوفد ببيان لقيادة الإضراب نفت

---

١٣٠ - الوفد المصرى - ٣١ / ٥ / ١٩٤٦

١٣١ - الإخوان المسلمون ٢ /٦ / ١٩٤٦

١٣٢ - الإخوان المسلمون ٢ /٢ /١٩٤٦.

فيه هذه الواقعة. وأكدت أن الأخوان يتجسسون فى صفوف العمال لحساب البوليس.(١٣٣)

وواصلت صحيفة الجماعة الدفاع عن موقف معلن وصريح يستهدف تصفية الإضراب وأكدت أن منظمى الإضراب «مهيجون محترفون».(١٣٤)

وعندما إنتهى الإضراب، وبدأت الحكومة وأصحاب الأعمال هجومهم العام على العمال، وصدر قرار بحل نقابة العمال بالمنطقة، قرر العمال الامتناع عن تشكيل نقابة جديدة واللجوء إلى القضاء لطلب إلغاء قرار الحل. وكان معلوما بوضوح أن تشكيل نقابة جديدة يعنى شطب القضية. ولكن الإخوان أعلنوا تشكيل نقابة جديدة لعمال شبرا الخيمة ووجهوا بذلك ضربة شديدة للتقاليد النقابية..(١٣٥)

وقد أكد العمال رفضهم لهذه الخطوة بمقاطعتهم لهذه النقابة التى لم يزد عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو فقط(١٣٦) ولعل هذه الممارسات كانت كافية تماماً لعزلة الخط الإخوانى عن جماهير العمال برغم جاذبية الدين وتغلغله الشديد فى صفوفهم. وفى هذا الصدد يقول مؤلفا«العمال على ضفاف النيل»:« إن الظروف الموضوعية للطبقة العاملة، وأسلوب

---

١٣٣ - الوفد المصرى ٣ / ٦ /١٩٤٦.

١٣٤ - الإخوان المسلمون ٣ / ٦ /١٩٤٦.

١٣٥ - الاخوان المسلمون ١٩٤٦/٧/٥

١٣٦ - الجماهير ١٩٤٧/٥/٥.

وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين فى صفوف هذه الطبقة قد لعبت دوراً حاسماً فى فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسى فى حركة العمال المصريين». [١٣٧]

ويؤكد ذلك أيضا «ريتشارد ميتشل» قائلا.. أن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعة وسط العمال. [١٣٨] لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخري لتحقيق تواجد ما فى صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية، حسنة التمويل، ومن ثم بدأت فى تأسيس العديد من المصانع التى حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء فى الجماعة.. وفى سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة «مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة» ونظراً للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد تولى إدارة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و٦٠ عاملاً. [١٣٩]

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففى ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك الشركات التالية:

- شركة الإخوان للصحافة.
- شركة الإخوان للطباعة.
- شركة الإعلانات العربية.

---

137 - beinin - ibid p. 365
138 - mitchell - ibid - p.280
139 - mitchell - ibid p.282.

- شركة المعاملات الإسلامية.
- شركة العربية للمناجم والمحاجر.
- شركة التجارة والأشغال الهندسية.
- شركة التوكيلات التجارية بالسويس
- شركة مزرعة العركى (٨٠٠ فدان)[١٤٠]

وكان العاملون بهذه الشركات جميعاً يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة، كما أن ثراء الجماعة (هناك تأكيدات عديدة بتمويل أجنبى) قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الرخوان أن «فرع شبرا الخيمة فى قسم العمال بالجماعة كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم».[١٤١]

ولعل مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابى يسارى وهو محمد متولى الشعراوى أحد قادة النشاط النقابى فى شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار «أنه في عام ١٩٤٨ وعندما بدأ نشاطه النقابى يتسبب فى تصادمه مع الشركة إنضم لجماعة الاخوان وسدد إشتراك شهرين كى يحصل على ضمانة مالية لمستقبله»[١٤٢]

كذلك فقد إستخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها، وتنشر أحدى الصحف الوفدية «أن أحد رؤساء العمال فى

---

١٤٠ - الإخوان المسلمون ١٣/٥/١٩٤٦.
١٤١ - الوفد المصرى ٢١/٥/١٩٤٦.
142 - beinin - ibid p.379

شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الاخوان المسلمين حاول أن يضم أحدة قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام فى المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل» . ويقرر القادة النقابيون فى شبرا الخيمة أنه فى أعقاب إسهام الإخوان فى إفشال الإضراب الكبير(١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع فى تعيين العديد من الاخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خصومتهم لاى توجه يسارى وسط العمال.. وقد مكن ذلك الجماعة من إستقطاب عدد محدود من العمال وأن كان قد أكسبها كراهية ونفوراً وسط الجموع العمالية.

ولعل أحد الادلة الهامة على ضعف النشاط العمالى للجماعة أن المذكرة التفسيرية للأمر العسكرى الصادر بحل الجماعة فى عام ١٩٤٨ تتحدث عن نشاط الجماعة تفصيلا فتشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال.. إن ثلاثة عشر بنداً تتضمنها المذكرة تفصيلا أنشطة الجماعة فى مختلف مناحى الحياة ولا إشارة واحدة للعمال[١٤٣]

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوماً فى خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

وعندما عادت الجماعة للنشاط فى نهاية ١٩٥٠ حاولت أن تتخطى

---

١٤٣ - الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل حماعة الاخوان المسلمين الصادر فى ٨ ديسمبر - المذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن بك عمار، وكيل وزارة الداخلية.

أخطاء الفترة السابقة، وأن تواكب المد الثوري الملتهب والذى أتخذ منحى ثورياً.. وأن تتكلم بلغته كي تكسب موقعاً ما وسط صفوف العمال. فكتب سيد قطب كثيراً عن إشتراكية الإسلام.. وتنشر مجلة «الدعوة» مقالات ملتهبة تهاجم الرأسماليين (لأول مرة) وتدافع عن حق العمال فى الإضراب (بعد أن أكدوا من قبل أنه ضد تعاليم الإسلام).. وثمة مقال لمحمد الفولى بعنوان: أيها الرأسماليون لا تحاربوا النقابات، يهاجم فيها قانون ١٩٤٠ لأنه يحرم تكوين إتحادات عمالية، كما أنه يحرم العمال من حق الاضراب الذى هو سلاحهم الوحيد فى مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم.(١٤٤).

لكن هذا التطور لم يستمر سوى فترة قصيرة جداً ولم يثمر نفوذاً ما وسط العمال..وبدت الجماعة وكأنها تفقد أملها فى هذه الطبقة، وفى وجود نفوذ حقيقى لها فى صفوفها، ومن ثم راهنت ومن جديد علي القوى الأخرى.

وعندما قامت ثورة ١٩٥٢، كانت تتنازعها مواقف متعددة إزاء قضية الطبقة العاملة، وإختار الإخوان الانحياز إلي أكثر العناصر محافظة وعداء لحقوق العمال..

وفى الإيام الأولى للثورة تولى د. محمد فؤاد جلال وزارة الشئون الاجتماعية وهو معروف بأنه من رجال «جمعية الفلاح» ذات التوجه

---

١٤٤ - الدعوة ٢٨ /٨ /١٩٥١.

اليمينى الواضح وكان يشرف علي أعمال الوزارة من قبل مجلس الثورة الضابط المعروف بتوجهه اليمينى وعلاقاته الوثيقة بالسفارة الأمريكية عبد المنعم أمين (وكان أيضا رئيس المحكمة العسكرية التى حاكمت العاملين خميس والبقرى بتهمة تنظيم إضراب في كفر الدوار وحكمت عليهما بالإعدام) ومع هذين الاثنين بالتحديد عمل كمساعد ومستشار للشئون العمالية سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين.

ويروى فتحى كامل وهو قائد نقابى مخضرم كيف أنه ذهب إلى وزارة الشئون الاجتماعية ليتفاوض بشأن تكوين إتحاد عام للعمال.. وحضر الاجتماع الوزير محمد فؤاد جلال، والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة، وشخص لم يعرفه أول الأمر ثم عرف فيما بعد أنه سيد قطب.. ويقول فتحى كامل أن سيد قطب كان أكثر الحاضرين رفضاً لفكرة الاتحاد العام، وأكد أن النقابات بحاجة أولاً إلى أن تطهر صفوفها من الشيوعيين [١٤٥]

ولعله من الضرورى الإشارة إلى أن الجماعة بينما كانت تتخذ من خلف الستار مواقف معادية للعمال، كانت وفى هذه الفترة بالذات - وكما رأينا من قبل- تتخذ موقف المزايدة علي الجميع مدعية الدفاع عن العمال.

وكان من الضرورى أن يتواجه اليسار والإخوان فى كل موقع

---

١٤٥ - أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوءها وحتى ١٩٥٢ ص٨٠٩.

عمالى.. فعلى أثر التداخل الصريح لممثل الجماعة لدى وزير الشئون الاجتماعية في فرض توجهات معادية للعمال ومنها الإصرار على بقاء المادة ٣٩ من قانون عقد العمل الفردى التى كانت تجيز الفصل التعسفى للعمال .. قدم خالد محيى الدين أحد القادة اليساريين البارزين بحركة الضباط وعضو مجلس قيادة الثورة إستقالته من المجلس إحتجاجاً..

وجاء فى خطاب إستقالته «إننى قد فقدت القوة الدافعة علي العمل نتيجة أننى أرى أن أقل ما كانت تصبوا إليه نفسى من أفكار ومبادئ لا أستطيع تنفيذها» .. ويعلن فى الاستقالة رفضة لهذه المادة «التى أعتبرها ظلماً فادحاً على فئة العمال التى تعتبر العمود الفقرى لأى أمة تريد أن تبنى مكانها اللائق بين الأمم»(١٤٦)

ومرة أخرى يهزم التوجه الإخوانى إزاء العمال فقد إستطاعت إستقالة خالد محيى الدين أن تستقطب إلى جانبه جمال عبد الناصر الذى كان متغيبا عن الجلسة التى وقع فيها الصدام.. وعقدت جلسة جديدة ، وتم إتخاذ موقف جديد، وبدأ نفوذ سيد قطب يتقلص في مجال وزارة الشئون الاجتماعية، وما لبث أن أبعد عن موقعه..

ولعل مواقف كهذه قد إنعكست بالسلب أيضاً علي علاقة الإخوان

١٤٦- رسالة خطية موجهة من خالد محيى الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة - مؤرخة ١ /٣/ ١٩٥٣ (مسودة خطية).

بالعمال..

ويمكن القول أن هذه العلاقة ظلت وحتى الآن محدودة، فبرغم تصاعد المد الإسلامي وتزايد نفوذ الجماعات الإسلامية ومنها الإخوان المسلمين وسط فئات المجتمع المختلفة، وبرغم تزايد نفوذ الإخوان في عدد من النقابات المهنية (المهندسين - الأطباء) فإن المرشحين الإسلاميين قد فشلوا فشلاً ذريعاً فى إنتخابات النقابات العمالية الأخيرة.

ولعل ذلك كله ليس منفصلاً عن مجمل مواقف الجماعة سواء الأيديولوجية منها أو العملية.

* * *

وبعد كل ذلك وفى يناير ١٩٤٨ أعلن البوليس أنه إكتشف بمحض الصدفة مجموعة من الشبان تتدرب سراً على السلاح فى منطقة جبل المقطم، وأنه بمداهمة المجموعة - التى قاومت لبعض الوقت - ضبط البوليس ١٦٥ قنبلة ومجموعات من الأسلحة.. وقال زعيم المجموعة سيد فايز (وكان إسمه جديداً تماماً على البوليس برغم أنه كان أحد القادة الأساسيين للجهاز السرى) «إن السلاح يجرى تجميعه من أجل فلسطين وأن الشباب يتدرب من أجل فلسطين» ، وقال «أنهم اشتروا السلاح من العرب (البدو) من أجل العرب (الفلسطنيين)»[١٤٧] ..

١٤٧ - المصرى، ٢٤ -١ -١٩٤٨.

وتحت ضغوط ووساطات من الجماعة أفرج عن سيد فايز وزملائه..

لكن أنظار البوليس بدأت تتجه ناحية شباب الجماعة.

وتكون الخطوة الثانية فى ٢٢مارس ١٩٤٨ عندما يقتل إثنان من الإخوان المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكماً قاسياً على عضو بالجماعة سبق أن أتهم بالهجوم على مجموعة من الجنود الإنجليز فى أحد الملاهى الليلية، ويكتشف البوليس الصلة بين الشابين و بين مجموعة المقطم وبين جهاز سرى مسلح داخل جمعية الإخوان المسلمين.. ويقبض لوقت قصير علي المرشد نفسه، ولكنه لا يلبث أن يفرج عنه لعدم توافر الأدلة[١٤٨].

وإذا كان أعضاء الجماعة قد إستنكروا الحادث علنا (كعادتهم دوماً)، فلابد أن مشاعر مختلفة كانت تهتز فى داخلهم، فالجهاد حق، وهو واجب، والقتيل إرتكب جرماً فى نظرهم لأنه حكم بالسجن على شاب مسلم عضو بالجماعة لأنه هاجم مجموعة من الكفرة المحتلين أعداء الاسلام .. ولعل مثل هذه المشاعر لم تكن جديدة علي مصر .. فعلى أثر إنتشار موجة الاغتيالات وخاصة اغتيال أحمد ماهر، وأمين عثمان ، وغيرهما تحولت ساحات المحاكم كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى «إلى منابر لتمجيد القتل والجريمة»[١٤٩]

---

١٤٨ - آخر ساعة، ٢٤ - ١١ - ١٩٤٨.

١٤٩ - عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ٣ ، ص٢٦٧.

ولم يكن هذا الحادث سوى مقدمة.

فقد كانت حرب فلسطين تشتعل ، وإذ أسهم الإخوان المسلمون فى إشعالها فقد أسهموا أيضاً - وبقدر متزايد - فى إذكاء مشاعر عنصرية ضد اليهود المصريين، وحاولوا جهد طاقتهم تحويل المعركة من عرب ضد إستعمار وصهيونية، إلى مسلمين ضد يهود.

وكان طبيعياً أن يسهم الجهاز الخاص المدجج حتى أسنانه بالسلاح، والمستفز المشاعر، سواء بسبب تعثر مسيرة القتال وخيانة الحكومات العربية العميلة، أو بسبب القبض على «أخوة الجهاد» الذين قتلوا الخازندار .. كان طبيعياً أن يسهم فى إذكاء نيران التعصب الدينى مستخدماً الديناميت..

وفى ٢٠ يونيو ١٩٤٨ إشتعلت النيران في بعض منازل حارة اليهود ، وفى ١٩ يوليو تم تفجير محلى شيكوريل وأركو وهما مملوكان لتجار من اليهود.

وإذ توقع الهدنة الأولى فى حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانة والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم فى الداخل ضد اليهود المصريين، بعد أن أحبطت الجهود ضد الصهيانية في فلسطين.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هما أسبوعى الرعب بالقاهرة حيث تتوالى الانفجارات في ممتلكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون، وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة

الدلتا التجارية ومحطة ماركوني للتلغراف اللاسلكي.[١٥٠] وفي ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل في حارة اليهود ثم وقع إنفجار عنيف في مبني شركة الإعلانات الشرقية [١٥١]

. ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم جميعاً من الأبرياء..

وكانت أعين البوليس التى إستيقظت مؤخراً قد إكتشفت أحد أطراف الخيط، إذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة في عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ محمد فرغلي قائد كتائب الإخوان في فلسطين..

وفي ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة..

تقول مصادر البوليس أن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلي أية حال فإن واقعة سيارة الجيب قد وضعت يد البوليس فى ضربة من ضربات الحظ على إثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السرى، وعلى وثائق وأرشيفات الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه [١٥٢]

---

١٥٠ - المصرى ٢٠ . ٢١، ٢٩ يوليو ، ١ . ٤ أغسطس ١٩٤٨.

151 - Resner,Lawrence - Eternal Stranger:The Pilght of Modern Jew From Bagdad to Casablanca, New York (1951) P116.

١٥٢ - قضايا الإخوان - قضية سيارة الجيب: الحيثيات ونص الحكم - دار الفكر الإسلامى - القاهرة (١٩٥١).

وكان البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤدياً فريضة الحج، فما أن عاد تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل ضده فى سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة مسؤوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات[١٥٣]

وخرج البنا من السجن ليبذل جهوداً لإيقاف عجلة الأحداث محاولاً إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غير راض عنها، بل وراغب فى الخلاص منها..

لكن سرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ علي الحركة..

والشيخ الذى إعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصراً تماماً عاجزاً عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين شجعوا الإخوان، ونظروا لتحركهم بإتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر، وعن قضايا الداخل المختلفة، بدءوا يخونون قضية فلسطين كما خانوا من قبل قضية مصر..

والبنا الذى شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدى بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالباً إما بأن يواجه القصر والحكومة وإما أن يواجه أتباعه.. وحاول أن يتخذ موقفاً وسطاً، ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

---

153 - Mitchell - ibid. p.64.

وكان شباب الجامعة من الإخـوان وغيرهم يغلى رفضاً للشروط المهينة التى خضـعت لها الحكومة في إتفاقية الهدنة في فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة) ، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجمـاعة، وخـرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام، ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب القصر العينى أحد مراكز القوة بالنسبة لطـلاب الإخوان.. وإستخدم البوليس الرصاص، واستخدم الإخوان المتفجرات، وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكى يقود المعركة من سـيارته (تلك السيارة التى ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليـهدئ المتظاهرين)، سددت نحوه قنبلة أصابته إصابة مباشرة.. وإتهم بيان حكومى جماعة الإخوان المسلمين بقتله..

وعلي أثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكرى، (كانت الأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين) بإيقاف صحيفة الجماعة .. وحاول البنا يائساً إنقاذ الجماعة.. إتصل بكل أصدقائه وحتى خصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، بإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصى وصديق الجماعة) وكان وكيلاً لوزارة الداخلية.

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا يتلاعبون به ،ففى الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر إتصل به عبد الرحمن عمار وأكد له أن شيئاً ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة. وإطمأن الشيخ

وقبع هو ومجموعة من أنصاره في المركز العام ينتظرون «الإنقاذ» فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء على مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصراً وإقتحمه البوليس ليلقى القبض على كل من فيه بإستثناء البنا.. الذى ترك طليقاً بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله(١٥٤).. وكانت حريته هذه هى عذابه ونهايته.

وإشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين على قرار إتهام طويل يعيد إلى الأذهان كل أعمال العنف التى إرتكبتها الجماعة، حتى تلك التى إرتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

فمن بين التهم الثلاث عشرة التى ساقتها المذكرة نجد:

* أن الجماعة كانت تعد للإطاحة بالنظام السياسى القائم وذلك عن طريق الإرهاب مستخدمة تشكيلات مدربة عسكرياً هى فرق الجوالة.

* مسئولية الجماعة عن مقتل أحد خصومها السياسيين (وفدى) في بور سعيد.

* مسئولية الجماعة بحيازة أسلحة ومفرقعات ومتفجرات (حادث المقطم - مستودع السلاح بعزبة الشيخ محمد فرغلى - ضبط مصنع

---

١٥٤ - الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير١٩٧٧) - تصريح لسعد الدين الوليلى، السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان «ما هى الأسرار الحقيقية فى قضية إغتيال الشيخ حسن البنا».

للمتفجرات بالإسماعيلية)

* نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية.

* نسف العديد من المنشآت التجارية المملوكة لليهود.

* الاعتداء علي رجال الأمن أثناء تأدية وظيفتهم.

* إرهاب أصحاب المنشآت التجارية وتهديدهم بهدف الحصول على «تبرعات» و«إشتراكات» مدفوعة مقدماً لصحيفة الجماعة.

وبناء علي هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكرى العام محمود فهمى النقراشى باشا قراراً عسكرياً من تسعة مواد تنص مادته الأولى: تحل فوراً الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت، وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها، وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلى العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية.ويحظر على أعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية وبوجه خاص عقد إجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات، أو الاشتراكات أو الشروع في شئ من ذلك.. ويعد من الاجتماعات المحظورة فى تطبيق هذا الحكم إجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر على كل شخص طبيعى أو معنوى السماح باستعمال أى مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات، أو تقديم أى مساعدة أدبية أو مادية أخرى.

وتنص المادة الثالثة «على كل شخص كان عضواً فى الجمعية

المنحلة أو منتمياً لها وكان مؤتمنا على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء أن يسلمها إلى مركز البوليس المقيم فى دائرته فى خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر».

أما المادة الرابعة فتنص على تعيين «مندوب خاص مهمته إستلام جميع أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته، ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التى يحددها وزير الشؤون».

ودارت ماكينة العنف البوليسى ضد الاخوان .. هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوعيين فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضاً.

والمعتقلات التى إفتتحت فى ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو (أيار) ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) والتى إستقبلت خصومهم السياسيين، أخذت تتوسع كى تستقبل الألوف من أعضاء الإخوان.

ويقول البنا انه قد تم فصل ١٥٠ موظفاً، وشرد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلى ٥٠٠ موظف، وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب[١٥٥].

وحاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة.. لكنه كان عاجزاً بالفعل . فالحكومة التى هادنها وهادنته، كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان، ورفض النقراشى كل محاولات البنا

---

١٥٥ - حسن البنا، القول الفصل.

للالتقاء به. والجماعة التي بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاماً تنهار أمام عينيه، وجهازه السرى تنقطع خطوط إتصاله، فقد كانت ضربة سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادة الجهاز السرى، وشبكات إتصالهم، وإذ ضربت قيادة الجهاز فقد البنا إتصاله به بل، وفقد سيطرته عليه»(١٥٦)

وفى ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) وقعت الواقعة وصعدت المأساة إلى أعلى قممها إذ قام طالب فى الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتى التصويب على رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشي باشا.

وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين فى صراحة «الموت لحسن البنا»(١٥٧)

وأتى إبراهيم عبد الهادى ليدير ماكينة العنف الرسمى إلى أقصى مداها، ولتتسع دائرة الاعتقالات فى صفوف الإخوان فتشمل ٤٠٠٠ معتقل(١٥٨)، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشى الذى لم تعرف له مصر مثيلاً من قبل، وباختصار «كانت الستة أشهر التالية لتولى إبراهيم عبد الهادى الحكم صورة راسخة فى أذهان المصريين جميعاً للسلطة الرسمية الغاشمة وقد إكتسب عبد الهادي لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأى العام المصرى»(١٥٩).

---

156 - MITCHELL - OP.CIT .P.67.

١٥٧ - المباحث، ٢٣ - ١ - ١٩٥١.

158 - CAHIERS DE LORIENT CONTEMPORAIne- II (1949)P.42.

159 - MITCHELL -ibid.P.67.

وفى زنازين التعذيب الرهيبة - والتى تناولت المتهم وأسرته رجالاً ونساءً - كان أقصى ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم».

ولعل شكوكاً كثيرة قد ساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السرى وهم يعانون من التعذيب الوحشى فى جدوى عملية الإرهاب ضد خصومهم، وربما فى مدى مشروعيتها.

وفى مدى إنطباق «فكرة الجهاد» علي ما إرتكبوه من أعمال، ولعل فتاوي مفتي الديار المصرية ، وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التى تدين أعمالهم قدأثرت فيهم كثيراً.

لكن الطامة الكبرى جاءت عندما إستنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال وإتهم القائمين بها بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين»، وهنا إنهار المتهمون جميعاً، فقد كان صمودهم وإحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته من «البيعة» التى أقسموا بها بين يدى الشيخ أو من يمثله فى حجرة مظلمة .. فاذا تخلي الشيخ عنهم وعن فكرة «الجهاد» كما لقنها لهم .. فماذا يبقي؟

ولقد صمد عبد المجيد حسن ثلاثة أسابيع كاملة فى مواجهة تعذيب وحشى ضده وضد أسرته، لكنه ما لبث أن إنهار تماماً عندما قرأ بيان

الشيخ البنا الذى نشرته الصحف [(١٦٠)]

والحقيقة أن نزوع الإخوان الى الأرهاب، كان خطأ فادحاً مكن الخصوم من إستخدام العنف الرسمى فى أقصى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوى التى إعتادت العطف عليهم أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا.

ومع ماكينة التعذيب كانت ماكينة الدعاية تدور لتجرم الجماعة وشيخها ومنهجها وجهازها السرى.

* فتوى مفتى الدار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

* وبيان من هيئة كبار العلماء.

* وبيان ثالث من شيخ الأزهر.

* وساهم فى حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

* د. طه حسين يقول: «ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التى تدخر فى بيوت الأحياء وفى قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذى يكمن، وما هذه الخطط التى تدبر، وما هذا الكيد الذي يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذه النكر، ولم رخصت حياة المصريين .. يقال أنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذى لم يحرم شيئاً كما حـــرم القتل، ولم ينه عن شئ كما نهى

160 - MITCHELL -ibid.P.68.

عن التعاون علي الإثم والعدوان»(١٦١)

* وكامل الشناوى يقول «إننى حزين أن يوجد إنسان واحد، لا جماعة منظمة، يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبى ليقطر حزناً إذ كانت هذه الجماعة ترتكب جرائمها باسم الاسلام، وتجد من يصدقون دعواها.. إن الإسلام الذى يقول كتابه الكريم «وجادلهم بالتى هى أحسن» لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع والمتفجرات»(١٦٢)

لكن إستنكار الجهاز السرى وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعله أتى أكثر ما أتى من داخلها ..بل من شيخها ومنشئها ومؤسس الجهاز السرى نفسه.

يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فى إعترافاته أمام المحكمة «..شفت الأستاذ حسن بعدما حصلت حادثة الخازندار، وكان مرهقاً ومتعباً جداً من الحكاية دى، وقال لى الإخوان قاموا بارتكاب الحادثة دى إزاى.. دى جريمة بشعة .. وبهذه المناسبة شكا لى من أن الفكرة من إنشاء أو تكوين الجهاز كانت تفهيم الإخوان معنى الجهاد فى نفوسهم ولكن بعض الأفراد إنحرفوا، وقال أن هذه الحوادث حصلت من غير ما يعلم بها، وكان فى غاية الألم».

---

١٦١ - جرائم عصابة الإخوان - المرجع السابق - ص١٩٣.
١٦٢ - المرجع السابق - ص١٩٣.

ويقاطعه رئيس المحكمة «إحنا ما بنكلمش عن الأستاذ البنا وأنه كان فى غاية الألم، ألم تتكلم معاه فى أن الجهاز ده يتبع مين؟».

ويجيب الشاهد «معنى الكلام ده إن الجهاز المفروض أنه يكون خاضع له، ولكن هو ما كانش خاضع له، وانه إرتكب الحوادث اللى إرتكبها من غير أمره.. وفى فترة الحل تجددت شكواه (البنا) ثانى مرة، وقال على حد تعبيره الحمد الله اللى إتحلت الجماعة علشان نخلص من البلوى دى ونصفيها» [١٦٣]

وإذ نترك هذه الشهادة الخطيرة .. بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة في مسـؤولية قائلها فإننا نلاحظ أن ثمة شهادة أخرى تؤكدها، وهى شهادة السيدة منيرة عامر حرم صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصديق الشخصى لحسن البنا.. وفى شهادتها أمام المحقق فى إغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ تقول «الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكي يتفق مع الحكومة، وكان الواسطة بين الطرفين الأستاذ مصطفى مرعى، وأنا كنت أسمع أن الأستاذ البنا متألم، وسألته قال أنه بعد قتل الخازندار الأمور خرجت من أيده وقال: وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر» [١٦٤].

---

١٦٣ - محكمة الشعب جـ ٢ - محاكمة حسن الهضيبى (شهادة منير الدلة) ص ١٢٣٦ - ١٢٣٧.

١٦٤ - محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١ - ١٩٥٢) جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣ - (شهادة السيدة منيرة عامر) ص٢٥٩ وما بعدها.

ونمضى لنتابع مواقف بقية قادة الجماعة من أعمال الإرهاب.

.. يقول حسن الهضيبى خليفة حسن البنا فى إعترافاته أمام المحكمة «لما جيت فى الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٥١ تبين لى أن عندهم شئ اسمه النظام الخاص، فأنا سألت إيه الغرض من هذا النظام. وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه ؟ خصوصاً بعد ما ثبت أنه إرتكب جرائم قبل ذلك فى السنوات ٤٦ - ٤٧ - ٤٨، وكل هذه الجرائم إرتكبت طبعاً فى إنحراف أو خروج عن الغرض الأصلى»[١٦٥].

وقائد ثالث من الإخوان - محمد عبد المعز محمد عبد الله - يقول فى شهادته أمام المحكمة:

«- الدفاع: قتل النقراشى حلال؟

- الشاهد: جريمة.

- الدفاع: وقتل الخازندار حرام؟

- الشاهد: أيوه؟

- الدفاع: إسلام أو كفر؟

- الشاهد: كفر

- الدفاع: وقاتله؟

- الشاهد: يدخل النار.

- الدفاع: فى عهد من قتل الخازندار ؟

---

١٦٥ - محكمة الشعب - جـ ٤ - محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة حسن الهضيبى). ص٧٨٨

- الشاهد : فى عهد حسن البنا.

- الدفاع: والنقراشى؟

- الشاهد: في عهد حسن البنا.

- الدفاع : ومن يقر القتل كافر أو مسلم؟

الشاهد: ....»[١٦٦]

وقائد آخر من قادة الجماعة هو محمود الحواتكى يتكلم أمام المحكمة.

«- الدفاع: هل إغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟

- الشاهد: نعم.

- الدفاع: والذين إرتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أو غير مسلمين؟

الشاهد: إنخلعت عنهم ربقة الإيمان.

- الدفاع : هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون على هذه الجرائم مسلمين أو غير مسلمين؟

- الشاهد: غير مسلمين؟

ومضى الشاهد فى إعترافاته مؤكداً أنه فى أيام حسن البنا كان الذى يخرج على الجهاز السرى يقتل»[١٦٧]

---

١٦٦ - محكمة الشعب - جـ٢ - محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة محمد عبد المعز محمد عبد الله).

١٦٧ - المرجع السابق، شهادة محمود الحواتكى. ص٢٥٤.

أما الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام ذات المحكمة على سؤال عن نشاط الجهاز السرى قائلاً:

«- الرئيس : وده صح؟

- الشاهد: غلط

- الرئيس : غلط؟

- الشاهد : نعم

- الرئيس : يفهم من كده أن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟

- الشاهد: إلى أبعد حدود الغلط».

ويسأله الرئيس هل تعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذى حاول إغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية.. الإجرامية مثلاً؟

ويجيب وكيل جماعة الإخوان: «أناأعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامى»(١٦٨)

ونترك هذا الحديث إذ بإمكانه أن يطول بغير حد. فسلسلة إعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهى.. فقط أردنا منه أن نثبت أن مقولة «الجهاد» التى قام على أساسها الجهاز السرى لم تكن واضحة وضوحاً كافياً ولا مستقرة إستقراراً كافياً ولا مقبولة قبولاً كافياً من كوادر الجماعة وقادتها.وعندما جاءت ردود الافعال الحكومية، وحانت ساعة

---

١٦٨ - محكمة الشعب - جـ٣ - (شهادة خميس حميدة) ص٦٨٠.

العقاب، وعندما إنطفأ الزهو، وواجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة البطش، إنهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة.. كان أخطرها تطوعهم بإدانة فكرة الجهاز السرى وتكفير القائمين عليه.

نترك ذلك .. ونعود إلى الشيخ حسن فى محنته القاسية.

كان الشيخ حسن البنا يعانى أكثر ما يعانى من حريته المفروضة عليه. وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه فى المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد إختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ.. تصفيته سياسياً، أولاً وبعدها يصفى جسدياً.

وقد كان..

وفى حريته كان الشيخ أكثر عذاباً من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصراً، عاجزاً، ضعيفاً.. لقد إنفرط عقد الجماعة، والجهاز السرى تقطعت خطوطه، والبناء الشامخ ينهار، «ورهبان الليل وفرسان النهار» يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا باعترافات متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد من الإخوان.

والشيخ الذى كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدى مقابلة رئيس الوزراء مقدماً كل ما يستطيع من تنازلات .. ويأبى رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البنا، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيض الجناح في إتجاهين.. أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن جماعته كتابة، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل لعله ينقذ

شيئاً من تحت أنقاض الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله «القول الفصل» وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البنا «القول الفصل» قائلاً: «لقد سمع الرأى العام المصرى والعربى والإسلامى قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد، جانب الحكومة التى إعتدت على الهيئة بإصدار أمر عسكرى بحلها وهو الجانب الذى يملك كل وسائل الدعاية من الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع، ومن الإذاعة التى تديرها وتهيمن عليها القلة، ومن الخطباء فى المساجد الذين هم موظفون حكوميون. لكن الرأى العام لم يسمع من الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرموا كل وسائل الدفاع عن أنفسهم فصودرت صحفهم وعطلت أقلامهم وكممت أفواههم..وإعتقل كل خطيب لهم وإعتبر إجتماع كل خمسة منهم فى أي مكان جريمة أقل عقوبة لها السجن ستة أشهر.

ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأى العام المصرى والعربى والإسلامى وللضمير الإنسانى العالمى حتى لا يقع فى خطأ ما، ويظلم فى الحكم، ويحكم بسماع خصم واحد، وقد قيل : إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له حتى ترى خصمه فقد تكون عيناه الاثنتان مقلوعتين»[١٦٩]

---

١٦٩ - حسن ا لبنا، القول الفصل.

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة انها «للمجاهدين من الإخوان المسلمين والفلسطينيين والهيئة العربية العليا الفلسطينية، والحكومة نفسها تعرف ذلك».

وإتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبعد إجتماع لمثليها الدبلوماسيين بفايد فى ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسباباً عديدة أخرى منها ستر الفشل فى فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الانجليز عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس «من ذوى الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتربصوا بها كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية والاستعمار وأنصار الإلحاد والإباحية».وفي ختام «القول الفصل» قال البنا:

« وسنجاهد فى سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد، فإن أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد».

لكن «القول الفصل» بقى مخطوطاً.. ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ.

قلنا أن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة .. والصحيح أنه قد وقع فى مصيدة الوساطة .. لقد إستدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلاً أثر تنازل وفى النهاية إغتالوه.

وقد رفض عبد الهادى مقابلة الشيخ، ثم أحال الأمر إلى إثنين من

أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولاً إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرة على على الصائدين.. ثم على المصيدة.

- المصيدة : إستدارج الشيخ إلى إصدار بيانات وإتخاذ مواقف تدمر سمعته السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدى إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين، ثم فى النهاية تصفيته جسدياً بعد أن يصفى سياسياً.

يقول المدعى نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا : «ولم يكن المتهم (عبد الهادى) مطمئناً إلى أنه بما أجراه من أعتقالات قد عزل المجنى عليه (حسن البنا) من أنصاره عزلاً تاماً بل ساوره الاعتقاد باحتمال أن يكون لفريسته أنصار آخرون لم يتيسر لرجاله الكشف عنهم ، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه فى صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى في مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم ..فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات وجود أنصار آخرين للمجنى عليه إطمأن المتهم إلى أن الفرصة واتته ليجهز على فريسته وهى مجردة من كل نصير»(١٧١)

لكن كيف كانت تجرى المفاوضات بين «الصائد» و«الصيد»

---

١٧١ - محاكمات الثورة - الكتاب الأول (محاكمة إبراهيم عبد الهادى) ص١٨١.

..وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جراً إلى المصيدة..

لنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلي حسن البنا، «أخو خديجة» كما أسماه يوماً ما.. صهره عبد الكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير - بل لعلنا إستعرناه منه.. «علاوة على ذلك إستخدمت الحكومة الأستاذ مصطفى مرعى كأداة صيد.. لأن مصطفى مرعى إتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد.. وأخذ الأستاذ مصطفى مرعى بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل على إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهماً إياه بأسلوب بهلوانى بأن الحكومة ستلغى أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلى ماكانت عليه».

ويسأله رئيس المحكمة : قلت فى كلامك أنه إتبع طرق ملتوية، فإية الطرق الملتوية دى؟

ويجيب الشاهد: «أيوه حاقول لكم يا أفندم. فهو كان بيوهم الإمام الشهيد أنهم جادون فى أن يعيدوا الإخوان المسلمين، ولكنه كان بيقول له بس لو سمحت تكتب لى بيان يثبت حسن نيتكم، وكان مصطفى مرعى يقول ألفاظ للأمام الشهيد، وكان الأمام الشهيد يعارض فى ألفاظ ملتوية كان يكتبها أويمليها مصطفى مرعى فيقوم يقول له.. دى مسألة بسيطة إذا كان ده ثمن إعادة الإخوان، وإذا كان ثمن التفاهم مع الحكومة فإيه المانع من كتابته؟ وبمجرد ما كتب هذا البيان أخذه مصطفى مرعى وأعطاه لرئيس الحكومة وعدل فيه وجابه للأمام الشهيد وقعد يقول له اللفظ ده يدخل واللفظ ده لايدخل . وهكذا قعد يعدل فى

البيان . وبعد ذلك بمجرد ما أخذ البيان منه أعطاه لقاتل النقراشي وقال له شوف الشيخ حسن البنا أهو أصدر بيان ضدك، وقعد يستثير به المتهم القاتل، وكان من نتيجة هذا الأسلوب الذى إتخذه مصطفى مرعى أن قاتل النقراشي قعد يتكلم كلام كثير، وأصبح أداة مطواعة في يد التحقيق يقول ما يمليه عليه المحقق ورجال البوليس السياسى »(١٧٢)

وهكذا فعندما يتردى السياسى فى هاوية التنازلات.. فلاعاصم. ويوقع البنا بياناً بعنوان «بيان للناس» إستنكر فيها الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقه، ودمغها بالإرهاب والخروج علي تعاليم الإسلام.

وكان البنا يلح على ضرورة الإفراج عن بعض رجاله معلناً أنه «لا يستطيع أن ينكر الأخطاء التى ارتكبها الإخوان وأنها قد هزته، إلى درجة أنه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة»(١٧٣). وقال أن التحكم فى سير الأحداث يحتاج إلى رجال معينين يمكن للشيخ من خلالهم السيطرة على الموقف .. لكن عبد الهادى لم يقتنع بمنطق الشيخ ولم يكتف بالبيان الذى أصدره، وأخذ مصطفى مرعى يلح علي ضرورة تسليم محطة الإذاعة السرية للإخوان وكل ما بقى لدى الإخوان من أسلحة»(١٧٤)

---

١٧٢ - المرجع السابق ، ص١٢٥.

١٧٣ - موسى إسحاق الحسينى، المرجع السابق، ص٣٦.

١٧٤ - جمال سليم، البوليس السياسى يحكم مصر - القاهرة للثقافة العربية (١٩٧٦)، ص١٩٩.

وبعد يومين من صدور «بيان للناس» قبض علي أحد قادة الجهاز السري وهو يحاول نسف محكمة إستئناف مصر. ولنترك الحديث للشاهد الأول في قضية إغتيال البنا محمد يوسف الليثى والذي كان في هذا الوقت عميلاً للبوليس السياسي ومكلفاً بمتابعة تحركات حسن البنا وهوأيضاً الذى إستدرجه يوم اغتياله .. يقول الشاهد « .. وحصل حادث نسف محكمة الاستئناف وأنا قابلت الشيخ البنا، وكان متأثراً جداً من هذا الحادث، وكان معتقداً أن الإخوان مش هم اللى عملوا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللى عملوا الحادث زعل خالص وبكى وقال أنه لا تهمه الحكومة، وإنما يهمه الشعب الذى قد يصدق أن الأخوان المسلمين إرهابيون، وقال أنه إستعجب كيف حصل هذا الحادث؟ وحصلت بعد كده مفاوضات بينه وبين مصطفى مرعى بخصوص المعتقلين ، وصالح حرب باشا إتصل بمرعى بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا.. ومرعى بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك فى الأول وأنت رفضت، ولذلك لازم تعمل بيان وإتفاهموا على إصدار بيان بعنوان «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين» ثم إستمرت الاتصالات»[١٧٥]

وعندما يدخل الصيد إلى المصيدة .. تكون التصرفات غير محسوبة .. ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

«وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة

---

١٧٥ – محضر تحقيق النيابة فى قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١ – ١٩٥٢ – محضر أقوال محمد يوسف الليثى، ص٤٤.

النائب العام، وذكرت الجرائد أن مرتكبه كان من الإخوان المسلمين فشعرت بأن من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان ولا من المسلمين لأن الإسلام يحرمها والإخوة تأباها وترفضها.ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة التى نشرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان «بيان للناس» ولكن مصر الآمنة لن تروعها هذه المحاولات الأثيمة، وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه وطمأنينته فى ظل جلالة الملك المعظم على القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التى يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحداً منهم إلا شعوراً بواجبه وحرصاً تاماً علي أدائه . فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا إلى خدمة بلادهم كل فى حدود عمله، إن كانوا يستطيعون عمل شئ نافع مفيد.وإنى لأعلن أننى منذ اليوم سأعتبر أى حادث من هذه الحوادث يقع من أى فرد سبق له إتصال بجماعة الإخوان موجها إلى شخصى ولا يسعنى إزاءه إلا أن أقدم نفسى للقصاص وأطلب إلى جهات الاختصاص تجريدى من جنسيتى المصرية التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولا شك عن الأصيل والدخيل، ولله عاقبة الأمور.

«حسن البنا»

وهكذا إمتص المفاوضون البرتقالة إلى آخر قطرة.

والشيخ الذى يعيش فى قفص الحرية يعانى أكثر من رجاله فى السجن..

ويتعرض لضغوط مريرة عنيفة .. آلاف الأسر بلا عائل، إخوانه فى السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار إستياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال أنهم وجهوا له رسالة إنذار يقولون فيها أنهم يعتقدون «أن البيان مدسوس فإن كان صحيحاً فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا»(١٧٦)

ويكون تحدى من بقى بالخارج لبيان الشيخ محاولة نسف محكمة الاستئناف.. الرجل بين فكى كسارة البندق سجين ضغوط خصومه، وضغوط رجاله، لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

وماذا بقى من الشيخ..

رجاله فى السجون يبعثون له يهددونه، ومن بقى خارج السجن يتمرد عليه، وهو يتهم أخلص خلصائه.. الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة فى المنشط والمكره.. يتهم «رهبان الليل وفرسان النهار» بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

بل ويتردى إلى مديح الحكومة التى تعذب رجاله أشد العذاب، ويقول أنها حريصة علي أمن الشعب وطمأنينته «فى ظل جلالة الملك

-176 - Mitchell - ibid p.69.

المعظم».. بل ويحرض الشعب علي التعاون مع الحكومة «للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة».

«رهبان الليل وفرسان النهار» أصبحوا فى آخر بيان للشيخ «أولئك من العابثين» وجهادهم أصبح «سفاسف».

ولا يبقى للشيخ ما يقوله.. سوى أنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية «التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء»؟

وقرر القتلة أن يطلقوا الرصاص علي جثته.

سحبوا منه سيارته ثم مسدسه المرخص ثم سحبوا الحراسة المحيطة به، وإستدرجوه إلى جلسة مفاوضات أخرى أوأخيرة.. وأطلقوا عليه الرصاص.

ويبقى معلقاً للبحث الدقيق .. التاريخ الحقيقى لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.

هل هو يوم ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩. كما هو مثبت فى شهادة الوفاة..

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»..

أم هو يوم أصدر«بيان للناس»..

أم قبل ذلك بكثير.. يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاة للقصر.. ومخاصمة الشعب..؟

وقد أثبت التحقيق أن المدبر الأساسى لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ «قد أغتيل فى يوم ١٢ فبراير (١٩٤٩) الموافق ١٤ ربيع ثانى سنة ١٣٦٨ هجرية.. يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان إغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه»[١٧٧].

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسمياً من المحكمة التي عقدت فى أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرضاً وفاعلاً أصلياً.

ولأن القاتل الحقيقى كان فاروق على الاقل فى نظر الجماعة.. فإن الباحث لا يستطيع أن يكتم دهشته - بل ما هو أكثر من الدهشة - إذ يجد فى سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥١.. أسماء عديد من قادة الإخوان، أتوا إلى أبواب قصر الملك، ليعربوا - مرة أخرى - لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم. والتوقيعات ذات دلالة..

خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن إسماعيل الهضيبى.

أقارب الشيخ البنا.. شقيقه عبد الرحمن البنا وعضو مكتب الإرشاد العام.

وصهره عبد الحكيم عابدين وسكرتير عام الجماعة.

---

١٧٧ - الدعوة غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧). ص٣٨.

وأقرب المقربين إليه من رجاله:

- صالح عشماوى.
- عبد القادر عودة.
- حسين كمال الدين.
- محمد الغزالى.
- عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء فى مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعد الدين الوليلى أتوا به معهم ليوقع هو أيضاً معرباً عن ولائه للملك فاروق.

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة. تراكمت علامات إستفهام وعلامات تعجب كثيرة، وتكون علامة التعجب الأخيرة مثاراً لما هو أكثر من الدهشة.. وتساؤلاً حول مدى وفاء هؤلاء الموقعين لذكرى شيخهم وإمامهم ومرشدهم .. وحول مدى صدق ما يصيغون من تراتيل الوفاء لشيخ نسوا ذكراه على عتبات قصر قاتله!

* * *

.. التداعيات

وإذا كان حسن البنا هو البذرة الصالحة فإن سيد قطب هو الثمرة الناضجة.. أو على الاقل هذا هو رأى واحد من كبار رجال الجماعة. الصاغ صلاح شادى الذى كان مسئولا عن قسم «الوحدات» بالجماعة

[الفرع الاكثر سرية من الجهاز السرى، فهو الفرع الخاص بأعضاء الجماعة فى الجيش والبوليس].

ولم يحدث أبداً ان وجه إخوانى أيا كان مرتبته أى نقد، أو شبه نقد لممارسات أو كتابات الاستاذ سيد قطب. وسيد قطب - وهو شخصية مثيرة لجدل شديد-* هو سيد عصر الارهاب الحالى. فكل الارهابيين المتأسلمين الذين ملأوا الدنياً قتلا وسفكاً للدماء هم «قطبيون» أى أنهم من أتباعه. وفي سجن طره بدأ سيد قطب فى إستقطاب أكثر عناصر شباب الجماعة تشدداً ليكوّن منهم تياراً ينتقد إعتدال البعض من رموز الجماعة، ويدعو إلى تكفير المجتمع [الحاكم والمحكوم على السواء] وكان من أبرز تلاميذه فى السجن «شكرى مصطفى» الذى

* فالذى يعرف السجون الناصرية وخاصة بالنسبة للخصوم السياسيين [اخوان وشيوعيين] يعرف ان سيد قطب قد عومل معاملة مثيرة للدهشة من فرط تميزها . فقد قضى أغلب فترات سجنه فى مستشفى سجن طره، فى حين أنه لم يكن المريض الوحيد الذى يستحق ذلك. وفيما كانت الأدوات الكتابية ممنوعة بشكل حاسم، أتيح له هو وحده أن يكتب فى السجن تفسيره للقرآن الكريم بمجلداته المتعدده بما يحتاجه ذلك من مراجع عديدة وأوراق وأقلام وكلها كانت ممنوعه. بل وأخرجت مسودات هذا التفسير من السجن لتطبع حتى وهو فى السجن، وهو أمر غير مسبوق.

كما كان سيد قطب هو الوحيد من السجناء السياسيين الذى صدر ضده حكم ثم أفرج عنه بعفو صحى. والمثير للدهشة أنه ما أن أفرج عنه حتى بادر وعلي الفور بإعاده تأسيس الجماعه من جديد على أساس كتابه «معالم فى الطريق» وبدأ فى الاعداد لحملة تفجيرات وإغتيالات منها إغتيال عبد الناصر.. ثم كان ما كان.

سرعان ما كون بعد خروجه من السجن «الجماعة المسلمة» التى أسميت إعلاميا بجماعة التكفير والهجرة ، ومن هذه الجماعة الشديدة التشدد والتى تعرضت لضربات قاصمة فى أعقاب إختطافها للشيخ الذهبى وإغتياله .. تولدت جماعات عده لعل كل منها كان أكثر تطرفاً مما سبقه.

لكن الاستاذ سيد قطب هو صاحب نواة كرة الثلج التى تضخمت لتفرز لنا كل الارهابيين المتأسلمين من أعضاء «جماعة الجهاد» و «الجماعة الاسلامية» وما أفرزتاه من تكوينات تالية..

ولقد يتململ بعض الاخوان من نسبتهم إلى هذه التداعيات، لكن الشئ المؤكد أن أحداً لم يجرؤ أو يتجاسر ان ينطق بكلمة نقد واحدة لفكرة أو كلمة أو فعل من اقوال أو أفعال الاستاذ سيد قطب.

أليس هو «الثمرة الناضجة» للدعوة. وأليس هو «الأمل المرتجى للدعوة» كما أكد الاستاذ الهضيبى المرشد العام للاخوان علي زمن الاستاذ قطب؟

بل إن أحداً من الأخوان لم يوجه أى نقد أو إدانة لكل ما إرتكبه الارهابيون من مجازر . يتنصلون منها نعم . أما إدانتها وإدانة القائمين بها أو القائلين بضرورتها فلا.

ويبقى معلقاً فى عنق الجماعة كل فعل أو قول، وكل قطرة دم أريقت بأيدى المتأسلمين حتى يعلنوا براءتهم منها، ويعلنوا إدانتهم لها. والغريب ان هؤلاء المتأسلمون يسارعون من قبيل التفيقه، وسد منافذ

الحياة أمام الناس بتحريم عشرات الافعال والاقوال والكتابات، لكن أحداً منهم لم يحرم حرفاً مما كتبه هؤلاء الارهابيون الجدد إبتداءً من سيد قطب وحتى عمر عبد الرحمن وعبود الزمر وأسامه بن لادن وأمثالهم. ولم يحرم فعلا مما فعلوا .هو فقط يقول لم أفعل . ولكن اين واجب المسلم فى تبيان الحق.. أليس «الساكت عن الحق شيطان أخرس»؟

* * *

تداعيات التداعيات:

ومع وجود قيادة للجماعة منغلقة على نفسها، ولا تمتلك لا الكفاءة الفكرية ولا التنظيمية التى إعتاد عليها الاخوانيون.

ومع بروز قيادات من الكوادر الوسطى إكتسبت فى ظل ظروف محددة بعضاً من وجود جماهيرى. وهى قيادات قدمت إلى الجماعه من صفوف «كرة الثلج» التى ولدها سيد قطب. أى من صفوف الجماعات الجهادية كما يسمونها. دخلوا الجماعه شبانا [طلابا أو خريجين جدداً] صعدوا خطوة أو خطوتين ثم .. كفى.

فالحصون العليا في قيادة الجماعة محصنة لا يمسها إلا «المقربون» إبن المرشد المؤسس وإبن المرشد التالى . أما هؤلاء الغرباء فلا مكان لهم فى قمم القيادة الاخوانية.

ثم بدأت القيادة تلعب لعبة غريبة. تورط قواعدها ولاتتورط هى. هم يسجنون وهى تنجو.

ولعل الأمن قد أسهم في هذه اللعبة ربما [أقول ربما] عن وعى.

الأمن يقبض على الكوادر الوسطى، يحاكمها، ويسجنها، بينما «القيادة» تعيش فى مأمن.

ويبدو غريباً. وربما مريباً أن يقبض على مئات من أعضاء القيادات الوسطى الاخوانية بتهمة الانضمام إلي الجماعة وهى تنظيم محظور، وتكون الادلة كتابات ومطبوعات إخوانية كتابها ومؤلفوها من أعضاء مكتب الارشاد الذى يعيش حراً طليقاً، بل ويعلن أعضاؤه عن مواقعهم في الجماعة.

فالعضو يسجن لأنه يشتبه فى أنه منضم للجماعه، بينما الاستاذ مصطفى مشهور يعلن في كل يوم أنه المرشد العام.. والمستشار مأمون الهضيبى يعلن وعلنا أنه نائبه.

هذا المنطق المفتقد أثار حفيظة الكوادر الوسطى، خاصه وأن المواقع القيادية قد حجبت عنها قصراً.

وان الجماعه تفتقد أى شكل من أشكال الديمقراطية، فأيه ديمقراطية مع من بايعته «أميرا» أو «مرشدا» . بايعته «على السمع والطاعة فى المنشط والمكره» ومن تلقنت دوما انه يتحتم عليك أن «تطيعة وإن ضربك على ظهرك وبطنك»؟ وأية ديمقراطية فيما أسمى ببيعة المقابر؟، حيث وبشكل مفاجئ بُويع الاستاذ مصطفى مشهور مرشداً للجماعة خلال مراسم دفن المرشد السابق.. بايعه المشيعون دون ترتيب، ودون إحتراز من أن يكون المبايعون لا يمثلون الجماعة تمثيلا حقيقياً.أو

حتى لايكونون اعضاء فيها.

وأية ديمقراطية مع مرشد عام هو واحد من الرعيل الاول لمؤسسى الجهاز السرى الذى يفرض طاعة مضاعفة، وخضوعاً لا نقص فيه.

وهكذا بدأ التململ فى صفوف الكوادر الوسطى، وظهرت تداعيات جديدة . إنشقاقات من الجماعة بعضها أسمى نفسه «حزب الوسط» [تحت التأسيس] والآخر حزب الشريعة[أيضا تحت التأسيس]

وآخرون كثيرون.. متمردون صامتون، أو منسحبون دون ضجيج، أو يستعدون لذات الشئ.

لكن التداعيات ومهما حاولت أن تتزين تبقى مفعمة بثوابت الأصل. مثله، مثقله بكل نوازعه وكل مقولاته المتأسلمه. وإن تزينت أو تجملت أو حاولت..

* * *

ذات يوم شاهد هارون الرشيد سحابةً تسرع بعيداً دون أن تمطر فوق بغداد، فنظر إليها متهكما وقال: أمطرى حيث شئت، فخراجك سيأتينى». وأكاد أتخيل فضيلة المرشد العام للاخوان في موقع هارون الرشيد ، أما السحابة فهى كل هذه التداعيات وتداعيات التداعيات لكن «الخراج» هنا دماء وقتل وإرهاب وتأسلم.

* * *

..**ونعود** لنؤكد ما كررنا من قبل أن الارهاب يبدأ فكراً. يبدأ بفكرة خبيثة متأسلمة، لا تلبث أن تقتاد صاحبها أو متلقيها خطوة خطوة فى

طريق المفاصلة مع المجتمع، أو مع كل مختلف معه، ويصبح الآخر هو العدو، ولأن الفكر الدينى [الانسانى، النسبى الصحة] يروج له باعتباره ذات الدين [الإلهى المحتوى والكلى الصحة] فإن الآخر العدو يصبح بالضرورة الكافر.. الذى يجب أن يقام عليه حد الردة.

ونعود إلى حكاية عربية قديمة نتذكرها إذ نتحدث عن البذرة الخبيثة التى تتولد منها تداعيات متفجرة «إلتقى رجل صالح بإبليس، فعاتبه وناشده أن يكف عن أغواء البشر. فقال إبليس :أنا لا أغوى أحداً يامولانا.. أنا أضع البذرة وأتركها وأتركهم هم يفعلون كل شئ. ولما سأله الرجل الصالح كيف؟ إصطحبه إلى السوق وأمسك بخنفساء ووضعها علي الحائط بجوار كلب. لمح الكلب الخنفساء، إرتفع نباحه، وحاول القفز ليلتقط الخنفساء، ففزعت قطة كان مارة بالمصادفة، قفزت القطة من فزعها لتصطدم بحلوانى يقلى بعض الحلوى فى قدر من الزيت. أجفل الرجل، إنقلب الوعاء، وانقلب الموقد، فجرى الرجل خلف الكلب ليضربه. وأتى صاحب الكلب ليضرب الحلوانى، وأتى أنصار كل منهم وتشابك السوق مع بعضه البعض فى عراك ضار، بينما نار الموقد تمتد، تشعل المحل وتشعل كل محلات السوق.. ولم ينفض العراك الا مع إحتراق السوق بأكمله . ونظر الرجل الصالح إلى إبليس.. دون أن ينطق».

.. البذرة الخبيثة هى تلك الافكار المتأسلمة.. والتداعيات هى إحتراق كل شئ.

والارهاب المتأسلم .. يبدأ فكرةً.أما إبليس فالجميع يعرفونه.

الناصرية الاسطورة .. والواقع

لا يشعر البط البرى بحقيقة مأساته

إلا عندما يرى البط الطائر محلقاً فى الفضاء.

لعلنا لانخطئ القــول إذا قلنا أن النـاصــريـه كظاهرة، وفكرة، وممارسة، وحكم، كانت الأكثر - من بين الظواهر المماثلة - فى إستقطاب التـمجيـد المبالغ فيـه من جانب الانصار، والهجوم الذى بغير حدود من جانب الخصوم. كلاهمـا.. الانصـار والخصـوم نظر إلى الناصرية بعين واحدة، غـيمـة وحيـدة خيـمت فوق الرؤية، إمـا حب مـفرط، أو كراهية ملتـهبة. ربما لأن هذه عـادة من عادات فكرنا العـربى فى شقه السلبى، وربما لأن «ناصر» نفسه كان كذلك .. مفرط فى حبه وفى كراهيته.

وتبدو الكتابة الموضـوعيـة عن «الناصرية» أمراً غـيـر مـألوف، ليس هذا فحسب وإنما تبدوفى بعض الأحيـان وكأنها أمر غير مفهوم، أو حتى غيـر منطقى [صديق مؤرخ مرموق إتهمنا نحن من عـانينا سجون عبد الناصر وعـذاباتهـا ، ثم لم نتـورط في هجـوم، وإكتـفـينا بكفـتى مـيـزان متعـادلتين من مدح ونقد، إتهمنا أننا بلا إحساس، والامر لا علاقة له بالاحسـاس، فـمرارة العـذاب والتـعذيب، والسجن المتـصل لم تزل تؤرقنا بدنيـاً وصـحيـاً وعـائليـاً و.. وجدانيـاً. صدقونى لم يزل طعم المرارة مريراً فى فمنا، أو فى فمى أنا علي الأقل.. لكن الأمر أكثر تعقيداً بكثير من هموم شخصية أو حتى جماعية، أكثر تعقيـداً من صورة تلتقطها كـاميرا مهمـا كانت صادقة ودقـيقة، فنحن بحاجة إلى أكثر من كاميرا تعمل فى آن واحد تلتقط صـوراً متناقضة، يتداخل فيـها السلبى مع الايجابى ، بل ويفـتـرض كل منهـمـا الآخـر، لا أدرى لماذا؟، يتـركب فـيـهـا مـعـا و فى

سبيكة لا يمكن فصل مكوناتها الحب والكراهية، الامتنان والغضب الذى يصل إلى درجة الحقد، الاعتزاز والامتهان.. صور تتركب داخل بعضها - لا أدرى كيف - ويتلاحق فيها السلبى والايجابى، بحيث يبدو الأمر مركبا وحتى غائما].

والايجابى فى الظاهرة الناصرية يمتزج وبشكل متداخل تماما مع السلبى [فهل يمكن مثلا فصل القطاع العام عن ديمقراطية الادارة، أو فصل جمال الشعارات والمقولات والقرارات عن قبح التطبيق وتشوهه] إنه تداخل متداخل لا يمكن فصله حتى بمشرط جراح ماهر.

ولعل شاعر العربية الكبير الجواهرى لخص الأمر كله فى بيت شعر واحد:

لا يعصم المجد الرجال وإنما
كان العظيم المجد والاخطاءً

* * *

ولقد ظل البعض يستظل بظل الناصرية، وينعم فى رحاب نعيمها، ويتسلق عبر شعابها فى غمار متسلقين بغير حصر.. وينال من فيض الاغداق على المتسلقين والمتزلفين، والمؤيدين بلا تردد، وبلا ترو، وبلا تمهل. فالتصفيق المتردد غير محسوب عندما تأتى ساعة الاغداق، بل لعله غير مسموح به. وما أن كانت لحظة الغروب حتى إنقض هذا البعض نفسه وبنفسه، ودون إلحاح أو طلب من أحد.. إنقض مهاجماً، تماماً كما كان ينقض مؤيداً ومصفقاً، نفض عن نفسه رداء النفاق الناصرى، ليرتدى الزى الجديد..

ومن يبدأ رحلة الهجوم المتشدد على ما كان يتعبده بالامس. يبحث ويدأب عن نقيض يناقض كل ما قال وما فعل، ليقوله، ويردده، ويكتبه، ويفعله بلا خجل.

وتبدأ مرحله الهجوم غير المتمهل وغير الموضوعى.

وتتكاثر حالات التشفى التى تذكرنى بحاله شعريه ترددت عقب قيام «الاحرار» .. بنفى السلطان عبد الحميد.

حالة تقول:

سلاما أيها النافى الرعايا
ولا تجزع فخالقهم نفاكا
وما أنا شامت بك حين تبكى
كمن شمتوا ولكن ذا بذاكا

ولئن كانت الذاكرة يقظة لكانت صورة هؤلاء كئيبة وكريهة، لكن البعض لا يهتم بأى شكل يراه الناس، بقدر ما يهتم بالمغنم والكسب أيا كان كم الماء الذى يُراق من وجوههم.

أما نحن من إنتقدنا فى الماضى ونالنا مانالنا بسبب هذا النقد - حتى ولو كان محدوداً، أو كان همساً -، فقد فرض علينا ضميرنا ان نلتزم بالحق.. ذات الحق الذى إلتزمنا به عندما إنتقدنا الممارسات غير الديمقراطية، نلتزم به اليوم إذ نبرزالايجابى.. إلى جوار السلبى، فتبدو المواقف مثيرة للدهشة. مواقفنا، ومواقف المنافقين القدامى والجدد.

* * *

والاخوة الناصريون يزيدون الأمر تعقيداً فهم كعاشق شديد الغيرة

على معشوقته، لا يحتمل عليها لمسة أو همسة، حتى وإن أتت في إطار من التأييد. ينتقون وفقط ما هو إيجابي، ويرفضون وبشدة شديدة التعصب، أية محاولة لأي نقد ولوطفيف. فيستثيرون بهذا الموقف الشديد التعصب رياح تعصب مضادٍ. ويكادون أن يفرضوا سياجاً يمنع التقييم وحتى الموضوعي منه. فمن أراد أن يبقى على شعرة معاوية بينه وبين الناصريين [لاسباب سياسية أو حتى فكرية] لا يجد مناصاً من الصمت .. فإما أن يمتدح وفقط، وهو لا يقبل بذلك، وإما أن يقدم كتابة موضوعية فيفقد كل شعيرات معاوية بينه وبين حزب وتيار يفترض انه صديق .. وحليف.

ولو أن الناصريين أنصفوا أنفسهم وحلفائهم، وأنصفوا فكرتهم ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وأنصفوا الدعوة إلي التقييم الموضوعي للحدث - أي حدث -، لبادروا، وسبقوا الجميع بنقد ذاتي شجاع ينتقد ما كان من أخطاء وهي كثيرة، ينتقدها، أقصد يدينها دون أن يبررها، أو يمررها، أو يتغاضى عنها، أو يقلل من شأنها، ساعتها سيفتحون أمام فكرتهم، وأمام حزبهم أو تياراتهم صفحة جديدة قد تكون بداية تطور جديد للفكرة ومستقبلها.

لكنهم للأسف لم يفعلوا.

ولعل البعض منهم يتصور أن النقد الذاتي سوف يفتح الباب أمام الخصوم،لكن العكس هو الصحيح، فإن الآذان والأسماع والأبصار- الموضوعي منها، والمخلص منها لمصر ولمستقبلها - وهي ما نعتد به ونهتم، سوف تتجه نحو النقد الذاتي، وسوف تُعرض عن كل لغو.

في حين أن تشبث الناصريين بعدم نقد التجربة السابقة يقدم الإيحاء بعدم جدية ما يقولون به من دفاع عن الديمقراطية أو تمسك بها، بل ويفتح الآذان أمام الهجوم والتهجم وحتى غير الموضوعى منه.

والحقيقه أن هناك إتجاها منذ بداية السبعينيات، ربما وضعت بذوره أحداث ١٥ مايو، حيث تنازع الجميع ميراث يوليو. الناصريون [أوأغلب قادتهم البارزون] أصبحوا «مراكز القوى» والمنقلبون عليهم [السادات ورهطه وهم الغالبية الساحقه ممن عاشوا على موائد الناصرية وتربوا في كنفها، ومارسوا معها ما مارست،كل ما مارست، وبرروا لها ما فعلت كل ما فعلت، وشاركوا فى الفعل أو فى تبريره أو تأويله] أصبحوا أصحاب يوليو.. يوليو المطلية بطلاء ١٥ مايو، الذى لا يحتاج منا إلى وصف، فقد أفصح عن نفسه ممارسةً وفعلاً وتاريخاً بما يكفى ويزيد.

ورويداً رويداً ومع نسيان السادات أو تناسيه لالتحاقه بناصر وناصريته، فعلها حواريوه وصار التفريق بين الناصريه وثورة يوليو واجباً عندهم.

وتبارى كثيرون ممن تنكروا للناصرية، وعاشوا فى ظل الساداتية فى إشاعة مثل هذا التفريق، في محاولة لإستلاب «يوليو» من «الناصرية». البعض قالها علناً، والبعض قالها عرضاً، والجميع تواطئوا على محاولة إعمال هذا الفصل.

وثمة أمثلة عدة:

- ابراهيم شكرى الامين العام لحزب العمل «الاشتراكى» [كما كان

يتسمى آنذاك] يقول .. «إن دعوه الحزب الاشتراكى كانت دليلا لثوره يوليو التى إستمدت مبادئها السته من برنامجه».. ثم يقول .. «إن الثورة نفذت الكثير مما نادينا به، فمن حقنا أن نكون حراسا على هذه المبادئ التى دفعنا ثمنها غاليا»(١)

- ويؤكد صالح أبو رقيق عضو مكتب الارشاد لجماعه الاخوان المسلمين [قبل حلها، ومرشدها العام فيما بعد]..«نحن أصحاب الثوره، وليس أولئك الذين يدعون الآن»(٢) بينما يعلن عمر التلمسانى [عندما أصبح مرشداً عاماً]...«كان الاتفاق الاول بين الضباط الاحرار وبين الاخوان المسلمين أنه فى حالة نجاح الحركه أن يطبق شرع الله فى حكم هذا البلد.. ولكن ما أن إستقر الحكم لجمال عبد الناصر حتى تنكر للاخوان»(٣)

- وحتى الحزب الوطنى الديمقراطى (الحاكم). والذي أسسه الرئيس الراحل أنور السادات إختار برغم ما هو منسوب إليه من تحد لتجربة عبد الناصر، أن يخوض معركه إنتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤.

---

(١) جريدة الشعب - القاهرة - ١٣ - ٣ - ١٩٨٤.

(٢) مجلة روز اليوسف - القاهرة - ٢١ - ٥ - ١٩٨٤.

(٣) مجلة الطليعة - القاهره - مقال لعمر التلمسانى بعنوان «٢٣ يوليو ليست ثورة» عدد اكتوبر ١٩٨٤

ببرنامج إنتخابى يقول فيه أنه هو «التعبير الحى عن الالتزام بتطبيق مبادئ يوليو من أجل الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية وتأصيل الديمقراطية»[٤]

– وكذلك نجد أن حزب الوفد الجديد يحرص وبعد أن يطبع برنامجه العام [الأول] أن يضيف إلى الكتيب ورقه منفصله معنونه «إستدارك» تؤكد «أن المؤسسين لحزب الوفد الجديد يعلنون تمسكهم بالقيم والمبادئ والمفاهيم التى إستقرت فى ضمير الشعب، ومبادئ ٢٣ يوليو السته، وثوره ١٥ مايو الاشتراكية الديمقراطية»[٥].ولعل هذا الاستدراك كان مفروضاً بنص فى قانون الاحزاب . فأراد الحزب وضعه منفصلا ليسهل التخلص منه فيما بعد.

– وحزب الاحرار «الاشتراكيين» كان يقرر فى برنامجه انه الامتداد الطبيعى لثوره يوليو[٦].

محاولة واحدة تستحق التأمل هى تلك التى أقدم عليها حزب المستقبل – تحت التأسيس– [الذى حاول تأسيسه الشهيد فرج فوده بعد

---

(٤) الحزب الوطنى الديمقراطى – البرنامج الانتخابى – ١٩٨٤.

(٥) برنامج حزب الوفد الجديد – ورقة مفصلة مضافة إلى الكتيب معنونه «استدراك»

(٦) حزب الاحرار الاشتراكين – البرنامج العام.

أن إنسحب من حزب الوفد إحتجاجا على تحالفه الانتخابي مع جماعة الاخوان، ولكنه وبرغم محاولات عدة لم يحصل علي ترخيص بقيام الحزب]

إذ أعلن فى برنامجه ان الناصريه «أصبحت تنتسب للتاريخ، وكانت فى عصرها إفرازاً طبيعياً لقضايا حقيقية فى المجتمع، وإن التطبيق الأعمى لأى فكر أو تجربة سابقه إنما يمثل حجراً على المستقبل من أجل إنتماء عاطفى لماضٍ لن تتكرر ملابساته أو ظروفه»(٧).

ولعل ما سبق من أمثله يشير إلى محاولات لتنازع ميراث ثورة يوليو. والورثة الادعياء أكثر بكثير من الورثة الحقيقيين، وربما كان ذلك بذاته تعبيراً عن مكانة ثورة يوليو فى الوجدان المصرى، أو لعله كان تعبيراً عن تعددية زوايا الرؤية لحدث تاريخى هام.. بل وشديد الاهمية فى تاريخ مصر الحديث.

* * *

ولابد أن يثور سؤال شديد الإلحاح حول ماهية الناصرية؟ فإذا كان فعل «الثورة» قد حدث خلال الساعات الأولى ليوم ٢٣ يوليو فماذا عن الأيام التاليه الممتدة منذ هذا اليوم وحتى يوم رحيل الزعيم؟ هل هو إمتداد لفعل «الثورة». أم إملاء جديد من جانب الزعيم الذى سرعان ما إنفرد بالسلطة مستبعداً العديدمن الشركاء فى عملية الفعل هذه.. بل

---

(٧) برنامج حزب المستقبل - تحت التأسيس.

الشركاء فى التنظيم والاعداد والتحضير والتنفيذ؟. هذا سؤال . أما السؤال الأخر فهو حول كيفية تصنيف «الناصرية» بعد أن نمايز بينها وبين ماكان من عمليات وترتيبيات عملية وتنظيمية ليله ٢٣يوليو وماقبلها ؟ هل هى ممارسة؟ أم نظرية؟ أم أسلوب حكم؟ أم هذا كله؟.

هذا التساؤل يثير كثيراً من الجدل الذى يجعل الباحث مغرماً بأن يدور حوله قبل أن يخترقه ليفهمه. فالميراث الناصرى فكرى وعملى. هذا هو التقسيم الاول. لكن هذه التقسيمة ليست مجرد إستدراج إجبارى لنا كى نناقش ماهية فكر عبد الناصر، وماهية الممارسة العملية وإنعكاسات كل منهماعلى الآخر.

فاذا كانت التجربة العملية مندرجه عبر خطوات تصاعدية وتنازلية معا. فهل يتشكل هذا الميراث - ببساطة - من مجموعة متجاورة من خطوات وإجراءات ومواقف؟ ثم ماذا لو إزداد الأمر تعقيداً فوجدنا أن الممارسات كانت تنقسم فى آن واحد، وعبر نسيج بالغ التعقيد إلى إجراءات تتصاعد إيجابياتها، وأخرى تتميز بالسلبيه . وإلى ممارسات تتوافق، وأخرى تتناقض مع النسق العام للتجربة.

ثم ما هو المغزى العلمى لانعكاس النسق العملى العام علي النسق الفكرى للتجربه. وما هى الحدود الذي تمكن هذا النسق الفكرى من أن ينمو ويتخلق ليصل اليها ؟..

عندما نصل إلى هذه الاسئلة التى تفرض نفسها علينا نجد أن هناك إختلافات فى تحديد ماهى الممارسة وما هى النظرية، وأن هناك -

أحياناً - محاولات لتبسيط أو تسطيح هذا الفهم.

ونبدأ بكلمات عبد الناصر..

«فرضت علينا ظروفنا أن يسبق تطبيقنا الثورى النظرية، ولكن ما هى النظرية ، إنها دليل العمل؟ الذى هو الممارسة ودراسة المشكلات التى يواجهها المجتمع»[٨]

ويزيد عبد الناصر الامر تبسيطاً.. فيقول فى نفس الخطاب «بيقولوا يا جمال إعمل لنا نظرية.. إنتم إللى عليكم تعملوا النظرية، المثقفين هم اللى عليهم يعملوا النظرية. يوم ما ألاقى كتاب طالع عن الاقتصاد بتاعنا، والتجربة بتاعتنا، أو إيه إللى يجب يحصل فيها أشعر إن هذا الكتاب هو جزء كبير من النظرية».

ولعلنا إذ نرفض هذه الفكره المبسطة للغايه عن كيفية تخليق نظرية للعمل الثورى من إطار عملية «ممارسة» ثورية فاننا قد نقر عبد الناصر فى حدود ظروفه، وتجربة تنظيم الضباط الاحرار عندما يقول فى نفس الخطاب «ناس كتير بيقولوا ماعندناش نظرية. فين النظرية اللى إحنا ماشيين عليها؟. أنا بأسأل إيه هى النظرية؟ أنا بأقول إنى ماكنش

---

(٨) جمال عبد الناصر - الخطاب الافتتاحى للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية (٢٥-١١-١٩٦١).

مطلوب منى أن أبدأ فى يوم ٢٣ يوليو إنى أطلع معايا كتاب مطبوع وأقول ان هذا الكتاب هو النظرية، مستحيل، فلو كنا قعدنا نعمل الكتاب ده قبل ٢٣ يوليو ماكناش عملنا الثوره» وهذا طبيعى لأسباب عديدة لعل أهمها هو اختلاف المشارب الفكرية والطبقية والسياسية للضباط الاحرار.

وهذه الفقرة من خطاب عبد الناصر صحيحة. ليس فقط لاستحالة إبتداع الفكرة دون أدنى ممارسة - في واقع متميز بتعقيد خاص - وإنما أيضا لسبب يشير إليه الباحث السوفيتى «أ. أجارشيف..» «لم يسعف الوقت الضباط الاحرار فى فترة الاعداد للقيام بالثورة لتطوير وجهات نظرهم السياسية وبلوغ تصور محدد للمجتمع الذى ينشدونه، كان بعضهم متعاطفاً مع الاخوان المسلمين، بينما يميل البعض الآخر إلى الماركسيين، اما الغالبية ومنها عبد الناصر فكانت تعتبر نفسها من ذوى الانتماء الوطنى العام»[(٩)]

ويعيد محمود أمين العالم التأكيد علي نفس الفكرة «كان مجلس قيادة الثورة يشكل تحالفاً بين جبهات ثلاث الشيوعيين (منظمه الحركه الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو) والاخوان المسلمون.. ثم كتله الوسط التي يمثلها عبد الناصر وصحبه، ولكن سرعان ما تحقق الاستقطاب لصالح كتله الوسط عام ١٩٥٤ »[(١٠)]

---

(٩) أ.أجارشيف - جمال عبد الناصر - دار التقدم - موسكو - الطبعة العربية - ١٩٨٣ ص٩.

(١٠) محمود أمين العالم- دراسة ضمن كتاب معنون «٢٣ يوليو، خمسة أبعاد - بقلم كمال رفعت وآخرون - دار القدس - بيروت ١٩٧٤ ص٣٣.

.. كانت منظمة الضباط الاحرار إذن تعبيراً جبهوياً بين قوى سياسية متمايزة لم يكن بإمكانها أن تتوافق على ما هو أكثر من الخطوط الوطنية والديمقراطية والاجتماعية الشديدة العمومية. ولو حاولت الانحياز إلى موقف ما خارج إطار هذه العمومية لإنفرط عقد التحالف..

يبقى أن نتأمل عبارة لواحد من الذين صاحبوا عبد الناصر عن قرب شديد، سواء فى إطار تنظيم الضباط، أو إطار ممارساته كحاكم فى الأيام الأولى لحكمه.. يقول أحمد لطفى واكد «أن عبد الناصر لم يكن ينتمى إلى اليمين الاخوانى ولا الى اليسار الماركسى، كان موقعه أقرب إلى الوسط الليبرالى .. ولقد كان عبد الناصر من الذكاء واللباقة بحيث جعل اليمين يضع فيه أملا، واليسار يضع فيه أملا، ولا يتورط هو بأى التزام»[11]

ولكن يطل علينا من نوافذ هذه العبارة سؤال موجع: هل كان عبد الناصر ليبراليا؟ أم برجماتيا؟ أم شيئاً آخر؟

على أيه حال يتعين علينا أن نتوقف لنسأل أنفسنا عن حجم الثمرة الفكرية التى نبتت من خضم هذه الممارسات المتماوجة والمتعددة الأوجه، والمتأججة بالفعل الحماسى ورد الفعل الحماسى أيضا.. وأيضا عن مدى نضج هذه الثمرة؟

يقول أحد الباحثين «لقد أفرزت الممارسة العملية ومواجهة

---

١١ - المرجع السابق - ص٩٠

المشكلات اليومية التى واجهت العمل الثورى صياغة إختلفت وتمايزت عن كثير من الصياغات النظرية التى تضمنتها أيديولوجيات ونظريات سياسية أخرى»[١٢].

بينما ينكر سياسي غربى أى محتوى نظرى للتطور العملى الذى طرأ على مسلك عبد الناصر عقب فترة ممارساته الاولى فأنتونى ناتنج يؤكد أن «التطور الذى أحدثه عبد الناصر فى الطريق إلى الاشتراكية كان مجرد عملية برجماتية في جوهرها، قامت إلى حد كبير علي رد الفعل لانهيار الوحدة مع سوريا ودون دافع أيديولوجى يذكر»[١٣]

بينما يؤكد أحد قادة يوليو - كمال رفعت.. «كانت ثورة يوليو تتميز بعقلية «ثورية» وتتميز بمنطق «ثورى» وتتميز بأسلوب، «ثورى». ثم يجد ذلك - بحد ذاته - كافيا ليؤكد «وتتميز - من ثم - بنظرية ثورية»[١٤].

ولسنا نعتقد ان ثورية العقلية أو ثورية المنطق، أو ثورية أى شئ تكفى بذاتها لصنع نظرية أيا كانت طبيعة هذه النظرية.

---

١٢ - محمد السعيد ادريس - عبد الناصر وما بعد - مجموعة دراسات - كتاب قضايا عربية إشراف أنيس صايغ - المؤسسه العربية للدراسات والنشر - بيروت - (١٩٨٠)ص١٠٩.

١٣- أنتونى ناتنج - ناصر - ترجمة شاكر ابراهيم سعيد - مكتبة الهلال - بيروت - ١٩٨٥ - ص٣٤٤.

١٤ -كمال رفعت وآخرون - المرجع السابق - ص٩

لكن الميثاق الوطنى يحاول أن يحل الاشكال بعباره تبدو فيها الرغبة في التوفيق «إن التجربة الوطنيةلا تفترض مقدما تخطئه جميع النظريات السابقة عليها، أو تقطع برفض الحلول التى توصل إليها غيرها. فإن ذلك تعصب لانقدر أن نتحمل تبعاته، خصوصا وإن إرادة التغيير الاجتماعى فى بداية ممارستها لمسئولياتها تجتاز فترة أشبه بالمراهقة الفكرية تحتاج خلالها إلى كل زاد فكرى. لكنها في حاجة إلى أن تهضم كل زاد تحصل عليه. وأن تمزجه بالعصارات الناتجة من خلاياها الحية، إنها تحتاج إلى معرفة بما يجرى حولها، ولكن حاجتها الكبرى هى إلى ممارسة الحياة على أرضها».[١٥]. لكن عبارة كهذه، ورغم ما تتضمنه من تواضع لم نعتد عليه فى مطالعاتنا للأدبيات والممارسات الناصرية . لاتقدم لنا حلاً كافياً. فالعبارة - وهى على حق تماما - تتحدث عن المعرفة بالأفكار الأخرى - وهى معرفة إنتقائية بالضرورة . وعن المعرفه بالواقع، وهما مكونان أساسيان، أو المكونان الاساسيان، لأى محتوى نظرى. لكن مجرد هذه المعرفه وتلك ومزجهما معا لا يولد تلقائياً فكراً نظرياً. إنه يقدم المادة الخام التى يمكن تصنيع المحتوى النظرى منها .. وهو ما فعله الميثاق. لكن الأمر كان بحاجة إلى خطوة أخرى هى الحاسمة. هذه الخطوة لم تتحقق لأن إعداد محتوى نظرى يحتاج إلى حاله من الاستقلال النسبى عن الممارسة اليومية لزعيم كعبد الناصر كان يستفنذ وقته وطاقته فى الامساك بكل خيوط

---

(١٥) الميثاق الوطنى - هيئة الاستعلامات المصريه - القاهره

المجتمع المصرى وتصريف كل شئونه. ويفرض فى ذات الوقت حالة من الاحتواء لكل شئ، بحيث يمتنع على أى مفكر أومجتهد أن يحاول .. أو أن يفكر أو يبدع أو أن يقول دون إذن ، أو حتى تكليف بذلك.. فلقد.. (أقول لقد) تفلت كلمة أو رأى أو فكرة تستدعى عقاباً صارماً كانت نذره تحلق دوماً فوق رؤوس الجميع.

باختصار، كان إفتقاد الليبراليه، وحرية الفكر، وحريه الابداع حاجز أمواج يمنع أيه محاولة جادة للتأصيل النظرى، بينما تدفقت كتابات يسودها النفاق، وتكرار ما يقوله الزعيم.

باختصار مرة أخرى لاإبداع نظرى .. دون ديمقراطية.

وهكذا يمكن القول أن إفتقاد الديمقراطية قد أدى إلى توقف الثمرة الفكرية المستقاة من ممارسات حكم عبد الناصر.

فاذا ما إتفقنا على أن «النظرية هى نسق من المعرفة المعممة وتفسير للجوانب المختلفه للواقع»[١٦]

وعلى أن «المذهب هو تنظيم المعرفه وتجميعها في كل موحد»[١٧]

إذا ما تواقفنا على هذين التعريفين أمكن القول بأن تجربة عبد الناصر العملية لم يمكنها أن تفرز نسقاً نظرياً ولا مذهبياً يمكن إخضاعه للتحليل أو للمقارنه بغيره من النظريات والمذاهب.

---

(١٦) م. روزنتال، ب. يودين - الموسوعة الفلسفية- ترجمة سمير كرم - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٤ ص ٣١٢

(١٧) د. مراد وهبه وآخرون - المعجم الفلسفى - جـ ٢ - دار الثقافة الجديدة -القاهرة ١٩٧١ ص٢١٢.

والوثيقة المعتمدة من عبد الناصر وهى الميثاق الوطنى هى فى أحسن الافتراضات برنامج سياسى عام وهذا ما يؤكده الميثاق نفسه إذ يقرر فى مقدمته «ان هذا الشعب المعلم راح أولا يطور المبادئ الستة ويحركها بالتجربة والممارسة والتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثراً به وتأثيراً فيه نحو برنامج تفصيلى يفتح طريق الثورة إلى أهدافها اللامتناهيه» (١٨)

بل هو كما أكد عبد الناصر نفسه برنامج مرحلى يتعين إعادة النظر فيه بعد فترة حددها بثمانى سنوات ولقد إنتهى هذا الوقت، ومضى زمن طويل، ولم يفكر أحد تفكيراً جاداً فى إعاده طرح هذه الوثيقه / البرنامج للفحص الانتقادى بهدف ملاءمتها مع ما هو جديد فى الواقع، الامر الذى دفع البعض إلى إعتباره مجرد وثيقة تاريخية يصبح اللجوء إليها لتطبيق نصوصها كمحاوله لاستخدام دواء إنتهت مدة صلاحيته.

ولأن عبد الناصر لم يحاول أن يقدم إستخلاصات نظرية، فإنه ترك ذلك لمحاولتين تناقضتا مع بعضهما البعض إلى درجه التضاد الظاهر.. فمن جانب - وبشكل عملى أيضاً - أطلق عمليه التثقيف والتخليق الثقافى والفكرى وباتجاه متقدم للغايه فى إطار منظمه الشباب الاشتراكى وفى إطار المعهد العالى للدراسات الاشتراكيه (لكوادر الاتحاد الاشتراكى - والتنظيم الطليعى المتواجد داخله) ومن

---

١٨ - الميثاق الوطنى - المرجع السابق - ص٨

جانب آخر منح الفرصة لاساتذة ذوى فكر محافظ تماماً كى يقدموا المعادل .. الذي إعتادت التجربة الناصرية على أستخدامه لموازنه أى توجه يسارى .. فقدم هؤلاء المحافظون تصفيقاً لفكر وممارسات الزعيم ولكن بنغمات وتوجهات يمينية تماماً.. وهكذا ظلت عمليه التخليق النظرى «محلك سر»[١٩].

ثم أن هذا الجيل من الشباب الذين جرت محاولة تكوينهم فكريا فى منظمة الشباب او المعهد الاشتراكى مالبثوا أن تعرضوا للقصف بعد رحيل عبد الناصر، وما لبث أكثرهم أن إرتدوا رداء الساداتيه ناسين أو متناسين كل ما كان. فالفاصل الزمنى بين مرحله عدم الاهتمام بالفكر، ومرحله الاعداد الفكرى كان قصيراً وغير كاف لانضاج مفكرين يمكنهم إبداع ما يمكن أن يحقق ولو فيما بعد إرهاصات نظرية.

والنتيجة أن البعض - وإستناداً - إلى ما سبق وغيره، يتبنى فكرة سهلة تصف الشق الفكرى من تجربه عبد الناصر - وبأكمله - بالانتقائية والتجريبية ومسميات أخرى يمكن العثور علي الكثير منها فى كنز اللغه العربيه اللامتناهى.

لكن ذلك مجرد قفز إلى نتيجة سهله يرفضها باحث جاد كمحمود

---

١٩ - لمزيد من التأكيد على هذه الملاحظة راجع تقرير لجنه الميثاق المسماة لجنة المائه. وأيضا كتابات د. طلعت عيسى. نظرية الاشتراكية العربية -١٩٦٥ و د. صلاح مخيمر - النظرة العلمية للاشتراكية - . رفعت المحجوب . النظام الاشتراكى فى الجمهوريه العربية المتحدة - دار الطليعه بيروت (١٩٦٧). وكتابات أخرى كثيره.

العـالم الذى يقـرر «انه من الخطأ أن ننظر إلى التـجربـة الناصـرية نظرة سكونيـة ثابتـة جامـدة منذ بدايتـهـا إلى نهـايتـهـا، إذ سنجـد انهـا تتحرك بالممارسة والصراع فتغير بعض قياداتها وتعدل بعض إتجاهاتها، وينضج فكرها وسلوكها.. ومن الخطأ كذلك القول بأنها كانت بغير فكر نظرى أصلا (نلاحظ محاولة إيجاد مخرج باستخدام التركيب اللغوى فكر نظرى وليس نظرية).. ولكن من الخطأ كذلك القول بأنها ولدت منذ البداية ذات فلسفة نظرية مكتملة. وانما الأصح أن نقول انها كانت ذات برنامج عملي تختفى وراءه بعض المفاهيم النظرية العامة.. ولم تكن تجريبية خالصة، بل كانت تعتمد على تجربة المحاولة والخطأ فى إطار تحقيق هذه المبادئ والاهداف التى يتضمنها برنامجها النظرى والعملى»[٢٠].

ولعلنا وفى محاولة للتدقيق العلمى وليس لانصاف عبد الناصر نتساءل : «هل كان أمام عبد الناصر فى ظل ظروفه كشخص. وفى ظل ظروف مصر كوطن، وفى ظل ظروف العرب كافة، وظروف دول العالم الثالث كنسق جديد يتخذ سمات جديدة لم تكن كلها قد إكتشفت بعد ، ولم تتحدد بشكل علمى معالم حركة القوى الفاعلة فيها، فى ظل ظروف كهذه ماذا كان يمتلك الزعيم سوى التجربه والانتقاء، بل ان هذه الزعامه تتجلى قدراتها وإقتدارها فى التعلم من الواقع وفى الاستفادة من

---

(٢٠) كمال رفعت وآخرون - المرجع السابق - ص٣١

التـجـربة، وفـى تحـدى ممكنات الخطأ وهـى كـثـيـرة بالسـعى المخلص لتـصـحـيـحـهـا .خاصـة و إن الاعـتـمـاد الابتـدائى علي النتـائج العـمليـة وتقـيـمـيـهـا هو خطوة ضـرورية نـحـو رصـد التـجـارب، ثم الاسـتـنتـاج، والاستقرار والتحليل، فالصياغه العملية للنتائج المتولدة عن المقترحات، هى عمل إيجابى ومحمود »[٢١] لكن ذلك كله يعنى وفقط ان الاعمال التحضيريه لم تستكمل مسيرتها ولا نضجها لتصبح «نظرية» أو حتى محاوله لتخليق مكون نظرى.

ويذهب عبد الناصر .. ويبقى تراثه الفكرى المستمد من تجربة عملية باهرة.

ويبقى الواجب الملح وهوكيفية إستخلاص الواجبات العملية الحالة وفق النسق الفكرى الناصرى.

بل ويبقى واجب تطوير هذا النسق ليتواكب مع المعطيات الجديدة.

وليصبح قادراً على ان يتحول من مجرد تعبير فكرى عن «تجربة عبد الناصر» إلى تعبير عن «التجربة الناصريه» أى أن يتحول من مجرد «تراث» إلى فعل يومى وتفاعل حال ومستقبلى.

وهو مـا لم يحـدث .. ربما بسـبب عـدم وجـود حـملة للجنين الفكرى قـادرين على توليـد ممكن نظرى أو حـتى مـشـروع له. وربما لأن المناخ

---

(٢١) د. رفعت السعيد - دراسة بعنوان «ايها الناصريون ماذا تنتظرون؟» ضمن كتاب عبد الناصر وما بعد- المرجع السابق.

المتردى ليس ملائما لأستيفاء عملية توليد مكون فكرى يتماشى مع زمن.. وممارسات.. وتوازنات.. وإنجازات الزعيم، بحيث سيصبح الحديث فى إطارها لغواً وغير معبر عن الواقع الجديد المرير، وربما لأن أيه محاوله للتأسيس النظرى ستحتاج إلى ما يسبقها بالحتم من تقييم ما فات.. كل ما فات. وتقديم تفسير أو تحليل للأخطاء والممارسات .. وتفسير للانتكاسه التى أتت عبر الوريث الوحيد الذى آثره عبد الناصر علي غيره من الورثة.

أم أن الأمر لم يعد ضرورياً؟ فليس شرطاً أن يلتزم كل حزب أو كل تيار بنظرية. يكفى الحزب والعمل اليومى والجريدة والبرنامج السياسى. وهذا ليس عيبا على الاطلاق.

* * *

.. **ثم** نفحص الشق الآخر من الميراث:

الممارسة

ويمكن ان نلقى الضوء عليها عبر ثلاث مسارات رئيسية

- المعركة الوطنية.
- التطور الاجتماعى.
- مؤسسات وأساليب الحكم الناصرى.

لكننا نخطئ لو وضعنا فواصل حاسمة بين كل من هذه المسارات. فهل يمكن مثلا تصور عمليه التطور الاجتماعى بعيداً عن المعركة الضارية ضد الاحتلال البريطانى والامبريالية الامريكية والصهيونيه؟ لست أعتقد ذلك.

يقول أجارشيف «ان خبرات البلدان النامية تؤكد أن الوطنيين الحقيقيين الشرفاء الذين يؤمنون بفكرة القومية يتفهمون إن آجلا أو عاجلا ضرورة تحديد موقفهم من طبقات الكادحين، وتوضيح موقفهم الايديولوجى»[٢٢]

ويقول الاكاديميان السوفيتيان بيلياييف وبريماكوف« إن أيديولوجيه عبد الناصر كرجل دولة وسياسى، هى أيديولوجية ممثلي الفئات الاجتماعية المتوسطة الذين صاروا إنطلاقا من المواقف الوطنية المبدئية يقتربون تدريجيا من الاشتراكية العلمية»[٢٣]

كان هذا هوالمنطق السوفيتى [الصديق]. أما المنطق الغربى [المعادى] فكان يعتبر أن التوجه الاجتماعى لعبد الناصر هو مجرد ثمرة لتقاربه مع السوفييت، أو هو الثمن الذى يدفعه مقابل ما تلقى من مساعدات سوفيتية.

.. والآن لنبدأ بالمسار الاول..

• عبد الناصر فى مواجهة الاستعمار والصهيونيه.

ولست أعتقد أننا بحاجة هنا إلى إثباتات أو أدله.. فالأمر واضح، ولقد كان واضحاً منذ أن إختارت سلطة يوليو إسم «التحرير» لاول مجله تصدرها، وحتى تلك الحمله «الساذجة» التى قادها أول ضابط تولى

---

٢٢ - أجارشيف - المرجع السابق - ص٨٨

٢٣ - نقلا عن المرجع السابق - ص١٠

منصب وزير الارشاد القومى (صلاح سالم) حيث ملأ سماء الاعلام المصرى بالاحرف «أ.م.ب» ثم وبين دهشة الجميع أعلن تفسير اللغز وهوأنها الأحرف الأولى من عبارة «إخرجوا من بلادنا».

ثم عملية الكفاح المسلح التى إقترنت بعمليه التفاوض الصعب فى عام ١٩٥٣ صعوداً حتى الحملة الاعلامية ضد حلف بغداد ثم باندونج، وتأميم القنال، ثم حرب السويس والتمصير.. الخ.

والحقيقه انه يندر أن يوجد زعيم عربى خاض معركته ضد الاستعمار والامبريالية بكل هذا القدر من الحماس والفعالية .. وكل هذا الاصرار والتواصل.

كذلك يندر ان نجد زعيماً إستحوذ على كل هذا القدر من التأييد الشعبى والجماهيرى خلال وقفته ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية.. فمن خلال المعركة ضد الاستعمارتكونت «كاريزما» عبد الناصر، والتى كانت شديدة التأثير، ولم تزل..

يقول باتريك سيل «أصبحت صورة عبد الناصر فى أذهان الجماهير العربية محببة أكثر فأكثر منذ إعلانه الحرب بلا هوادة ضد الاستعمار وحلف بغداد فى الاعوام ٥٣ - ١٩٥٥»[٢٤]

.. ويؤكد باحث آخر نفس الفكرة قائلا:«ومع ذلك كان على عبد

---

24 - patric seale - The Struggle for syria - London - oxford Universty press - 1965 -p 196 .

الناصر أن ينتظر حتى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كى يتمم عبوره التاريخى إلى الصورة الكاريزماتية الخاصة به ، ففى ذلك اليوم أعلن عبد الناصر تأميم الشركة البحرية العالمية لقناة السويس ... وهكذا لم يؤد تأميم القناه إلى إدخال عبد الناصر فى عقول غالبية الجماهير المصرية والعربية فحسب، بل وأدخله فى قلوبهم أيضا.. والواقع انه قد تم رسم الخط الفاصل بين عبد الناصر الرجل القوى فى الانقلاب العسكرى، وبين عبد الناصر الزعيم المستحوذ على محبة جماهير واسعة فى انحاء كثيرة من العالم مع نهاية عام ١٩٥٦ وبداية عام ١٩٥٧ »[٢٥]

ولقد تميزت معركة عبد الناصر ضد الاستعمار ليس فقط بإستمراريتها وإنما أيضا بشموليتها. فقد إتخذت بعداً عالمياً، وتبدى الأمر وكأن ناصر يلاحق كل أشكال الاستعمار فى كل أنحاء العالم. ففى إفريقيا كانت المخابرات المصريه سنداً لحركات التحرر الوطنى، وكان بيت أفريقيا فى شارع احمد حشمت بالزمالك مركزاً لحركات التحرر الوطنى الافريقية على إختلاف إتجاهاتها . وأصبح عبد الناصر زعيماً أفريقياً، وإمتدت الكاريزما الناصرية حتى أعمق أدغال أفريقيا، وحتى فى امريكا اللاتينية وجدت بصمات ناصرية حاولت ملاحقة النفوذ الاستعمارى هناك.. ولعل هذا قدمنح النفوذ الناصرى عند أصدقائه وأعدائه على نطاق العالم بعداً خاصاً، وعمقاً خاصاً، وأهمية

٢٥- د. اسعد عبد الرحمن - الناصريه - البيروقراطية والثوره فى تجربه البناء الداخلى .مؤسسة الابحاث العربية - بيروت - الطبعة الثانيه - (١٩٨١) ص٥٩.

خاصة..ومن الضرورى كذلك أن نشير إلى أن عبد الناصر لم يكن فقط زعيماً مناهضاً للاستعمار بشكل راديكالى وحاسم، لكنه كان من الذكاء بحيث أتقن فن الاستفادة من معركته هذه.. سواء علي الصعيد الدولى أو العربى أو المحلى أو حتى فى صراعاته مع خصومه المحليين.. فقد أتقن عبد الناصر فن إستخدام «الكاريزما» وتطويرها بعد أن تعرف علي مصدرها.. «لم يعد عبد الناصر مع نهاية عام ١٩٥٦ مجرد رجل قوى ضمن رجال الانقلاب إذ كان قد أصبح زعيماً كاريزماتياً قوياً وكان لهذا التطور نتائج حاسمة على مجمل بناء القوة بشكل عام، وعلى عملية صنع القرار بشكل خاص كذلك فإن عبد الناصر قد إستثمر دوماً مصدر قوته الجديد هذا، ووظفه فى خدمة تعزيز مكانته، ليس فى مواجهة خصومه وأعدائه فحسب بل وفى علاقاته مع زملائه أيضا.. وهكذا لم يعد عبد الناصر الأول بين متساوين بل الأول دون مساوين».(٢٦)

.. لكن عبد الناصر لم يكن من ذلك النوع من السياسين الذى يتخذ موقفاً أحادى الجانب تاركاً بقية الفرص..

ففى الوقت الذى خاض فيه المعركة ضد الاستعمار، وكان من الضرورى - تبعا لذلك ان يطور علاقات إيجابيه مع الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى- فقد ظل راغبا وحريصا بل وناجحاً فى الابقاء

٢٦ - المرجع السابق - ص٦٩.

على «علاقه ما» مع أمريكا.. والغرب.

ولعله كان هو نفسه صاحب الايحاء الذى طالما تحدث عنه الكتاب الغربيون والقائل بأن أمريكا «كانت سعيدة به وراضية عنه ليس فقط لانه غير شيوعى وانما لانه أفضل حاجز ضد الشيوعيه فى الشرق الاوسط»(٢٧).

ويحاول الكتاب الغربيون التأكيد وبتفاصيل متعددة - قد يكون بعضها صحيحاً - على هذه المسألة، ولعل أبرز هؤلاء المحاولين أنتونى ناتنج الذى يؤكد أن «لعبه عبد الناصر هذه إنما كانت مستقاة من دروس هذا البهلوان الدبلوماسى البارع تيتو» بل ويؤكد «انه بينما كان الفنيون المصريون فى تشيكوسلوفاكيا للتدريب علي السلاح الجديد، ظل عبد الناصر ممسكا بمسودة إتفاقيه التسليح مؤكداً للمحلق الجوى الامريكى انه لم يوقع عليها بعد، وانها قد تظل على مكتبه حتى يستنفذ كل أمل فى الحصول من الغرب على الاسلحة»(٢٨)

بل إن ناتينج يلمح إلى أن عبد الناصر قد تلاعب بتشكيل حكوماته

---

27) peter Mansfield - Nasser's Egypt - penjuin African Library (1969) -pp100

(٢٨) أنتونى ناتينج - المرجع السابق - ص١٥٢، ص١٣٦.

كجزء من قواعد هذه اللعبه.. «وفى عام ١٩٦٥ أصبح النقص فى القمح خطيراً، ومع ذلك وعندما تولى زكريا محيى الدين الذى كانت واشنطن تعتبره موالياً لامريكا رئاسة الوزراة خلفا لعلى صبرى فى اكتوبر ١٩٦٥، طرأ تساهل واضح فى موقف أمريكا تجاه مصر، وفى ٣٠ نوفمبر وافقت الولايات المتحده على تزويد مصر بشحنة أخرى من القمح قيمتها ٢٠ مليون جنيه»[٢٩]

لكننا نحذر من الشرك الذى يحاول كتاب الغرب أن يسوقوننا إليه.

إنهم يستخدمون بعض الحقائق مثل سياسة العداء للشيوعيه،و مثل سياسة الامساك بأكثر من خيط فى وقت واحد وهى مسائل يمكن تفهم بواعثها الطبقية والسياسية والشخصية محاولين إضفاء مسحة غير ثابتة بل وغير اخلاقية على معركة العداء للاستعمار.

ان هذه الظواهر يمكن تفهمها والوعى بها بل وحتى توقعها فى إطار الفهم الطبقى لطبيعة الفئات الاجتماعية التى إنتمى إليها عبد الناصر وظل متمسكا بانتمائه إليها، ويمكن تفهمها أيضا فى إطار سياسة ذات طابع برجماتى.

يقول بيليايف وبريماكوف وكانا متخصصان فى قضايا الشرق الاوسط مع إنحياز للتجربة الناصرية و«تتصف الفئات الاجتماعية

---

(٢٩) المرجع السابق – ص٤٢٢.

الوسطى - أيا كانت - بالمدى الواسع للتردد .. وبديهى أنه من الصعب إيجاد مثال أشد وضوحا على ذلك أكثر من حياة ونضال عبد الناصر».

ثم إنهما يلاحظان باهتمام ان هؤلاء «الديمقراطيين الثوريين [وكانت هذه تسميه إبتكرها السوفيت لتفسير ما عجزوا عن تفسيره حول التوجه الطبقى لناصر.. ناسين أن تجربة ناصر كان يمكن ووصفها بأى شئ إلا انها ديمقراطيه]. يخرجون إلى المسرح السياسى فى البلدان المتحررة فى وقت يكون فيه للبروليتاريا وجودها فى تلك البلدان، وهم يرون أحيانا فى منظمات الطبقة العاملة منافسهم السياسى، وفى ذلك يظهر بالطبع حقيقة المنشأ الطبقى لهؤلاء القادة»[٣٠]

إن تفهم هذه الظواهر ومتابعة تعرجاتها بل وإنتقادها شئ... ومحاولة طمس معالم معركة من أزهى معارك الشعوب ضد الاستعمار شئ آخر. لقد خاض عبد الناصر معركة حاسمة ومتواصلة ضد الاستعمار والامبريالية. ولقد ألحق بالامبريالية القديمة والجديدة معاً هزائم لا تنسى. ولقد شحن الجماهير العربية بشحنات من الرفض للامبريالية ومن الرفض لامريكا لم تزل - وبرغم مضى السنين - فاعلة ومؤثرة.

ولم يغفر الامريكيون ولن يغفروا لعبد الناصر أنه صاحب ومنظم

---

٣٠ - د. ايغور بيلياييف ،د.يفيجينى بريماكوف - مصر فى عهد عبد الناصر -أشرف على تعريبه عبد الرحمن الخميسى - دار الطليعه - بيروت - ١٩٧٥ - ص١٢٨.

وصانع واحدة من أعلى موجات العداء للامبريالية.. والتى لم تنحسر بعد.

وقبل أن ننتقل إلى المسار الآخر أعتقد أنه من المهم أن نتوقف أمام فقرة هامة من حديث لعبد الناصر فى إجتماع له مع الرئيس بود جورنى، ورئيس الاركان زاخاروف وقد عقد الاجتماع بالقاهره فى ٢٢ يونيو ١٩٦٧ [أى فى أعقاب الهزيمه المؤلمه].

.. «عبد الناصر: بشأن موضوع عدم الانحياز فأننا فى الحقيقة نعتبر منحازين فى الاصل.. ومن أجل ذلك تعرضنا للعدوان عام ١٩٥٦ ثم عام ١٩٦٧، كما سنتعرض لعدوان آخر طالما اننا نسير فى هذا الخط.

الامريكان يعرفون ذلك جيداً وكانوا عايزين نسير معهم، ولكننا رفضنا لاننا شفنا سياستهم مؤيده للاستعمار، إحنا عارفين ان الامريكان لن يتركونا، ولكن المهم بالنسبه لنا نشوف فين مصلحه بلدنا.

.. وبالنسبه للمستقبل أنا شايف إن أعداءنا دائما حيكونوا الامريكان، وكذلك هم أعداؤكم أيضا، لذلك علينا أن ننظم التعاون بيننا لانه من غير المنطقى أن أكون محايداً بين اللى بيضربنا واللى

---

(٣١) من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية - إعداد عبد المجيد فريد - مؤسسة الابحاث العربية - بيروت - ١٩٧٩ - ص٢٩.

بيساعدنا»[31]

ويبقى للتساؤل العميق حقيقة ما يختبئ خلف أحرف هذه العبارة البالغة الاهمية، والبالغة الدلالة. فهل كانت تعبيراً عن إحساس عميق بالغضب من المساعدة الأمريكية لاسرائيل؟ أم كانت تعبيراً عن إمتنان للسوفييت؟ أم إحساس عميق بالهزيمة؟ أم.. هى محاولة لاستدراج السوفييت نحو مزيد من تأييدة؟ أى هى تعبير عن ذات البرجماتيه التى إعتادها عبد الناصر؟

* * *

• التطور الاجتماعى:

لم يحتج الامر إلى تردد. فمنذ ما قبل ليله ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان عبد الناصر قد حسم أمره متخذاً موقفاً واضحاً ضد الاقطاع(*) وربط بينه وبين الاستعمار، وأكد انه لا يمكن توجيه الضربة ضد الاستعمار دون أن يسبقها تصفيه عملائه فى الداخل، وحددهم بشكل أساسى.. الاقطاع.

وفى ٩سبتمبر ١٩٥٢ أصدر قانون الاصلاح الزراعى الاول [ولعله

(*) لعله من الضرورى التحفظ على كلمه إقطاع حيث لم تشهد مصر ذات النمط من الاقطاع الاوربى، ولعله قد يكون من الاوفق إستخدام تعبير كبار الملاك العقاريين .لكن كلمه «إقطاع» تم تدوالها بمدلول سياسى.. وليس أمامنا سوى إيرادها كما هى أى كما إستخدمت فى الأدبيات المصريه مع التأكيد على تحفظنا إزاء إستخدامها.

من الملفت للنظر أن عبد الناصر كان يمارس وحتى فى أيامه الاولى سياسة التوازنات فلم يكن مصادفة أن يعدم خميس والبقرى يوم ٧ سبتمبر، ويصدر قانون الاصلاح الزراعى يوم ٩ من ذات الشهر] ومع الاصلاح الزراعى تصور عبد الناصر أن بامكانه أن يستند إلى «البرجوازية» التى تصور «نظرياً» أنها وبالقطع ضد الاقطاع، وانها سوف تنهض بعملية التنمية إستجابة لنداءاته ومساندة له فى موقفه ضد خصمها المفترس «الاقطاع».

لكن عبد الناصر كان يعتمد فى ذلك على رؤية مجردة لا تستند إلى دراسة متأنية لتاريخ نشأة الراسمالية المصرية على وجه التحديد..

ولسنا مؤهلين فى بحث مختصر كهذا أن نخوض تفاصيل هذه القصة البالغة التعقيد، والبالغة الاهمية أيضا، والتى بدون فهمها فهماً متأنياً يسود الارتباك وتختلط الاوراق عند محاوله تقديم أى تفسير للتطورات المتلاحقه فى العلاقة بين الرأسمالية وكبار الملاك العقاريين والعلاقه بين ثوة يوليو والرأسمالية..

لكننا سنقدم ملاحظات عاجلة للغاية..

* لم تشهد مصر ذات التطور الذى طرأ على الحرف والحرفيين فى أوربا. بل على العكس ومنذ منتصف القرن الثامن عشر توافدت الى مصر أفواج من الصناع والحرفيين الاوربيين لتقوم بعمليه تطوير الانتاج الحرفى وسد إحتياجات الاجانب والعناصر المتأجنبه والاثرياء

المصريين او الذين من أصول تركية (الذين كرسوا جزءا كبيراً من ثرواتهم للعيش بنمط أوربى أو متفرنج)[٣٢] كما إنتشرت سلسلة من المتاجر الاوربية النمط التى إستوردت كل متطلبات الرخاء والتمدن التى تطلع إليها أثرياء المصريين. بينما إنزوى الحرفيون القدامى أو بالدقه المصريون بحرفهم وأدواتهم البدائية فى الاحياء الشعبية لسد إحتياجات سكانها وهى بالطبع إحتياجات بدائية، ومحدودة وغير متعجله لعمليه التطوير. ومن البديهى أن من يقتصر إنتاجه على سد الحاجات البدائية للفقراء .. سيبقى فقيراً وعاجزاً عن التطور.[٣٣]

* وحتى فى التجارة إنقسمت السوق. حيث تمركزت فى قلب العاصمة سلسلة المتاجر الاجنبية التى لم تزل أسماؤها لامعه منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى الآن ، بينما إنزوى التجار المصريون.. العطارون والعقادون والحرايرية.. الخ في الاحياء الشعبية الفقيرة يلبون إحتياجات سوق الفقراء المحدود بطبيعته. وكان ميدان العتبة هو الحد الفاصل، بين سوق الفقراء (الموسكى ومايليه) وسوق

---

(٣٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه الملاحظة راجع: محمد المويلحى - حديث عيسى بن هشام - مكتبه الاسرة - القاهرة. [٢٠٠١]

(٣٣) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع.
- P.M. Holt - political and social change in modern Egypt. oxford University press - 1969 -p 142

- د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الاشتراكيه المصريه ١٩٠٠ - ١٩٢٥.

الاغنياء حيث المتاجر الاجنبية [سليم وسمعان صيدناوى الذى بنى على نمط المتجر الفرنسى الشهير لافييت، وهانو وداود عدس وريفولى.. الخ و كانوا جميعا أجانب. وتمترس التجار والسكان الاجانب فى مركز المدينة حتى ان محمد التابعى كتب متهكما مطالباً الحكومة بافتتاح سفارة مصرية فى حى وسط البلد].

* كان الفهم الاسلامى المتشدد يرفض حتى مطلع القرن العشرين فكرة المصارف - الفوائد - التأمين .. ويعتبرها رباً محرماً، وهو الأمر الذى وضع الامام محمد عبده حداً له بفتوى شهيرة أباحته. وبديهى أن أى نظام رأسمالى يستحيل عاجزاً عن أى نمو بدون نظام مصرفى وتأمينى فاعل ونشط.

* كان إزدهار الزراعه الناجم عن تحسين شبكات الرى والصرف وهى المهمة التى تابعها كرومر بنجاح باهر قد أدى إلى زيادة الريع الناجم عن عملية الاستغلال الزراعى.. بما حفز تراكمات أموال التجار وغيرهم إلى التوجه نحو إقتناء الارض التى كانت بذاتها مصدراً للمهابة الاجتماعية(٣٤)

* كانت البورصة هى مجال التعامل في المحصول الزراعى الرئيسى وهو القطن . مما دفع كبارالملاك إلى المضاربة بأقطانهم فى البورصة مقلدين بذلك المضاربين الرأسماليين الاوربيين ومستخدمين نفس

---

٣٤ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تاريخ الحركه الاشتراكيه المصريه ١٩٠٠ - ١٩٢٥

أساليبهم. ينتجون المحصول ككبار ملاك عقاريين ويبعيونه في البورصة التى هى شكل راق للتداول الرأسمالى.

* كانت هناك نهضة تجارية وصناعية لكنها كانت فى أغلبها - فى أيدى الاجانب..

ففى الفترة من ١٩٠٠ وحتى ١٩٠٧ أنشئت ١٦٠ شركه برأسمال قدره ٤٣ مليون جنيه. ثم تزايد رأس المال المستثمر إلى ...ر١٥٢ر١٠٠ جنيه. وكان ٩٢٪ منها رأسمال أجنبى و٨٪ فقط محلي (نلاحظ أن كلمه محلي لاتعنى مصري وانما قد تعنى - وهذا هوالاغلب - عناصر من المتمصرين أو الشوام أو الذين بلا جنسيه والذين توافدوا على مصر وأقاموا فيها بحرية لانهم كانوا رعية عثمانية).

* وحتى أعوام ١٩٣٤ - ١٩٣٦ كان نصيب الرأسماليين المصريين فى الشركات القائمه ٤٧٪ ونصيب الاجانب ٥٣٪.

* كان ٩٨٪ من المشتغلين فى البورصه من الاجانب.[٣٥]

وهكذا فان الرأسماليه المصريه التى تبلور انبعاثها الحقيقى بانشاء لجنه التجاره والصناعه المصريه عام ١٩١٧، ثم مع إنشاء بنك مصر فيما بعد.. لم تنشأ فى تناقض مع كبار الملاك العقاريين وإنما نشأت من

---

٣٥ - لمزيد من التفاصيل راجع المرجعين السابقين: HOlt ، د. رفعت السعيد.

رحمهم.. كما انها قد نمت علي وسادة أجنبية.

ولابد أن ذلك كله قد أثر على مواقفها، ولاشك انه هو الذى يفسر لنا الكثير من التعقيدات فى التركيبة الاجتماعية وفي المواقف السياسية لاحزاب كحزب الوفد والاحرار الدستوريين والسعديين ولمواقف الرأسمالية المصرية من كبار الملاك ولمواقفها من الاستعمار والاجانب.

ولابد أن ذلك كله قد غاب عن ذهن عبد الناصر إذ تصور فى ٩سبتمبر ١٩٥٢ أن توجيه ضربة «للاقطاع» سوف يفرز بذاته المزيد من الحماس الرأسمالي.. ولم يدرك عبد الناصر إلا متأخرا أن ٩سبتمبر قد باعد بينه وبين الرأسماليين، الأمر الذى وضع الاساس لعلمية التأميم فى عام ١٩٦١(*)

وعلى أيه حال .. لقد وجه عبد الناصر الضربه الاولى «للاقطاع» ثم مضى فى معركته ضد الاستعمار تلك المعركة التى قادته إلى «التمصير» أى توجيه الضربة إلى الرأسمالية الاجنبية.. ثم كانت التأميمات فى ١٩٦١.

لقد أحدث عبد الناصر ما هو أكثر من مجرد إجراءات إجتماعية.

(*) قد يبدو مثيراً للدهشة إجراء مقارنة بين قوائم أسماء الذين خضعوا لقانون الاصلاح الزراعى الاول (١٩٥٢) والذين خضعوا لقانون تأميم المؤسسات الصناعية والرأسمالية (١٩٦١) فالأسماء واحدة تقريبا.. فذات الاسر تقريبا كانت تمتلك أنشطة وأملاكا في المجالين والامثلة كثيرة: أحمد عبود باشا كان رأسمالياً إحتكارياً وكان مالكاً لأكثر من أربعة آلاف فدان، وأسرتى البدراوى عاشور وسراج الدين كانتا تمتلكان عشرات الآلاف من الافدنه وأسهمتا فى تأسيس أحد البنوك.

وإنما أدخل متغيراً على البنيه الاجتماعية المصرية.. ولقد تبدو الأرقام ذات دلاله أكبر من الكلمات:

المتغيرات فى بنيه الملكيه الزراعية بين عامى ١٩٥٢و١٩٦٥ (٣٦)

	١٩٥٢			١٩٦٥		
	المالكون بالالف	المساحه الف فدان	النسبه فدان لكل مالك	المالكون بالالف	المساحه الف فدان	النسبه فدان لكل مالك
اقل من خمسه افدنه	٢ر٦٤٢	٢ر١٢٢	٨ر٠	٣ر٠٣٢	٢ر٦٩٣	١ر٢
٥ افدانه إلى أقل من ١٠ افدنه	٧٦	٥٢٦	٦ر٦	٧٨	٦١٤	٧ر٩
١٠ افدنه إلى أقل من ٢٠ فدان	٤٧	٦٣٨	١٣ر٦	٤١	٥٢٧	١٢ر٨
٢٠ فدان إلى أقل من ٥٠ فدان	٢٢	٦٥٤	٢٩ر٧	٢٦	٨١٥	٢٨ر١
٥٠ فدان إلى أقل من ١٠٠ فدان	٦	٤٣٠	٧١ر٥	٦	٣٩٢	٦٥ر٣
١٠٠ فدان إلى أقل من ٢٠٠ فدان	٣	٤٣٧	٣٤٥ر٧	٤	٤٢١	١٠٠ر-

وأرقام أخرى فى مجال آخر ..

مقارنة بين العمالة ومتوسط الدخل بين عام ١٩٥٢ - وعام ٦٦ - ١٩٦٧ (٣٧)

	القوى العاملة (بالألف)		نصيبها من قوة العمل		متوسط الدخل السنوى	
	١٩٥٢	٦٦ -١٩٦٧	١٩٥٢	٦٦ -١٩٦٧	١٩٥٢	٦٦ -١٩٦٧
الموظفون	٣٢	٨٠	٠ر٤٥	٠ر٩٥	٣١٢	٤٥٠(٥٧٥)(*)
العمال	٢٥٠	٥١٧	٣ر٥٠	٦ر٠٨	٨٨	١٦٨(٢٠١)

(٣٦) ،(٣٧) - ٢٣ يوليو خمسه ابعاد - المرجع السابق - ص٤٥

(*) ما بين قوسين يتضمن الدخل مضافا إليه نصيب العاملين فى الارباح والتأمينات الاجتماعيه.

واذا كانت الارقام واضحة الدلالة فان كم الاجراءات التى كفلت المزيد من الحقوق للعاملين والتى عززت من موقعهم فى عملية الانتاج هى أيضا معلومة ولا تحتاج إلى حصر..

فقط نود أن نستطرد إلى ملاحظة هامه - وان بدت هامشية - فالكثيرون يرددون أن عبد الناصر كان يعطى.. ويعطى للعمال دون أن يطلب منه أحد ذلك، لكننا نطالع الفقرة التاليه في بحث أعده واحد ممن واكبوا حركة العمال في الحقبة الناصرية مواكبة لصيقة.. «وليس صحيحا ما يردده البعض من أن العمال قد منحوا المزايا التى كفلتها هذه القوانين (قوانين يوليو١٩٦١) بدون أن يكونوا قد طالبوا بها فبالرجوع إلى قرارات المؤتمرات النقابية السنوية لعمال النسيج والبترول نجد أن العمال قد طالبوا بالمشاركة في التخطيط وبالمشاركة فى الادارة وبالمشاركة فى «الارباح».[٣٨]

* * *

لكن البعض يحلو له أن يتذكر أو يقول بالنتائج العامة جداً للتجربة ناسياً أن التفاصيل تمثل فى أحيان كثيرة ملامح قد تغير من الصورة الاصلية.

فالميثاق مثلا ينص على أن يكفل للعمال والفلاحين الحق «فى نصف مقاعد التنظيمات الشعبيه والسياسية علي جميع مستوياتها، بما فيها المجلس النيابى بإعتبارهم أغلبية الشعب»[٣٩]

---

(٣٨) عبد المغنى سعيد - الحركه النقابيه، جذور النضال وأبعاد المستقبل - ص٨٠

ولم يحدث ذلك أبداً حتى فى أزهى العصور الناصريه، وفى أقصى إطلاق الشعارات إلي مداها الاقصى

ونقدم أمثله من بين حالات عديدة أخرى:

فاللجنة المركزية التى أسفرت عنها انتخابات الاتحاد الاشتراكى عقب صعود الشعارات إلى مداها فى أعقاب بيان ٣٠ مارس كانت مكونة من ١٥٠ عضواً،« ٢١ من امناء المحافظات جميعهم من غير العمال والفلاحين] ، ٢٤ وزيراً، وزيرين سابقين، ٧ أعضاء مجلس أمه، ٣ من كبار الموظفين، ٣ محامين، ٧ من رجال البحث العلمى، ٣ رؤساء مجلس إدارة، ٢ صحفى، ٢ مدرس ، ٢ عضو مجلس إدارة لنقابه مهنيه، ٥ مديرين بالاصلاح الزراعى» وبالتدقيق نكتشف أن نسبه العمال والفلاحين قليلة جداً. رغم ان الكثيرين كانوا يتشحون بصفة العمال والفلاحين دون ان يستحقوها، واذا ما تأملنا أسماء ومهن ممثلى «العمال والفلاحين» فى المؤتمر القومى العام الذى إنتخب ذات اللجنه المركزيه السابق الحديث عنها نجد منهم «وزير سابق، لواء سابق بالجيش، ٤ رؤساء مجالس إداره شركات، ٢٥ من مديرى وأساتذة الجامعات، أستاذ بمعهد عالٍ، ١١٧ موظفاً كتابياً ،ومحاسبين وصيادله، ٢٩ من رؤساء أقسام ووكلاء إدارات، ورؤساء حسابات، ٢ صحفى ، مخرج إذاعى،مأذون، جزار»[٤٠]

كل ذلك جاء فى أعقاب خطاب غاضب لعبد الناصر قال فيه «أنا

---

(٣٩) الميثاق - ص٤٦.

٤٠ - د. رفعت السعيد - كتابات عن الطبقة الوسطى المصريه - مجلة الطريق (لبنان) عدد ٤ (١٩٧٢) ص٤٨.

بأقول إذا أردنا لنسبه الخمسين فى الميه المكفوله بالميثاق للعمال والفلاحين أن تؤدى دورها في تحقيق التوازن بين قوى الشعب العاملة، ودفع التطور، فإنه لابد من مقياس جديد يكفل ذلك أكثر، فالتعريف الماضى سمح للكثيرين من كبار الزراع والملاك والرأسمالية الوطنيه والموظفين ان يدخلوا عن العمال والفلاحين. وأنا بحثت وفكرت ووصلت إلى شئ مبدئى»[٤١].

وبعد ١٥ يوما من التفكير قرر عبد الناصر تشكيل لجنة أسميت «لجنة الخمسين» أنيط بها وضع تعريف دقيق لمن هو العامل والفلاح [١٦ مايو ١٩٦٨]. لكن تشكيل هذه اللجنه كان ينبئ عن نتائجها «١٢ من حملة الدكتواره، ٥ وزراء سابقين [ليس فيهم عمال]، ٥ من رؤساء النقابات المهنيه، ١٧ عضواً فى النقابات المهنيه غير العماليه، طالب»[٤٢] وبقليل من معرفه الحساب يمكن معرفة نسبة العمال والفلاحين فيها.. وكانت طبيعيا أن تكون نتيجة التعريف الذى وضعته هو المؤتمر واللجنه المركزية اللذين تحدثنا عن تكوينهما فيما سبق.أما اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فلم يحدث أن إنضم إليها عامل واحد بأى تعريف كان، وفى إنتخابات هذه اللجنه عام ١٩٦٨ تجاسر رئيس الاتحاد العام للعمال ووكيل مجلس الامه فى ذلك الحين النقابي الاشهرمحمد فهيم فرشح نفسه. وصدرت تعليمات حاسمة

---

٤١ - جمال عبد الناصر - خطاب فى عيد العمال بكفر الدوار - مايو ١٩٦٨

4 2- R. Herir Dekmejian - Egypt Under Nasser - University of londan press - 1972. p.272

باسقاطه، وسقط.

* * *

.. وعلى ايه حال وبرغم كل السلبيات فان أحداً لا يجادل فى أهمية وكم وفعالية هذه الاجراءات الاجتماعية التى لم تزل وحتى الآن تلعب دورا فاعلا - وبرغم كل التراجعات - فى المحتوى الاجتماعى والسياسى والنضالى فى مصر.

لكننا نود أن نشير إلى أن هذه الاجراءات الاجتماعية قد أثمرت - ولعل من أهم ثمارها - عملية تخليق فئات إجتماعيه جديدة.

* عمال القطاع العام.

* فلاحو الاصلاح الزراعى.

* ثم ومع إرتفاع مستوى معيشة هاتين الفئتين، ومع مجانيه التعليم الجامعى أفرزت هاتان الفئتان فئة ثالثة لعبت ولم تزل تلعب دوراً هاماً.. وهى المثقفين من أبناء الفئتين السابقتين.

إن هذه الفئات الثلاث لعبت دوراً إجتماعياً وسياسياً هاماً ولعل عوامل الارتداد الحاليه تستهدف فيما تستهدف التصفية النهائية أو شبه النهائية لهذه الفئات الثلاث.

* * *

ثم نأتى إلى القضية التى أثارت أكبر قد من الجدل .. ولم تزل . وهى قضية مؤسسات وأساليب الحكم فى عهد عبد الناصر.

ولنتحدث عن ثلاثة مواقع أساسية: التشريع والحريات العامه -البيروقراطيه - المؤسسه السياسية..

التشريع والحريات العامة:

فيما قبل ١٩٥٢ أكد الضباط الاحرار إلتزامهم بالديمقراطية .. وبالدستور واذ نتصفح منشورات الضباط الاحرار - يمكننا ان نكتشف عبارات مثل:

«أيها الضباط .. إن حريتكم رهينة بحرية الشعب، فكافحوا من اجل الحريه فى كل مكان»..

ويختتم المنشور «تسقط الاحكام العرفية»[٤٣].

ومنشور آخر «منذ اكثر من شهرين تسود مصر موجة من الارهاب شملت كل شئ ، فالحرية الشخصية قد إنعدمت ، والصحافة الحرة قد صودرت، والمعتقلات قد فتحت أبوابها لتضم خيرة المناضلين الوطنيين من كل هيئة ولون»[٤٤].

أما البيان الاول للثورة فقد أعلن «اننا ننشد.. رفع لواء الدستور» وفى اليوم التالى لقيام الثوره أعلن قادتها فى بيان صدر باسم القيادة العامه «تعلن القياده للقوات المسلحة أن حركة الجيش التى بدأها وأعلنها حرباً على الفساد ، لابد ان تحقق هذا الغرض. وتعد الشعب

---

٤٣ - منشور صادر فى ٢٢ مارس ١٩٥٢ عن تنظيم الضباط الاحرار ومحفوظ فى أرشيف الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى حدتو.. وهى المنظمة التى كانت تتولى طبع منشورات الضباط الاحرار لفترة من الوقت [الارشيف محفوظ فى معهد الدراسات الاجتماعية - أمستردام].

٤٤ - للمزيد من نصوص منشورات الضباط الاحرار، راجع :د. راشد البراوى حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر - مكتبة النهضة - القاهرة - (١٩٥٢) - ص١٩٨ ومابعدها.

وعداً صريحاً قاطعاً أنه لن يقف عائق فى سبيل تحقيق حياة دستورية سليمة. ولقد تم الاتفاق مع رئيس الحكومة على أن تجرى الانتخابات فى شهر فبراير المقبل»

كان هذا يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢

وفي «فلسفة الثوره» كتب عبد الناصر يقول: «لو حاولت محاوله تلميذ مبتدئ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا فإننى« سوف أقول مثلا ان ثوره ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه»[٤٥] ولعله كان يقصد.. «أن يكون حكمه بأيدى ابن واحد من ابنائه»

ودون التوقف طويلا أما تفاصيل معروفة.. نرصد سلسلة من التواريخ.

* فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ صدر قرار يقول:

«أعلن باسم الشعب سقوط ذلك الدستور، وانه ليسعدنى أن أعلن فى نفس الوقت إلى بنى وطنى إن الحكومه آخذه فى تأليف لجنه تضع مشروع دستور جديد يقره الشعب».

(فقط نود ان نلاحظ أن أول إجراء يمس البنيه التشريعيه كان إسقاط الدستور بينما اعلان الجمهوريه مثلا تأخر حتى ١٨ يونيو ١٩٥٣).

* وفى ١٦ يناير ١٩٥٣

أصدر مجلس قياده الثوره قراراً بحل جميع الاحزاب السياسيه (ماعدا الاخوان المسلمين) وصادر أموالها وأعلن مرحلة انتقالية مدتها

---

٤٥ - جمال عبد الناصر . فلسفة الثوره - ص٨

ثلاث سنوات.

* وفى ٢٣ يناير ١٩٥٣:

إعلان عن قيام حزب وحيد هو هيئة التحرير شعاره «الاتحاد ،النظام ، العمل»

* وفى ١٠ فبراير ١٩٥٣:

صدر اعلان دستورى ينص: يتولي مجلس قيادة الثوره أعمال السيادة العليا ، ويتولى مجلس الوزراء السلطة التشريعية(!) ويتولي السلطة التنفيذية مجلس الوزراء والوزراء كل فيما يخصه».

ولسنا نريد ان نتحدث عن ذلك طويلا.. فقط نشير إلى ان السلطة قد تم إستجماعها فى قبضة واحدة، وان وعود الدستور والبرلمان قد تأجلت. وتجدر الاشاره - أيضا - ان لجنة الدستورالتى يبدو انها صدقت ما هو موكول لها قد إنهمكت طوال ثلاث سنوات فى إعداد مشروع الدستور المطلوب، وقدمته فعلا إلى مجلس الوزراء فى ١٧ يناير ١٩٥٥ ، ولكن قيادة الثورة قد رفضت مبدأ مناقشته بحجة «انه نيابى أكثر مما يجب»[(٤٦)]

ولعل من حقنا ان نتوقف لنسأل أنفسنا.. كم هو حجم السلطة الذى إستحوذ عليه عبد الناصر شخصياً بفضل هذه الترتيبات.

يرتاح البعض الى إختصار الامر كله بكلمه واحدة «كل شئ».. لكننى

---

٤٦ - لمزيد من التفاصيل راجع : د. عصمت سيف الدوله - هل كان عبد الناصر دكتاتورا؟ - دار المسيره، بيروت - ديسمبر ١٩٧٧.

حاولت جهدى ان أعثر على شئ مكتوب حتى وجدت وثيقة تحدد إختصاصات المشير عبد الحكيم عامر بصفته مشرفاً على الاقليم الشمالى (سوريا) فى دولة الوحدة.

لنتأمل حجم السلطة الممنوحة للمشير دون أن ننسى المسافه بين عبد الناصر.. وبين غيره من قادة يوليو. ففى ١١ - ١٠ - ١٩٥٩ أصدر عبد الناصر قراراً بندب المشير عبد الحكيم عامر للقيام بالاشراف على شئون الاقليم الشمالى نيابة عن الرئيس.. وتحددت مهامه كما يلى:

١ - يتولى الاشراف علي تنفيذ السياسة العامة.

٢ - يتولى تنظيم وإداره الحكم والاشراف على كل ما يتعلق بتنظيم المصالح والادارات والهيئات والمؤسسات العامه..

٣ - يشرف على تنظيم الاتحاد القومي فى الاقليم السورى.

وله فى سبيل ذلك:

أ - ان يصدر القرارات والأوامر التى تدخل فى إختصاص رئيس الجمهورية.

ب - ان يعتمد برامج المشروعات اللازمة ومتابعه تنفيذها.

جـ - ان ينظر فى توصيات [نلاحظ أنها مجرد توصيات] المجلس التنفيذى وفى مشروعات القوانين وان يعرضها على رئيس الجمهورية.(٤٧)

هذا الحجم من السلطه إنعكس أيضا علي الهيكل البيروقراطى فى

---

٤٧ - لمزيد من التفاصيل والوثائق راجع كلامن:

- محمد عبد المولى [وهو اسم سرى إتضح مؤخرا أن صاحبه هو أحمد صادق سعد] الانهيار الكبير - دار المسيره - بيروت - ١٩٧٧

- محمد حسنين هيكل - - ما الذى جرى فى سوريا - الدار القوميه - القاهرة - ١٩٦٢.

الحكم، وعلى أسلوب إتخاذ القرار، وعلى وحدانية إتخاذ القرار.. وقد حرص عبد الناصر على ان يحكم قبضته على الجهاز الحاكم بكل روافده مبرراً ذلك بقوله : انه بدون ذلك ما كان يمكن تخطى مؤامرات ومناورات الرجعية. بينما يرد البعض - ومنهم الشيوعيون - على ذلك بأن إسناد دور أكثر فعالية للجماهير فى حراسة منجزات الناصرية، وفى الرقابة على أجهزة الحكم، كان كفيلا بتحقيق ديمقراطية الاداة وفعاليتها معا، بل وتطورها أيضا بالاتجاه الصحيح.

* البيروقراطية:

وتتسم بيروقراطية عبد الناصر بتمركزها ومركزيتها وأيضا بموجة «العسكرة» التى إجتاحتها. فلقد حرص عبد الناصر علي أن يضرب عصفورين كبيرين وثمينين بحجر واحد.. أن يتخلص من كل رفاق السلاح القدامى، وكل الضباط الاحرار، وان يبعدهم خارج المؤسسة العسكرية ليمنع أيه أحتمالات لوجود فعل، أو ردود فعل سياسية داخل الجيش .. وأن يستخدمهم فى ذات الوقت في عملية للسيطرة على مجمل جهاز الحكم والادارة والانتاج..

ان الاحصاءات حول عملية «العسكرة» عديدة لكننا نكتفى بأن نقدم بعض ملامحها:

- نواب رئيس الجمهورية من ١٩٥٣ -١٩٧٠ كانوا ثمانيه . جميعا عسكريين.

- رؤساء الوزرات من ١٩٥٤ - ١٩٧٠ كانوا أربعة . جميعا عسكريين.

- نواب رئيس الوزراء من ١٩٦٤ - ١٩٧٠ كانوا ١٧ - منهم

عشره عسكريين.

- وزراء الداخلية من ١٩٥٣ - ١٩٧١ كانوا ٥ .أربعه ضباط جيش سابقين والخامس ضابط بوليس.

- وزراء الثقافه والارشاد من ١٩٥٣ - ١٩٧١ كانوا ٦ . منهم خمسه عسكريين.

- المحافظون الذين عينوا عند قيام الحكم المحلى فى ١٩٦٠ - كانوا ٢١ محافظا منهم ١٠ ضباط جيش - ٨ ضباط بوليس - ٣ مدنيين.

- كذلك فقد حدث تغيير شامل فى هيكل وزاره الخارجيه يوضحه الجدول التالى:

نسبة العسكريين إلى اجمالى عدد السفراء (٤٨)

السنه	النسبه
٦١ -١٩٦٢	٥١٪
٦٢ -١٩٦٣	٦٠٪
٦٣ -١٩٦٤	٦٨٪
٦٤ -١٩٦٥	٦٧٪
٦٥ - ١٩٦٦	٦٨٪

48 - R.DEKMEJIAN - IBID - P.273

وثمة إحصاء هام آخر.. فقد تولى الوزارة خلال الفترة الممتدة - من وزارة محمد نجيب الاولى [٧سبتمبر ١٩٥٤] وحتى التعديل الوزارى الذى أجراه عبد الناصر [٢٨ ١٩٦٨] ١٣١ وزيراً كانت نسبة العسكريين منهم ٦ر٣٣٪

أما مدة الاستمرار فى الوزارة فكانت ٥ر٥٩ شهراً للعسكريين و٣٧ شهراً للمدنيين.

لكن المهم هو مؤشر تزايد نسبه العسكرين في التركيب الوزارى:

نسبه العسكريين فى التركيب الوزارى(٤٩)

التاريخ	النسبه المئويه لهم
يونيو١٩٥٣	٣ر٢٦٪
اكتوبر ١٩٥٣	٩ر٤٠٪
ابريل ١٩٥٤	٨ر٤٥٪
سبتمبر ١٩٥٤	١ر٥٢٪
يونيو١٩٦٧	٤ر٦٥٪

٤٩ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تأملات فى الناصرية، [دار المدى - دمشق - الطبعة الرابعة

وايضا: د. أسعد عبد الرحمن - المرجع السابق - ص٧٤ وما بعدها

وليس لدينا أى تحيز خاص ضد عملية العسكرة، فالعسكريون هم أبناء مؤسسة قومية ذات مكانة رفيعة، وهم ذوى مسلك منتظم ومنظم، وذوى مقدرة إدارية راقية، لكن ذلك كله أتى فى ظل شعار موجع جداً لكل مدنى هو تفضيل «أهل الثقة» على «أهل الخبرة» . ثم انه لم يكن منطقياً أن يتولى عسكرى وزارة التعليم ورئاسة المجلس الأعلى للجامعات أو وزاره الاصلاح الزراعى .. الخ

ولعل كلاماً كثيراً يمكن أن يقال .. لكن عبارة ساخرة واحدة أطلقها كاتب ومثقف يمينى مرموق هو عباس العقاد تلخص فى إعتقادنا كل شئ.

«عندما قرأ الاستاذ العقاد ان السيد كمال الدين حسين (عسكرى سابق) قد أصبح رئيسا للجنة الطاقة الذرية ضمن وظائف أخرى كثيرة قال « .. إن الله لن يحاسبنى على ما أفعل، إذ كيف يحاسبنى وقد خلقنى فى عصر كمال الدين حسين»[٥٠]

لكن عملية العسكرة هذه ما لبثت أن إرتدت سلبياً حتى على عبد الناصر نفسه، وعلى قدراته على التحكم فى الجهاز الحاكم..

يقول أحد أكثر المدافعين عن عبد الناصر حماساً (د. عصمت سيف الدوله) «المؤسسه العسكرية تصاعدت سلطتها بعد عام ١٩٥٥ وأصبحت دوله فوق الدوله، وإمتصت قياداتها مدداً لا بأس به من الدخل القومى، فأصبح القادة العسكريون من بين قمم الاثرياء، والمترفين،

---

٥٠ - انيس منصور - فى صالون العقاد - دار الشروق - القاهرة -١٩٨٤ ص٣٤

والوسطاء فى الصفقات المدنيه والعسكرية ففسدوا هم أولا وأفسدوا الحياة ثانيا»[٥١]

ويقول عبد الله جزيلان نائب رئيس وزراء اليمن (خلال حرب اليمن)..

«عكست التجربة فى اليمن حقيقه الشلل المتصارعة داخل النظام السياسى المصرى.. كان بإمكان المرء ان يميز جهتين رئسيتين جماعة ناصر وجماعة عامر، ولأن اليمن كانت ساحة قتال عسكرى، كان أمراً طبيعياً إن تكون جماعة عامر فى تلك الساحة أقوى وقد إعتدت أن أحضر الى القاهرة وأجتمع إلى عبد الناصر وأحصل علي موافقته على بعض المسائل، إلا أننى عند عودتى لليمن ما كنت أجد يداً واحدة مستعدة لتقديم المساعدة .. ومع مرور الوقت تعلمت ان علي المرء أن يقابل عامر ويقنعه بما يريد.. فقد كان بيد المؤسسة العسكرية سلطه العقد والحل»[٥٢]

وهكذا يتحقق القول العربي«انقلب السحر علي الساحر»

فعملية الاستقواء بالعسكر .. إنقلبت إلى منافسة خطرة أضعفت النظام وأربكت خطاه وقادته إلى هزيمة ١٩٦٧ ثم ما بعدها.. بل وفى أحيان كثيرة تهددت مهابة عبد الناصر نفسه وأجبرته علي التراجع أمامها.

---

(٥١) د. عصمت سيف الدوله - المرجع السابق - ص٢٥٣.

(٥٢) د. اسعد عبد الرحمن - المرجع السابق - مناقشه مع عبد الله جزيلان فى ١٠ / ٩/ ١٩٧٢ ص١٣٧

المؤسسه السياسية

كانت قضية العمل السياسى واضحة تماما فى ذهن عبد الناصر بقدر ما كانت مفرطة الحساسية.

ففى خضم صراعاته المتعددة الجوانب كان المحور الاساسى عنده ليس الاتفاق على جوهر التوجه العام.. والتوجه العام كان منحصراً فى مسألتين النضال ضد الاستعمار، والسعى نحو التوجه الاجتماعى.

.. لكن الاتفاق علي التوجه العام ومساندته لم يكن بالامر الهام عند عبد الناصر..فلقد ساند الشيوعيون - فى أغلبهم - الجوهر والتوجه العام لسياسته واختلفوا معه فى موضوع الديمقراطية وتعددية الاحزاب السياسيه. ولهذا - وبرغم الاتفاق حول التوجه العام - حاربهم عبد الناصر حرباً ضارية.

وبدت الصوره مرتبكه.. نظام يحارب الاستعمار ويتجه إجتماعياً نحو اليسار .. وفى نفس الوقت يوجه ضربات أكثر من عنيفه ضد اليسار بينما يبدي تسامحاً غير مبرر إزاء اليمين وخاصة في ميدان العمل السياسى.

ربما لان اليمين إتخذ خطة الممالأة المستندة إلى القبول بأى شئ ،مع العمل الدؤوب على إفساده من الداخل.. وربما لان اليمين لم يهتم بالمبدأ ولا بفكرة التعددية والديمقراطية، وانما إهتم وفقط بمصلحته الذاتية وبوضعه هو فى إطار السلطة، خادماً لها ومستفيداً منها، فقد تقبل ودون معارضة فكره الحزب الواحد، وتداخل فى صفوفه القاعدية

والوسطى مانحاً لنفسه فرصاً للاستفاده والتربح، والصعود فى السلم الناصرى، متغنياً بشعارات يسارية لا يؤمن، بحرف واحد فيها فرضى منه عبد الناصر بذلك وأرضاه بما طمح إليه من صعود وكسب شخصى..

والحقيقة أن فكرة التنظيم الواحد قد قادت بذاتها إلى حاله من تغييب الفارق بين الاصدقاء والاعداء..

ولقد تملك وهم الحزب الواحد وضرورته بل وحتميته رجال عبد الناصر إلى درجة محاوله القول بأنه ضرورة تاريخية مصرية.. كانت كذلك.. وستظل . ووصل الأمر إلى حد محاوله لوى عنق التاريخ للبرهنة على ما لايمكن إيجاد برهان جدى له.. وللقول بأن مصر قد رفضت دوماً التعددية الحزبية، وأن كفاح مصر والمصريين لم يكن إلامن خلال تنظيم واحد ووحيد. وفى كتيب بعنوان «نظرة تاريخية إلى تطور التنظيم السياسى فى الجمهورية العربية المتحدة بعد ثورة عام ١٩٥٢» نقرأ عبارات غاية فى الغرابة، لانها غاية فى الخطأ.. «ومن هنا يمكن القول بأنه إستناداً إلى الظروف التاريخية لمجتمعنا فإن الحزب الواحد كان التعبير الطبيعى الذي يجسد وحدة الجماهير ووحدة آمالها وأهدافها، وأن تعدد الاحزاب ليس إلا إنعكاساً للانقسام بين المصالح الطبقية، ولذلك فإن التنظيم السياسي الواحد هو فى الحقيقة عودة إلى الوضع الطبيعى الذى يعكس وحدة القوي الوطنية ووحدة إتجاهها فى طريق التطور، بعد أن سقطت الطبقات المستغله المتحالفة» أما الجماهير التى سعت نحو تعددية حزبية

فهى مخطئة بل هى «لم تستطيع أن تعى(!) أن تحقيق آمالها فى الحرية والعدل مرتبط بقدرتها على الانتظام فى تشكيل سياسى قادر على قيادة نضالها والتصدى للقوى المضاده»(٥٣)

تجسدت الاكذوبة. ترسخت حتى تجاسر البعض بأقوال كهذه. وترادف معها نسيان المصالح الطبقية الموجودة فعلا، والمتناقضة فعلاً.. والموثرة فعلا..

وحتى فى عام ١٩٥٨ وبعد كل المعارك الضارية ضد الاستعمار وبعد وضوح مواقف القوى الاجتماعية المختلفة وتمايزها، نجد أن عبد الناصر يعلن: «الاتحاد القومى هو إتحاد يجمع بين أبناء الوطن العربى الواحد، لا انحراف إلى اليمين ولا إنحراف إلى اليسار، لا تفرقه ولا تنابذ، وإنما جمع كلمة من اجل رفعة هذا البلد»(٥٤) وطمس الفارق نظرياً لكن الواقع شهد صعود خصوم الشعارات والمواقف الى قمم التنظيم السياسى الواحد، بينما أطيح بمن هم أقرب الي الشعارات، ومن هم أجدر بحمايتها، إلى سجون لا نريد الحديث عن بشاعتها.

وفي عام ١٩٦٠ يكرر عبد الناصر «ان الاتحاد القومى ليس حزباً، وإنما هو وطن بأكمله، داخل إطار واحد يتساوى الجميع على صعيده،

---

٥٣ - كتيب صادر عن أمانة التنظيم بالاتحاد الاشتراكى العربى تحت عنوان: برنامج التثقيف الاول«الكتاب الرابع».ص٦

٥٤ - جمال عبد الناصر - خطاب فى مدينة بنى سويف - ١٤ / ١١ / ١٩٥٨

وذلك كى يصنع سلميا تطوره الكبير، ويحقق أهداف ثورته .. الاتحاد القومى وسيله كى تتفاهم الطبقات وتتراص بدلا من ان تتصارع»[٥٥].

وهكذا تلخصت كل مشكلات عبد الناصر وعلاقاته بالاطراف الاخرى فى مسأله واحدة.. الديمقراطيه ومسأله الحزب الواحد. الخصم هو من يطالب بالديمقراطية مهما كانت مواقفه الفكرية والاجتماعية، والحبيب المقرب هو الذى يقبل أو يدعى أنه يقبل - فى نفاق واضح - بانتهاك الديمقراطية وبالحزب الواحد.. وتم الفرز: اليسار الذى صمم علي موقف مبدئى يدافع عن الديمقراطية الى السجن، واليمين إلى قمم الحزب الواحد..

والنتيجة واضحه.. اضطر عبد الناصر ان يعبر عنها فى مرارة في مباحثات الوحدة قائلا «ان الاقطاعيين والرجعيين، كانوا مشتركين هم والرأسمالية في الاتحاد القومى»[٥٦]

ثم تتصاعد المرارة مع تصاعد ضربات الخصوم . فمع إنهيار الوحدة المصرية - السورية يتوجه عبد الناصر أمام الجماهير بنقد ذاتى مفعم بالأسى «لقد وقعنا ضحية وهم خطير قادتنا إليه ثقة متزايدة بالنفس وبالغير، لقد كنا دائما نرفض المصالحة مع الاستعمار، ولكننا وقعنا فى خطأ المصالحة مع الرجعية. لقد تصورنا انه مهما كان من خلاف بيننا

---

٥٥ - جمال عبد الناصر - خطاب امام المؤتمر العام للاتحاد القومى ٩ -٧ -١٩٦٠.

٥٦ - محاضر مباحثات الوحدة - ص١٦٢ نقلا عن محمد عبد المولى - المرجع السابق ص٤٠٢

وبين العناصر الرجعية فإنهم أبناء نفس الوطن، وشركاء نفس المصير، ولكن التجربه أثبتت خطأ ماكنا نتوهمه»:لقد غير الاستعمار من أشكال مقاومته لنا، أما نحن فلم نغير أساليب مقاومتنا له، لقد قاومنا الاحلاف والقواعد بينما تستر الاستعمار وراء الرجعية، وتسلل الينا عبر قصور الرجعية، لقد سمحنا لانفسنا بأن تخدعنا الرجعية .ولكن حتى بعد هذا الدرس الاليم تمضى سنوات، وتتعمق الاجراءات الاجتماعية بينما تظل المؤسسة السياسية بعيدة عن الجماهير.. ولنستمع الي عبد الناصر يتكلم، ولنلاحظ انه يقول ذلك فى محضر سرى لاجتماع الامانة العامة للاتحاد الاشتراكى في نهاية ١٩٦٤.

«الذى أريد أن أقوله هو أن الاتحاد الاشتراكى حتى الأن تنظيم على الورق» ثم «أنا أعتقد ان الرجعية حتى الآن أنشط منا»

ويعود فيؤكد «العناصر المضادة موجودة داخل الاتحاد الاشتراكى وهى عناصر حركيه ونحن ينقصنا داخل الاتحاد الاشتراكى، وجود العناصر الحركية المخلصة».[(٥٨)]

.. وكان طبيعيا ان يستشعر عبد الناصر الاغتراب حتى داخل صفوف إتحاده الاشتراكى نفسه، وكان طبيعيا أيضا أن نقرأ التعليق

---

٥٧ - لمزيد من التفاصيل ونصوص هذه المحاضر السرية راجع: د. رفعت السعيد - اوراق ناصريه فى ملف سرى للغايه - دار الثقافه الجديدة - ١٩٧٥.

٥٨ - بيلياييف، بريماكوف - المرجع السابق - ص١٥٤

التالى للباحثين السوفيتيين بيليابيف وبريماكوف «إن آثار تجربة فتح الابواب على مصراعيها لقبول عضوية جميع الراغبين في الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى العربى دون إجراء عملية الفرز اللازمة، راحت تنعكس بوضوح في عدم تجانس الاتحاد. لقد كان أعضاؤه أناساً متباينين وفي كثير من الاحيان متضادين فى معتقداتهم السياسة، ولم تستطع طريقة القبول في عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي أن تحميه من الرجعيين، بل وحتى من الاعداء المباشرين - للنظام .. ثم إن الطابع اللاطبقى للاتحاد الاشتراكى قد فرض سلفاً إنعدام النشاط العملى للاتحاد». (٥٩)

لقد تقبل الرجعيون الشعارات الحماسية بل والاجراءات الموجعة الموجهة لهم، وإذ عجزوا عن مواجهة الموج فقد قرروا أن يركبوا ذات سفينة النظام محاولين تغيير مسارها الفعلى.. بهدوء ودون ضجيج.

وفى دراسة اكاديمية نقرأ العباره التالية تعليقا على هذه الحقيقة.

«أن أثر الثروة علي صنع القرارات السياسية في مصر قد تضاءل تدريجياً خلال الخمسينيات وطوال فتره الستينات .. وذلك بحكم إتجاه السياسة الاقتصادية ذاتها إلى الحد من دور النشاط الخاص فى القطاع

٥٩ - بيليابيف وبريماكوف - المرجع السابق

المنظم من الاقتصاد.، وبحكم أن أصحاب الثروات الكبيرة كانوا يجاهدون لاخفائها، خصوصا بعد قرارات التأميم فى بداية الستينات، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال ان عائلات كبار الملاك وكذا أصحاب المشروعات المتوسطة والكبيرة التى لم تطبق عليها بالكامل قرارات التأميم قد عدموا الوسائل للتأثير على النظام السياسى، وإنما الثابت أنهم كانوا يحاولون بوسائل غير ظاهرة إستخدام ما تبقى لهم من نفوذ فى الحيلولة دون تطبيق بعض الاجراءات الاصلاحية عليهم. وقد أثبتت مداولات لجنة تصفية الاقطاع ومحاكمات بعض القيادات العسكرية التى أيدت المشير عبد الحكيم عامر فى محاولته لاستعاده سلطته بعد هزيمة ١٩٦٧ أن عناصر هامه فى إدارة المؤسسة العسكرية وبعض مؤسسات الدوله الاخرى قد كونوا ثروات مهمه آنذاك . ولكن أصحاب الثروات والمتعاطفين معهم فى جهاز الدوله لم يكونوا يؤثرون المعارضة المباشرة لهذه السياسات، وإنما كانوا يفضلون السعى الى تجنب تطبيقها فى الواقع وتفريغها من مضمونها بقدر الامكان»[٦٠]

وأكتفى بهذه العبارة فهى تلخص الكثير مما كنت أريد أن أقول.

---

٦٠ - د. مصطفى كامل السيد - المجتمع والسياسه فى مصر - دار المستقبل العربى - القاهرة ١٩٨٣ ص٦٥

* * *

ويبقى سؤال كبير.. وهو كيف أمكن أن يتحقق كل هذا التناقض في إطار سلطة واحدة؟

وكيف أمكن للأجهزه الناصرية أن تتقاطع توجهاتها.. بل وأن تتناقض . كيف أمكن لبعض التوجهات والمؤسسات ذات التأثير السلبى أن تؤثر علي مجمل التجربة الباهرة.

أجيب بفكره لفريدريك إنجلز..

هذه الفكرة تقول :«إن عمليه التطور الاجتماعى الحاسم، أى إنتقال السلطه من يد طبقة إلى أخرى تجرى وفق إطار القانون العام للتطور، أى وفق تطور عملية الانتاج، أو ملكية وسائلها وقدرتها علي إعادة وتجديد الانتاج، ولكن وإذا كنا نتفق علي أن تطوير الفروع المختلفه للبناء الفوقى تتم وفق النسق الاساسى للقانون العام، أى إذا كان تطور كل ميدان من هذه الميادين يخضع علي العموم وبصورة كاملة للتطور الاقتصادى إلا أنه يظل يمتلك وفى إطار هذا الخضوع العام بقدرة نسبية علي التمسك بقوانيه الخاصة به، وبعمليتة الخاصة في التطور، بل وبامكان هذه القوانين الخاصة أن تؤثر تأثيراً معاكساً وسلبياً علي خط حركه وقود دفع القانون العام، أى العمليه الاقتصادية فى

تطورها »[٦١]

.. وقد كان

* * *

ولأن الهدف من هذه الكتابة هو التأمل الموضوعى والعلمى، والمتطلع نحو المستقبل، فإننا لن نتعرض لما يمكن تسميته بالقهر الناصرى للخصوم .. لن نتعرض للسجون، المعتقلات، التعذيب ، خنق الآراء المعارضة، السماح بصوت واحد وبنغمة واحدة دون الاذن بأية كلمة أو همسة معارضة.. او حتى عدم الموافقة الصامتة، وإعلاء شأن النفاق، والبطش بأيه مصارحة فى إطار نقدى أو شبه نقدى.

سنترك ذلك كله فقد جرى الحديث عنه طويلا، ربما من هؤلاء الذين عاشوا في نعيم نفاق الناصريه، ثم عادوا ليلبسوا ثياب الدفاع عما أسهموا فى إنتهاكه.

لقد رفضت الناصرية، أى نقد بناء أم غير بناء، صديق أو عدو، صريح أو خافت وإنتهى الأمر بأن ضخت إلى سجونها ومعتقلاتها

٦١- ماركس انجلز - المؤلفات الكامله - المجلد ٣٧ - ص٤١٥ الطبعة الروسيه نقلا عن غليزيرمان:

قوانين التطور الاجتماعى، طبيعتها واستخداماتها - دار التقدم - موسكو - الطبعة العربية ١٩٨٣ ص٢٦

موزاييك يمثل كل شئ.. باشوات قدامى لم يقاوم أياً منهم ولو بأقل قدر ما حل به، وانما وفقط أفلتت منه وربما همساً لمحة غضب، رجعيون، تقدميون، يسار ، يمين، عسكريون من رفاق مسيرة يوليو، شيوعيون، إخوان، نقابيون .. مفكرون، كل الاتجاهات وكل الاصناف يجمعها خيط واحد .. أو حرف واحد.. النقد أو محاولة النقد أو الهمس.

لندع هذا كله ونعود إلى مأساة التظنيم الواحد..

عبد الناصر حل الاحزاب. أسس هيئة التحرير، تحولت إلى الاتحاد القومى رقم ١ ، ثم الي الاتحاد القومى رقم ٢ ، ثم الي الاتحاد الاشتراكى ومن قبله وجد «التنظيم الطليعى». وعبر هذه التحولات أو التقلبات كانت القوى الاجتماعيه هى ذات القوى الاجتماعيه، والأشخاص ثم ذات الأشخاص، تغيرت الآنيه والشراب واحد. الشعارات تتغير إبتداء من «الاتحاد والنظام والعمل» وحتى «حتمية الحل الاشتراكى».. والأشخاص هم ذات الاشخاص، والأدوات هى ذات الأدوات، والأساليب هى ذات الأساليب. حشود من العضوية يخيل اليك انها متحمسة، لكنها فى واقع الامر تلعب دور الكومبارس الغير مقتنع بشئ، يترك الكبار يؤدون أدوارهم المسرحية بينما الكومبارس

يردد ما يملي عليه.. فقط ما يملى عليه.

وتحولت هذه التكوينات الحزبية على اختلاف مسمياتها إلى ديكور.. مجرد ديكور، لا أكثر ولا أقل.

لكن الغريب والمثير للدهشة أن القائمين علي أمر هذا الديكور صدقوه.. وصدقوا أنفسهم وتصوروا أن بالامكان الاعتماد عليه، وبالفعل وفى ١٥ مايو حاولوا الاعتماد عليه، راهنوا علي ما أمضوا سنوات طويلة فى بنائه، وخسروا الرهان.

خسروه تماماً. لم يتحرك أحد. ولا فرد واحد، دفاعاً عنهم أو عن الشعارات التى طالما ترددت بها آلاف وملايين الحناجر.

ثم .. وهذا هو الاكثر مرارة مالبث رجال العهد الناصرى.. أبطال الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطيلعى أن تكالبوا علي خدمة السادات محتشدين فى إتحاده الاشتراكى، ثم حزبه «حزب مصر».

وما أن غير السادات ثيابه الحزبية وأسس «الوطنى الديمقراطى» حتى تدافع الجميع معه..

وهكذا إنكشفت حقيقه الديكور

* * *

وبعد...

لم أقصد بكل هذه الكتابه، أيه هجوم، ولا إنتقاد، ولا شكايه أو إحتجاج.

فقط أردت أن أدون ما إعتقدت انه موضوعى.

ولم أقصد بها أن أحبط أحداً، فقط أردت أن استدعى كل محب للناصريه كي يعيد النظر، بنظر إنتقادى جاد - فى كل ما فات.

ولست أريد القول أن «الناصريه» قد أصبحت دواءً فات أوان إستخدامه، بل لعلى أعتقد انها لم تزل مكتوبه - وإن بحبر سرى - علي صفحة الوطن. والحبر السرى يحتاج إلى مُظهر، ما أن يتلامس معه حتى يُظهر ويجعله مقروءاً.

هذا المظهر هو التقييم الانتقادى لما كان، كل ما كان. دون أدنى محاولة للتبرير أو الإخفاء، أو التناسى. إن نقداً ذاتياً قاسياً وحاسماً لن يكون قادراً فقط علي إسكات صوت الخصوم الذين يسومون الناصريه ومسيرتها بتهجمات وتخرصات خالية من الموضوعية ومليئة بالحقد، وانما يمكنها من التقدم للجماهير بأوراق إعتماد جديدة هى بحاجة اليها، والجماهير تنتظرها.

وهو أيضا الاحساس بأن الناصرية ليست كل الحقيقه، بل هى تقتسم الحقيقة مع آخرين..

وهو كذلك أشياء ومواقف وممارسات أخرى لعل تكرارها هنا هو لزوم مالا يلزم.

حزب التجمع

ملتقى طرق، وليس مفترق طرق

كم ذا يكابد عاشق ويعانى

فى حب مصر كثيرة العشاق

..**فهل** ستصدقوننى إذا قلت أننى سأحاول - أقول سأحاول - أن أسطر هنا كتابة موضوعية؟

أم إن الانحياز مفترض ولعل البعض يرى أن التحيز مفروض مسبقاً.

صدقونى، سأحاول أن تكون الكتابة موضوعية، قدر الامكان . لا لأننى أريد إرضاء القارئ..

ولا لأنني أريد أن أتحلى بسمة موضوعية، وإنما - وهذا هو الاساس - لأننى أعتقد جازماً أن التفكير الموضوعى، ومن ثم الكتابة الموضوعية هى السبيل لفهم موضوعى، وهى الاساس لترسيخ الرؤية الانتقادية، تلك الرؤية التى نحتاجها وبشدة، إن أردنا ، أو حاولنا ، أن نطور أداءنا ، ووجودنا. وبدون هذه الرؤية الانتقادية.ستسود التلقائية، وستتكاثر الظواهر السلبية، وسنفقد القدرة على تخليص أنفسنا من حالة الرضاء عن النفس، التى دائما ما تؤدى الى تجمد، بل وإلى تراجع.

سنحــــاول إذا - ســـواء بارداتنا أو رغم أنفنا- أن نمسك بالرؤية الموضوعية وبالنظر الانتقادى إن أردنا لحزبنا ان يتقدم.

* * *

وثمة أسئلة أولية أعتقد انه يتعين الاجابة عليها

ولعل أولها هو: لماذا التجمع؟ لماذا هذه الفكرة القائمة على تعددية الفكر، ووحدانية الموقف السياسي؟

وهو الأمر الذى يوحى - وربما يجزم - بالمساومة اليومية في ساحة السياسة، ربما - أقول ربما - على حساب الفكر؟

ولكن ألا يجدر بنا أن نبدأ بالسؤال الأولى، لماذا فعلها السادات؟ . لماذا قرر ان تكون هناك تعددية حزبية؟ والاجابة هنا تدخل فى باب التخمين أو التحليل وليس الحقائق المؤكدة. ففى دول العالم الثالث حيث إرادة الحاكم قرار حاسم، وحيث لا شفافية، ولا حق لأحد أيا كان أن يفتش في : كيف؟، ولماذا؟، وإلى أين؟. فى دول كهذه تتحول أفكار، وربما أحلام الحاكم إلى قرار.. فتاريخ.

لكن التفكير المتأنى يمكنه أن يفسر لنا بعضاً من الأمر، لكنه - وان تبدى مقنعاً - يبقى مدرجاً في باب التحليل وليس الحقائق. ولنسأل عدة أسئلة فرعية لنفسح الطريق أمام المقدرة على التحليل أو التفكير.

فهل أراد السادات ان يتخلص من الاتحاد الاشتراكى؟ ألم تكن تجربته مع هذا الاتحاد مزعجة ومريرة من وجهة نظره علي الاقل؟. ألم تكن قيادات الاتحاد الاشتراكى وكوادره مناوئة له حتى في زمن عبد الناصر؟ لكن الاجابة الموضوعية تشير إلى أن هذا الهيكل الديناصورى

التكوين [٦ ملايين عضو] كان هشاً، بل وكان قابلا وراغباً ومتحمساً للركوع في ساحة خدمة الرئيس، أي رئيس. ولعل هذه الاجابة بقدر ما ترضى غرور حاكم كالسادات، قد تفقده إحترامه لهذا الكائن، بل قل تخيفه. فإن إنقلب هؤلاء الصارخين بالناصرية ليلا ونهارا، متحمسين لها حماساً مملاً ومثيراً للشفقة فى بعض الاحيان، إن إنقلب هؤلاء جميعاً - باستثناء عدد لا يتجاوز أصابع رجل واحد - ضد كل ما كان، وأتوا إلى ساحة الساداتية، فلم لا يأتى يوم لينقلبوا مرة أخرى مع أي إشعاع لمصدر قوة حاكمة؟ لكننى أستبعد شخصيا هذا الاحتمال.

فماذا إذن؟

لعل السادات الذى عاش التجربة الناصرية ممالئاً، وغير مقتنع بكثير من المقولات والتصرفات، وانما أخفى عدم إقتناعه، بستار من «التقية» الخاضعة، القابله لأى شئ يريده عبد الناصر، وكل شئ يريده، حتى ولو بهمسة أولمسة أو إشارة، وربما كانت كفاءة السادات، تلك الكفاءة التى أوصلته الي موقع الرئاسة، تكمن في أنه كان يقرأ إتجاهات الريح الناصرى. كان لا يطبق فقط مبدأ الخضوع للقرار، وانما يلمح ملامح القرار حتى قبل أن يصدر، فيبدو متجاوباً معه قبل أن يصدر. أقول، لعل هذا السادات كان يحمل في قلبه وعقله رفضاً للتجربة، أو على الاقل لما آلت إليه التجربة. فلا هو مع الميثاق، ولا بيان ٣٠

مارس، ولاكل هذا الطنين المتواصل من شعارات كانت متألقة بأحرفها، ومنطفئة فى الممارسة الواقعية. ولعله كان أكثر إدراكا - بحكم موقعه - لأن هذه الشعارات مجرد طنين يتحول في الواقع إلى شئ آخر . ولعله كان يمتلك حنيناً للتخلص من مجمل الفكرة قبل أن تجد أدوات إصلاح نفسها، وتجد من يحول الطنين إلى واقع، والشعارات إلي حقيقة، خاصة وأنه قد أصبح بالامكان وبعد رحيل عبد الناصر، ورحيل البريق، والهالة والرجال المحدودى العدد الذين كانوا يستقوون بالقرب من عبد الناصر.. أن يدعو البعض إلى إصلاح حقيقى لهذا الهيكل الديناصورى، وتحويله إلى كيان متماسك، فاعل - ولو بأقل قدر- قد تبدو هذه الفكرة التى ترددت بالفعل آنذاك - مغرية لأى حاكم - أليس هذا الوعاء بأكمله، بفكره، ومنظماته، ورجاله ملكية خاصة له.. يحركها بطرف أصغر أصبع؟

قد تبدو هكذا علي السطح، لكن حاكماً ماكراً كالسادات سيجد -بالقطع - ما يخشاه. فتحول الهيكل المتراخى والمتآكل إلى شئ فاعل، سوف يحول الفكرة والشعارات إلى عنصر فاعل، وإلى حركه دفع بالمجتمع، وللمجتمع ككل.

وهو ما يرفضه السادات، فهو من البداية يرفض كل قول عن الاشتراكية، وقوى الشعب العامل، والميثاق، وحقوق العمال والفلاحين،

وحتمية الحل الاشتراكى، [وفى جلساته الخاصة بعد أن أصبح رئيساً كانوا ينقلون عنه تهكمه المرير على ذلك كله، وكان يسميه كلام «الحنجورى».] وهو من البداية يخشى ذلك. وهو من البداية تصادم مع السوفييت الذين كان يعتقد أنهم ذوى تأثير فى مجمل هذا التوجه، وهو من البداية طرد الخبراء السوفييت، وأرسل بأنفاسة وتطلعاته،وشرايين إتصالاته نحو الآخر. الغرب. وبالدقة أمريكا.. ففيم سيكون الحديث عن «الاشتراكية» و «جماهير الشعب العامل»، لمن يستعد للاستحمام تماماً من كل ما كان، كى يبدو «نظيفاً» ومقبولا عند السيد الجديد؟

وبعد ١٩٧٣، وإنتصار اكتوبر، قضى الأمر، فالقائد المنتصر يمكنه أن يفعل أى شئ، وأن يغير إتجاه الريح.

ولابد أن السادات قد شعر بضعف هذا الاتحاد الاشتراكى خلال مظاهرات الطلاب اليساريين وإحتجاجاتهم الصاخبة المطالبة بتحرير الارض فى ١٩٧١، ١٩٧٢. ولابد أنه فزع من نمو هذا التوجه اليسارى المستقل عن النظام وإتحاده الاشتراكى، والمناوئ لهما معاً مناوأه حادة وحاسمة.

ولابد أنه خشى من أن توجهاً كهذا - إن إستمر فى تطوره ونموه - يمكنه أن يحول شعارات «الاشتراكية» إلى قوة مادية جديدة، تكون أداة ضغط علي النظام في ظل توجهه الجديد.

ولأن «الاتحاد الاشتراكى» بكل ضجيجه لم يستطع ان يفعل شيئا إزاء موجة اليسار الزاحفة، بل إنحنى أمامها عاجزاً تماماً، فقد لجأ السادات إلى تيار التأسلم السياسى. ليطرق الحديد بالحديد. وتحالف دون خجل أوتردد مع جماعة الاخوان، ولما لم تسعفه وحدها، أسهم رجاله فى تشجيع وحتى فى تكوين «الجماعات الاسلامية» بالجامعات.

وكان بذلك يكتب شهادة وفاة «الاتحاد لاشتراكى»، فقد أعلن عجزه عن الفعل، وأعلن أن الملعب السياسى الفعلى يخلو من هذا الاتحاد الاشتراكى. وإنما فقط يسار وتأسلم. وبهذا تكون الخطوة التالية منطقية.

لكن حاكماً ماكراً كالسادات لا يأتى مباشرة إلى ما يريد، وإنما يقتاد الجميع عبر دروب معدة سلفاً لا يعلمونها، لكنه هو يعلمها.

وإذا كان الشبان الماركسيين الأكثر تشدداً هم من فعلوها، وكانت «الجماعات الاسلامية» هى من تصدت لهم. فليكن التطلع الجديد متخلصا من الاثنين معاً، حتى يمكن الطموح نحو التحكم فيما هو آت.

أعتقد أن هذه الخريطة الفكرية المعقدة والمتداخلة كانت في ذهن السادات، وهو يفكر فى إطار سياسى جديد يتمكن هو فى إطاره من أن

يتخلص من التركه القديمة.

* * *

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. بل كان معقداً، هو معقد بطبعه وطبيعة مكوناته وتداعياته، والسادات هوأيضا معقد في تناوله لمثل هذه الأمور، هو لا يأتيك مباشرة، وإنما عبر مسلسل من الانحناءات والالتفافات.

وهكذا فعلها.

فهو لا يمكنه ان يتخلص فوراً من هذا الجيش الملايينى العضوية، والذى تشاكبت وتشعبت فيه القوى والمصالح والتوجهات.

وهو لا يمكنه أن يعلن وفى خبطة واحدة، أنه لا يريد لكلمة «الاشتراكية» ان تلتصق به.

وهو لا يستطيع ان يبعث «بالميثاق» والشعارات والتوجهات إلى «سلة المهملات».

وهو لايريد ان يستبعد اليسار تماما من الخريطة، ولا الجماعات الاسلامية أيضا.

وهو يقترب من أمريكا ويتباعد عن السوفييت قليلا قليلا، يريد إن يمسك بطرف خيط من كل شئ. ربما لأنه لم يكن واثقاً من أى شئ.

ومن ثم كانت الخطوة الأولى «منابر» داخل، وفى إطار، الاتحاد

الاشتراكى، مع تأكيد بأن ذلك هو تعزيز للاتحاد الاشتراكى ذاته.

ومع تصاعد الحماس، المنطقى أحيانا، والمصطنع أحيانا لتكوين منابر [وصل العدد إلى أكثر من أربعين] كانت الخطوة الثانية.. ثلاثة منابر فقط. يمين ويسار ووسط.

وإتشح هو بالوسط.. وهو طعم منبره بلفظ الاشتراكى وكذلك اليمين، كأنما ليعلن أن هذا التقسيم إلى منابر، ليس ذا مغزى أيديولوجى، وإن كل شئ سيتم فى إطار المظلة الاشتراكية، وإتحادها الاشتراكى

* * *

وبعد هذا يكون منطقياً ان نسأل لماذا كانت فكرة «تعددية الفكر ووحدانية التنظيم والموقف السياسى»؟

ولكى نقر بالحقيقة فإن فكرة المنابر الثلاث، والثلاث فقط، والشوق الجارف لدى جماهير وقوى عديدة، قد أفسحت بذاتها المجال أمام الأخذ بمبدأ أن يكون منبر اليسار مظلة متسعة لأكثر من توجه - فإن كان هذا المنبر اليسارى أحادى الفكرة، ماركسى فقط، أو ناصرى فقط، فإلى أين يذهب الآخرون؟

لكن إغلاق العقل أمام هذا الواقع كان ممكناً بل لعل البعض تصوره، ونادى به. وهنا يأتى الدور الهام لخالد محيى الدين فقد نادى وتمسك بفكرة فتح «المنبر» أمام كل التيارات اليسارية والعمالية

والليبراليه، وكانت شخصيته بذاتها قادرة على إستدعاء رموز وشخصيات وجموع.. كل منها إعتبر أن خالد محيى الدين يمثله. ولم يكن بإمكان عاقل أن يناوئ ذلك. فجموع عديده أتت من أبواب شتى ، بل وعبر أبواب شتى.

فروزاليوسف مثلا إسهاماً منها فى إنجاح الفكرة ظلت ولفترة طويلة تنشر كوبوناً يحتوى على ثلاث مربعات صغيرة،يمين، يسار، وسط. وما علي القاري إلا أن يكتب إسمه وعنوانه ويضع علامة أمام مربع اليسار.. ويرسل الكوبون إلي روز اليوسف حتى يعتبر عضواً فى المنبر. فمن الناحية النظرية نحن جميعا أعضاء في الاتحاد الاشتراكى، وفقط وفى إطاره نختار توجهاً ما.

وإذ كان العضو مطلوباً منه، ولو من الناحية الشكلية أن يختار، فإن طاقة الأمل اليسارى والاشتراكى، وإسم خالد محيى الدين، وطموح الكثيرين من المثقفين والنقابيين العماليين والأدباء والفنانين لتحقيق خطوة – ولو واحدة – تتجاوز حدود القديم البالى والمرفوض قد دفع بالكثيرين جداً نحو منبرنا، وما كان لنا أن نرفض أحداً، أو نتردد فى قبول أحد، لأننا حتى لم نكن نعرف أغلبهم معرفة حقيقية.

لكن الشئ الهام هنا أن فكرة «تعددية الفكر ووحدة التنظيم والموقف السياسى» وإن كانت سهلة في طرحها – رغم معارضة البعض

لها - إلا أنها إحتاجت إلى سعة صدر، وأسلوب عمل، وإحترام الآخر، وعدم تعجل فى كبت المعارضة أو المختلفين، باللجوء إلى الأصابع لترتفع ، فنفرض بالتصويت أى شئ ، وكل شئ.

لقد اكتشفنا ومنذ البداية، أن ديمقراطية حصار الآخر برفع أيدى الاغلبية لن تفيد شيئا، بل هى ليست ديمقراطية فعلية، وصنعنا ما إعتقدنا - ولم نزل - أنه ديمقراطية حقة.. إحترام الرأى الآخر وإن كان محدود القامة. وبإختصار إتخذنا شعاراً لنا لم نكن قد سمعنا به، لكننا مارسناه لسنوات، ثم وبالمصادفة طالعته، وتوقفت أمامه، أمسكت به وكأننى أريد أن أقتلعه من أسطر الكتاب لأصنع منه رمزاً لنا. العبارة الملهمة التى طبقناها بالسليقة وبالحدس وبفضل حكمة وصبر خالد محي الدين، كانت للفيلسوف السكندرى «كليمنت» [القرن الثانى الميلادى] وتقول «تأتى الحكمة عندما تأخذ من الآراء المتناقضة كل ما هو صائب» ولم نفعل ذلك فى مجال السياسة فحسب، بل وحتى في مجال التكوين العضوى للقيادة، «كنا نسعى نحو المخالفين فى الرأى أو التوجه كى نضمهم إلى المواقع القيادية، وأحيانا كنا نفتعل ذلك، لكن التجربة العملية أثبتت أن كل إفتعال فى هذا الأمر كان مفيداً وإيجابياً.

والنتيجة هى ما ترون الآن.. فنحن الحزب الوحيد الذى لم تحدث فيه إنشقاقات، رغم أنه الحزب الذى يضم أفكاراً وتوجهات مختلفة، ورغم

أنه الحزب الذى حدثت وتحدث وستحدث فيه إختلافات شديدة فى الرأى.. لكننا تعلمنا كيف نعالج كل ذلك عبر إحترام الآخر، والانصات إلي ما يقول. وعدم تجاهل أى رأى، مهما وجدناه مختلفاً، أو حتى محدود الأثر والتأثير.

* * *

ويأتى بالضرورة سؤال أخر.

إذا كان السادات هو صاحب التجربة فلم كان هذا الصدام الحاد معه؟

والحقيقة أننا لم نسع إلى صدام. لكن الصدام أتى إلينا.

فالتجربة كانت ثلاثية، الوسط هم رجال السادات، وهم أطوع من بنانه، واليمين وكان تحت قيادة مصطفى كامل مراد أطوع من كل الطائعين.. وإذا بنا نصبح شوكة فى الحلق.

ويبدأ الصدام مبكراً، بل ومبكراً جداً، موسى صبرى ربما كان الوحيد من رجال النظام الذى قرأ برنامج منبر اليسار، البرنامج طبع وعرض علي إجتماع مشترك للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وأعضاء مجلس الأمة، وكان إجتماعاً شكلياً بكل معنى الكلمة، ووافق الاجتماع على البرامج الثلاث فى عجلة من الأمر، فلم يكن ثمة نقاش، وهل كان يمكن أن يكون هناك أى نقاش؟ إن المجتمعين لم يقرأوا ما وافقوا عليه، لأنه لم

توزع عليهم أية نسخ منه، ولم يكن الوقت ومهما إمتد لساعات وأيام يكفى لمناقشه ثلاثة برامج، ومقارنتها ببرنامج الحزب الأم [الاتحاد الاشتراكى] الذى لم يكن ثمة أحد يريد أن يتذكره.

الجميع وبالاجماع وافقوا على البرامج الثلاث. لكن موسى صبرى وبعدها بأيام قرأ. هو الوحيد - ربما - الذى فعلها، ووجد فقرة واحدة أمسك بها ولم يتركها. وإنهالت مقالاته فى جريدة الاخبار تهاجم منبر اليسار الذي يدعو «إلى حق الاضراب» ، وتذكر موسي صبرى فجأه أن مصر تعيش - آنذاك - مجتمعا أو حالة إشتراكية، فأين يوجد حق الاضراب في مجتمع اشتراكى. وتساءل هل يسمح رفاقكم فى موسكو بالاضراب، أم أنتم تسعون إلى إثارة الفوضى، وتدمير البناء الاقتصادى؟. كان يتكلم ونحن لا نرد، فهو رئيس تحرير الاخبار، وهو الصحفى المقرَّب من الرئيس، ونحن لا أداه إعلامية كبرت أو صغرت يمكنها أن تنقل رأينا أو بعضاً منه.

الرئيس السادات وجدها فرصة ليعجم عودنا، طلب صراحة من خالد محيى الدين شطب هذه الجملة من البرنامج.

وعرض الأمر فى إجتماع «للسكرتارية العامه» للمنبر. ورفضت الاغلبية الساحقة..

وأدرك السادات أننا أصبحنا، أو نوشك أن نصبح شوكه فى الحلق.

وتتالت الصدامات، فلقد توتر الجو. هم يريدون تطويعنا، ونحن نتمسك، ونتماسك، ونرفض التطويع والخضوع أو حتى الممالأه. ثم كان الصدامين الشهيرين والحاسمين يناير ١٩٧٧ [أحداث إنتفاضة الخبز أو كما أسماها السادات إنتفاضة الحرامية، وزيارة السادات للقدس] وأخذ الحديد يطرق الحديد، كانت سنوات بالغه الصعوبة، عانينا فيها الكثير، وعانى أعضاء التجمع عنتاً كثيراً فى أرزاقهم وعملهم وحرياتهم.

وظل السادات وحتى آخر أيامه يعتبرنا شوكه في الحلق، بل ولعله ندم علي إستدعائنا نحن إلى ساحة المنابر، ولعله حاول إحياء «حزب العمل» كتمهيد للتخلص منا.

وعلي أية حال فإن الاجابة على السؤال هى : نحن لم نسع إلى صدام، فقط تمسكنا بحقنا فى إحترام أنفسنا، وحقنا فى التمسك بمواقفنا. ودفعنا ثمن ذلك. وكان الثمن باهظاً. وهو ثمن لم يتوقعه الكثيرون ممن أتوا إلينا فى الأيام الأولى، هؤلاء الذين أتوا بحسن نيه، على أساس أننا جزء .. مجرد جزء من الاتحاد الاشتراكى، منبر فى إطاره، فلم يكونوا، بل لم نكن نحن نتوقع أن تتحول المنابر بهذه السرعة إلى أحزاب .. ولم يكونوا، بل ولم نكن نحن نتوقع أن تقتادنا الأحداث إلى تصادم حادٍ كذلك الذى حدث.

كانت الأيام الصعبة تتوالي، وكان البعض يحتمل، أو يحاول كان هذا البعض يتمثل قول عبد الله النديم إبان محنة العرابيين بعد هزيمة الثورة.

صلينا يا هموم فقد علمنا

بأنا الصلبُ صلباً لا يلينا

لنا جلدٌ على جلدٍ يقينا

إذا زاد البلا زدنا يقينا.

لكن الكثيرين لم يكونوا كذلك. وأقول بصراحة أننى كنت أشفق على هؤلاء الذين أتوا إلينا بحسن نية، وصدقوا تجربة التعددية في بداية الأمر، ولهذا فقد تفهمنا تماماً إنسحاب الكثيرين.. لأنهم وببساطة أكتشفوا أن الأمر مختلف تمام الاختلاف عما كانوا يتصورون، بل عما كان مفترضاً .

ذهب الكثيرون، وبقي البعض. وكان هذا طبيعياً تماماً، ولهذا فإن الكثيرين ممن ذهبوا بقوا على صداقتهم لنا وإن من بعيد، ونحن أيضا تعاملنا، ولم نزل مع الكثيرين منهم باحترام. فالأمر ببساطة يشبه راكباً ركب القطار الخطأ، فتركه فى أول محطة قادمة.

ولعل فى هذا إجابة على سؤال يردده البعض بإلحاح لماذا تناقصت عضوية التجمع؟ وأجيب لهذا السبب.

الذين ذهبوا كانوا قد أتوا إلينا متصورين الأمر على صورة أخرى، والذين بقوا إحتملوا، وتحملوا فكانوا أبطالا فى مواجهة عنت، وزنازين، وإضطهاد، ومطاردة، وحملات إعلامية مكثفة وماكرة فى آن واحد.. فهل ثمة مجتمع مكون وفقط من أبطال. أن الجيش -أى جيش- يتكون بالأساس من جنود عاديين، ولهذا يحتفون فيه، ويحتفلون بالبطولة. والحزب ليس جيشاً فالفرار من الجيش في حال الحرب عقوبته رصاصة فى الرأس. أما الحزب فهو تجمع إختيارى [هكذا بالضبط فى القواميس] يتكون إن إتسع من أناس بسطاء. أناس يحلمون بمستقبل أفضل،لكنهم يريدون أن يعودوا في المساء حاملين الخبز لأطفالهم. وبدون هذه العودة سيجوع الاطفال، فماذا عندما يكون العمل السياسى، أو هذا الحلم بالمستقبل سبيلا للسجن أو المطاردة أو الاضطهاد في لقمة العيش ومصدر الرزق؟ كم من هؤلاء البسطاء سيتحمل؟ وكم سيبقى؟

والغريب أن هؤلاء الذى يوجهون إلينا اللوم لأننا فقدنا أعضاءً فى الزمن الصعب، يريدون أن يدفعونا دفعاً إلى تصادمات لامبرر لها،لا لشئ إلا لكي نبدو حزباً متشدداً. فكيف يكون ذلك؟

وعلي أيه حال فلسنا نادمين علي ماكان، وما أدى إلى معاناة شديدة، وشدة قاسية، كما أننا لسنا نعتقد بضرورة إستعادة ذلك، فلكل

ظرف موضوعى ظروفه وأساليب عمله .·. ويخطئ السياسى لو تصور أن التشـدد فى أي وقت، وفي كل وقت هو مـعـيار الثـورية. وان الظروف والملابسات والتفاعلات.. والآخر يتغير .. ونحن نبقي وتبقى مواقفنا قطعا من أحجار لا تتغير.

ولهذا تفصيل قادم.

* * *

ونعود إلي البداية من جديد

فلقد إستدرجتنا الاسئلة واحداً إثر الآخر بينما كان من المفترض أن نجيب على سؤال أولى..

التجمع كفكرة وكمشروع هل جعل من نفسه مفترق طرق . أم ملتقي طرق؟

وليس فى الأمر أية رغبة فى التلاعب بألفاظ متقاربة، بل هو موقف سياسى راق ومتحضر ومعترف بالآخر.

فعندما قرر السادات أن لليسار منبر واحد وحيد، رأينا نحن أن ذلك غير صحيح، لم نحاول أن نحتكر هذه الرخصة الاحتكارية التى قررها النظام . بل أكدنا قولاً وكتابةً وفعلاً، أكدنا فى الممارسة وفي نصوص واضحة فى البرنامج. أننا لا نحتكر تمثيل اليسار، بل إننا نعترف بوجود فصائل سياسية يسارية أخرى فى ساحة الفعل السياسى. قلنا وبوضوح:

لدينا ماركسيين، ولكن ليس كل الماركسيين، ولدينا ناصريين، ولكن ليس جميع الناصريين، وأن هناك ماركسيون وقوميون وناصريون وفصائل يسارية أخرى ليست ممثلة فى التجمع، ويحترم التجمع وجودها، ويدافع عن حقها في الوجود، وعن حقها فى الاعتراف الرسمي بها.

..ومن ثم فعندما وجد عدد من الناصريين - فيما بعد - أن حزباً ناصرياً قد تكون إنضموا إليه دون غضاضة منا، بل كنا نعتبر ذلك أمراً طبيعياً. ولعل الكثيرين يعرفون أن أول إجتماع تأسيسي لحزب ناصرى.. عقد في ضيافة التجمع، وفي مقره المركزى.

هذا يعنى أننا كنا «ملتقى» لكل من أراد التواجد معنا مؤسساً وفاعلا في التجمع،دون أيه منازعة أو دعوة للتفريق والافتراق فى صفوف اليسار.

لكن للأمر وجهه الآخر.

فهذه الفكرة التى نسميها بالتجمعية «تعددية الفكر ووحدانية الموقف السياسى والتنظيمى» تشكلت فى صورة ممثلين للفصائل الفكرية المختلفة: الناصريين، الماركسيين، القوميين، البعثيين، تيار ديني مستنير [مسلم ومسيحى].. وأعداد متفاوته من هذا التيار أو ذاك ..

وكان الأكثر عدداً الماركسيين [من فصائل مختلفه] والناصريين [بتوجهات مختلفه] ،لكن هذا المكون «السيرامكى» لم يكن ومنذ البداية بشكل سوى أقل من عشرة في المائة من مجموع العضوية، تلك العضوية التى تشكلت بشكل أساسى من مواطنين ذوى تعاطف مع الفكر اليساري عامة، أتوا إلينا لانهم كانوا يحلمون بحزب يدافع عن الفقراء، ويحمى مصالحهم، ويطالب بالحريات العامه، كانوا يوشكون أن يكتشفوا «الأنياب» الساداتيه التى تكشفت فيما بعد في صورة سياسات إقتصادية وإجتماعية، ومواقف وتوجهات عكس طموحات الفقراء والمدافعين عن الفقراء، المحبين لمصر وشعبها وحريتها وإستقلاليتها، هؤلاء أتوا إلينا بأمل أن نعمل سوياً..

لكن الصوت الأعلى كان لهذه العشرة فى المائه. ربما لأننا بالغنا فى منح فرص قيادية لممثلى هذه التيارات، وربما لأنهم كانوا أكثر صلابة [وهذا طبيعى] .المهم كانت الصورة الخارجية توحى بأن التجمع فى مجموعة عبارة عن مجموعات رأسية التكوين من التيارات المختلفة، أما الصورة الحقيقية فكانت غير ذلك.

وفى الاجتماعات سواء فى المستويات الوسطى [لجان الاقسام والمناطق] أو المستويات العليا [المؤتمر - اللجنة المركزية - الامانة العامة] كان الحوار يدور منحصراً تقريبا بين ممثلى هذه الفصائل، الأمر

الذى عزز الصورة غير الحقيقية.

ولكن .. وبمضى الوقت، يتصارع بعض ممثلى الفصائل مع بعضهم البعض، ثم يفرض الواقع علي الجميع الانصياع للقول العربى البليغ: «يختلف الرفيقان وهما مثل ركبتى بعير، تقفان معاً وتقعاًن معاً».

ثم أن المنطق قد فرض نفسه علي الجميع، فبعد عشرات المجادلات والمحاورات وربما الانفعالات بدأت صيغة الفيلسوف السكندرى «كليمنت» تفرض نفسها .. هل أكررها؟ «تأتى الحكمة عندما تأخذ من الآراء المتناقضة كل ما هو صائب». أى أن المواقف لم تكن منحازة وفقط لرأى أحد، أو فصيل بذاته،بل كانت فى كثير من الأحيان «موزاييك» يجد فيه كل من المتحاورين بعضاً من رأيه [ليس كل رأيه] متجاوراً مع بعض من .. وبعض من، والمثير للدهشة أن هذه الآراء «الموزاييكية» التكوين كانت -ربما لأنها ثمرة تفكير مشترك وصناعة مشتركة - تأتى أكثر صواباً .

ورويداً رويداً إعتاد الجميع أن يفكروا معاً، وأن يصنعوا آراءهم معاً، وإذ يستمر ذلك لخمس وعشرين عاماً.. فإن فكرة «التيارات» أخذت فى التلاشى. فأية أناس هؤلاء، يظلون معاً، يقاتلون معاً، يسجنون معاً، ينتصرون معاً، يهزمون معاً، يعانون معاً، يفكرون معاً،

يصوغون وثائقهم وقراراتهم وبياناتهم ومواقفهم معاً،ويعملون معا فى مجالات الفعل الجماهيرى.. أى أناس هؤلاء يفعلون ذلك كله، ويتوارثونه لربع قرن، ولايتأثرون به، يبقون أصناماً، أو أحجاراً صماء؟

وهكذا ودون أن يتخذ أحد قراراً بدأنا لانستخدم صيغة «التيارات المتعددة» لم تعد يأتى ذكرها فى أحاديثنا وإجتماعاتنا ووثائقنا، بل أصبحنا نخجل من إستخدامها، فلقد أصبحنا فعلا وبشكل يكاد أن يكون إجماعياً «تجمعيين».

.. والآن هل إتضح المعنى المقصود من أن التجمع ملتقى طرق .. وليس مفترق طرق.

ويبقى التجمع بكل تجمعييه أى بالغالبية الغالبة من عضويته وكوادره حريصاً علي التأكيد على أنه خيمة تتسع لكل اليساريين، ومؤكداً أنه لا يحتكر - لا ينوى ولا يريد ولا يمتلك الحق - تمثيل اليسار ، ومؤكداً أن خارجه جماعات وأحزاب ومجموعات يسارية تمتلك الحق فى الفعل العلنى والشرعى..

وبهذا يؤكد مرة أخرى أنه ليس «مفترق طرق». وهو يمد يده بكامل العون للآخرين يفسح لهم صدره، وصحافته، ومقاره، متعاونا معهم مؤكدا أنه «ملتقى طرق».

* * *

ولكن ومنذ البدايات الأولى، بل ومنذ ما قبيل البداية، أي عندما أعلن السادات عن نيته للسماح بتشكيل المنابر، وجدنا البعض يبادرنا بحملات من الهجوم والعداء - الحزب الشيوعى المصرى أعلن تفهمه للموضوع كله، وعن مباركته له، رغم إعتراضه على شروط أعلان المنابر [ألا يكون ذا طابع طبقى، وألا يدعو أو يستدعى الصراع الطبقى]، أما منظمتى ٨ يناير والعمال الشيوعي فقد هاجمتا الفكرة والقابلين لها هجوما شديداً، متشدداً كعادتهما في كل خلاف كبر أم صغر. وظلت هاتان المنظمتان على عدائهما للتجمع، وعلى تشددهما حتى تفككتا نهائياً [وهل كان يمكن لشئ متشدد كهذا أن يستمر فاعلا، أو حتى إن يستمر أصلا؟] وكان محور العداء للتجمع هو أنه «متهادن».. وفى ذلك الحين تصادمنا وإصطدمنا بأقصى قدر ممكن، وإتهمونا بالتهادن، سجن المئات من كوادرنا وأعضائنا بحيث ظلت سجون السادات دائبة ودون أى إنقطاع على إستضافة أعضاء التجمع.. وإتهمونا بالتهادن، إرتفعت سخونة القول والكتابة فصودرت مطابع الحزب، وسجن كل من يحمل أوراقه.. ثم صودرت الاهالي مرة، مرتين، ثمانية ثم أوقفت نهائياً، ولم يجدوا ما يتهموننا به إلا أننا نقف عقبة أمام الكفاح المسلح.. وإتهمونا بالتهادن.

أقصد إننا إعتدنا على مثل هذه الاتهامات، وواصلنا نحن

مسيرتنا ،وهم ذهبوا أو بالدقة تناثروا.

كذلك فقد اقبل نحونا ومنذ البدايه ناصريون وقوميون وأنكرنا ورفض التقارب معنا بعض منهم.

ولكن ولكى لا تختلط الأوراق هناك معترضون آخرون، مواطنون عاديون يحبوننا ويتمنون نجاحنا ، وزملاء لنا فى صفوف التجمع [ليسوا كثيرين ولكنهم موجودون ويتعين إحترام رأيهم] يرون ان التجمع قد خفف كثيراً من أساليب نضاله، ومن لهجته ، ومن أدائه الجماهيرى. ولقد يكون هناك بعضاً من الصحة فى هذا القول، ولكن يتعين إلا نأخذه كأمر مسلم به، فنحن نعارض لم نزل، وشدة المعارضة لم تزل بادية وأحيانا بحدة عنيفة على صفحات الاهالى، وكذلك فى مجلسى الشعب والشورى.. نهاجم السياسات، نحدد البدائل، نكشف الاخطاء في كل الساحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نفضح الفساد والمفسدين.. كل ذلك نفعله وبحدة أحياناً . فما هو المطلوب أكثر؟ الفعل الجماهيرى. هكذا ستكون الاجابة المتوقعة. وأنا أتفق أن الفعل الجماهيرى لا يأتى عفواً. وإلا كان إنفجاراً غير مخطط، ولسوف ينتهى بالقطع إلى أيد متأسلمة. وهنا سيقول البعض أنتم تحمون الحكومة بهذا الادعاء. لكن ذلك يكون صحيحا لو أننا لا نحاول.

الفعل الجماهيرى فى إعتقادنا يبدأ بالوعى، أن تبعث باشعاعات

الوعى نحو الجماهير [ونحن نفعل ذلك عبر الاهالى وعبر مجلسى الشعب والشورى، وعبر بياناتنا وتلامسنا مع الجماهير حيثما وجدنا، وأحيانا عبر حورات تليفزيونية وكتابات وكتب، ولكننا نفعله بصورة غير كافية ، وربما محدودة] ثم.. إيضاح أساليب المواجهة، ثم.. حث الجماهير علي التحرك [وهنا سيكون التحرك ليس وفق رغبتنا ، ولا وفق سخونة شعاراتنا، ولكن وفق طاقة الجماهير، وإحتمالها ، والويل لنا إن تصورنا أن شعاراً ساخناً يمكنه ان يدفع الجماهير إلى الاندفاع الصاخب. فهذا لا يحدث ولن يحدث.. وعندما تكون الجماهير جاهزة للتحرك نسبقها نحن بخطوة واحدة. فقط خطوة واحدة، حتى لا ننعزل نحن وحدنا..وهكذا خطوة خطوة ينضج الفعل الجماهيرى، ويصبح قادراً علي الفعل والتأثير].

لكن هذا الكلام المبسط لا يحل أية مشكلة. ففى واقع الحياة المصرية خبرات شديدة التعقيد.

تعالوا - كمثال - نتأمل أحداث يناير ١٩٧٧ أو،ما أسميناه نحن انتفاضة الخبز وأسماه السادات إتفاضة«الحرامية ».

خرجت ملايين المصريين إلي الشارع .. فى كل المدن وفي آلاف القرى، هتفوا بكل الشعارات المكنة وحتى غير المكنه، زملاؤنا كانوا معهم وعلى رأسهم [نحن لم نصنع الانتفاضة، فقط شاركنا فيها

وتصدرنا قيادتها عندما قامت] لكنه نظام العالم الثالث لا يأبه بمثل هذه «الاشياء» [هذه العبارة قالها لى مسئول كبير خلال الانتفاضة وهو يقلل من شأن ما يجرى] حاول الأمن أن يستدرجنا إلى ما يمكنه من سحق المظاهرات وسحقنا معها، دفع إلينا - نحن بالذات - بعضاً من عملائه، يبشرون بإحراق كل شئ، وتدمير المحال وإحراق المؤسسات ووسائل النقل ورفضنا بشدة. توقعنا ما قد يحدث.. حرائق، ثم سحق للانتفاضة بأقصى قوة ممكنه، ثم تعود الجماهير إلى حيث كانت، وندفع نحن الثمن، بل وتدفع الحركة الجماهيرية كلها الثمن..

كان زملاؤنا يأتون إلى سائلين : ماذا سنفعل؟ وكانت الاجابة سابقة التجهيز، والمعبرة عن حيرة بالغة هى: إستمروا فى التظاهر.ثم.. إستمروا .. إستمروا.. ليلا ونهاراً كانوا على رأس المظاهرات يهتفون. ثم ذات السؤال، وذات الاجابة. فهل كانت هناك إجابة أخرى؟ ثم أتى صباح ليجد الدبابات فى الشوارع..وما من أحد كان راغباً في التصادم مع الجيش، لأن المصريين يحبون جيشهم ، ولأنه صاحب إنتصار اكتوبر، ولأنه.. ولأنه.. عشرات الاسباب دفعت الجميع إلى الأنسحاب. إنسحبوا، ودفعنا نحن الثمن.. مئات من زملائنا قبض عليهم، وإقصاء لعشرات من العمال النشطين والنقابيين من مصانعهم إلى وظائف إدارية متدنية المستوى فى الوحدات المحلية بقراهم الأصلية، .. وإنتهى الأمر

بأن فقد التجمع أكثر من ٢٠٪ من عضويته في هذه الأيام الصعبة. ودفعت مصر كلها الثمن فالسادات الذى بات مرتعباً من التحرك الجماهيرى، خاض حرب قوانين غير قانونية بمعنى أنها غير عاقلة لم تزل قائمة حتى الآن.. قانون حماية القيم من العيب، وقانون التظاهر وغيرهما، مما أسمى بترسانة القوانين سيئة السمعة. وضاعف السادات من إحتضانه للجماعات الاسلامية وللإخوان المسلمين ولحزب العمل فيما بعد، فهذا التيار بكل فصائله أيد السادات في مواجهة الانتفاضة الشعبية، وأدانها بإعتبارها مؤامرة شيوعية. إحتضن السادات المتأسلمين خوفا من الجماهير، ودفعت مصر الثمن.. ثم دفع هو الثمن.

ولا أقول ذلك كله لأعتذر عن مشاركتنا النشطة في الانتفاضة .. بل على العكس كنا علي صواب، وفعلنا ما هو واجب، وكذلك الجماهير كانت علي صواب . ولكن.. وهنا هو المحك، هل يتعين علينا أن نتعلم الدرس؟ لنتقن الفعل الجماهيرى، لنفعله ونحن نعرف متى ينتهى وإلى أين ينتهى. لقد قال لينين يوما «لا تعبثوا بالثورة» وقال «لاتتلاعبوا بالعصيان» وشبه هؤلاء المتحمسين جداً، والمتشددين جداً، والمطالبين جداً بعمل ثورى حاسم حازم فورى مهما كانت النتائج بأنهم كالطفل الذى يلعب بعود ثقاب فيحرق المنزل.

كذلك فإن البعض يتصور ان لعبة النضال الجماهيرى تشبه لعبة الشطرنج، بمعنى أن أدواتها واحدة ثابتة لا تتغير، وقواعد اللعب فيها واحدة ثابتة لا تتغير، وأساليب تحريك القطع واحدة ثابتة، وحتي الأساليب والمناورات تكاد تكون ثابتة. بينما الأمر غير ذلك في الحياة اليومية، ،ففى السياسية، وفى المجتمعات تتغير أحجار اللعبه، ورسومها، وتخومها، وعناصرها ومن ثم تتغير أساليبها.. والويل لمن لا يعرف ذلك.

وهؤلاء الزملاء الذين يطالبوننا مثلا بمزيد من الاضرابات العمالية، والاعتصامات العمالية ينسون أن الواقع تغير، وأنه ليس بالضرورة أن يكون الاضراب العمالى عملا ثورياً.. بل قد يكون مؤامرة.

كمثال: زملاؤنا فى أحد مصانع قطاع الاعمال [مصنع دواء] فوجئوا بعناصر نقابية معروف عنها إنتمائها للأمن وعلاقتها به، تتحمس وتثير الحماس حول حصول الادارة العليا علي نسب من الحوافز أعلى بكثير مما تستحق، وذلك طبعاً على حساب ما ناله العمال. وكان بالامكان محاولة تسوية الأمر عن طريق الشكاوي والاحتجاجات والنشر في الصحف، لكن هذه العناصر المريبة إرتدت ثياباً ثورية زائفة، ودعت إلي إعتصام فورى للعمال. وإنساق زملاؤنا داعين للاعتصام، وعندما أصبح الاعتصام واقعاً إختفت العناصر المريبة تاركة زملاءنا في المواجهة. ومنذ

بدء المواجهة إكتشف المعتصمون أن إدارة المصنع وجهات الأمن في غاية السعادة. إنتاج المصنع راكد. ولا يجد من يشتريه لانه لا يستطيع منافسة المستورد. تراكم الراكد وتراكم، وكان لابد من منقذ، والاعتصام هو الانقاذ، فإيقاف الانتاج هو الحل الأمثل. العمال لا يحصلون علي حوافز، ولاشئ سوي الأجر الأساسى.. بعد أيام بدأ العمال يقلقون فلا أحد يتصل بهم، ولا أحد يطلب إليهم فض الاعتصام. ثم بدأوا هم يتصلون.. والادارة تتهرب، وأخيراً بدأت الادارة تملى شروطها .. وتعلن أنها ستغلق المصنع، والعمال حيارى.. وبعد إلحاح قبلت الادارة خضوع العمال لشروط مجحفه.. لا حوافز، لاأجر إضافى.. وطرد عدد من زملائنا من المصنع إلى عمل إدارى.

هذه تجربة يجب أن توضع فى الاعتبار. ويجب أن نعرف من الآن: ليس كل من يرتدى ثياباً ثورية، يكون ثورياً بالضرورة. ليس كل أضراب يكون في صالح العمال، وعلينا أن نفرق من الآن وبحرص شديد بين إضراب مفيد، وإضراب ضار. وهو مالم يكن موجوداً من قبل.

كذلك هناك إضربات خادعة لأنها لصالح «الرأسمالية». رجال أعمال نهبوا أموال البنوك، وإذا ما حاولت البنوك إقتضاء حقها، دفعوا عمال مصانعهم إلى الاضراب والتظاهر والاحتجاج، وتنظيم مسيرات إلى مجلس الوزراء ومجلس الشعب .. فالبنوك إن صممت على أخذ حقها..

المصنع سيغلق أبوابه، والعمال سيشردون، وهكذا أتقن رجال الاعمال المصريون لعبة اللعب «بالبروليتاريا» لحسابهم . والغريب أن هذه المسيرات والاضراب بالذات تجد قبولا من جهات الأمن، ولا يتعرض لها أحد.

والأمثلة عديدة.. والمطلوب هو أن نفهم الواقع، والا نقع في الفخ فنوقع معنا عمالا بسطاء وثقوا بنا.

ومرة أخرى ليس معنى ذلك أننا ضد أى إضراب. بل على العكس فإن الاوضاع المتردية والتى تزداد تردياً تتطلب منا عملا حازماً، وثورياً حقاً. وتتطلب تنظيم كافة أشكال الاحتجاج والاعتصام والاضراب..

ولكن عندما يكون ذلك مفيداً.. وممكنا.

كذلك فإننا بحاجة إلى أن نتقن فن العمل العمالى الهادئ فيما يصطلح على تسميته بالمدن الجديدة، فمصانع هذه المدن التى تمتلكها غالباً رأسمالية رثة لا تؤمن بأى قيم أو أى قانون .. تفرض على العامل وقبل أن يوقع عقد العمل، أن يوقع على إستقالته.. وتحصل علي توقيعه على إستمارة ٦ [الاستمارة التى يبلغ فيها صاحب العمل والعامل معاً لهيئة التأمينات الاجتماعية إنهاء التعاقد] وأحيانا يجبر على التوقيع على شيك على بياض، وهى تحرم العمال من أية تكوينات نقابية، وهى تضغط الآن من أجل مزيد من الاجحاف بحقوق العمال فى

قانون العمل الموحد..

في وضع كهذا، كيف نعمل؟ كيف نقيم لانفسنا قاعدة عمالية في هذه المدن التى هى بالضرورة - شئنا أم أبينا - حاضنة الطبقة العاملة الجديدة [فبعد إنهاء عملية الخصخصة لن يبقى لنا سوى هؤلاء].. إن أى تعجل أو إساءة إستخدام للشعارات قد يؤدى إلي تدمير بذور نشاطنا الجديد في هذه المواقع، فالرأسماليون هناك متوحشون، وفى أيديهم إستقالات مسبقة للعمال، والعمال هناك يحصلون علي أجور ذات مستوى أعلى من نظرائهم.. وإن فقدوا العمل فلا أمل أمامهم .. فسوق البطالة المتسع يحلق فوق رؤوس الجميع. ومن ثم فمن الضرورى أن نعمل فى هذه المواقع بهدوء وحذر حتى تستقر قواعدنا هناك، وتكون قادرة على فعل حقيقى ومؤثر.

.. وأخيرا، أقر وأعترف اننا بحاجة إلى تحرك أكثر، ولكن أعقل. أكثر فعالية ولكن أكثر إتقاناً.

ولم يكن ما سبق من أمثلة، سوى أمثلة، لا أقصد بها إحباط أحد فهناك عشرات الأمثلة لاضرابات وإعتصامات وتحركات ناجحة تماماً، وحققت للعمال بعضاً من مكاسب. والفارق هو الدقة والاتقان وأن تعرف متى؟ وأين؟ . وأن نعرف الفارق بين فعل مفيد، وفعل غير مفيد.

* * *

وأكاد ألمح إبتسامة ساخرة على شفاه قراء عديدين. ها أنت تنسى ما وعدت به من موضوعية ولجأت إلى المديح والمباركه والتبرير.. ولم تقل بخطئ أو شبه خطأ.. أو ليس تجمعكم هذا قادراً على الخطأ؟ وأجيب بالقطع. أخطأنا، ونخطئ، وسنخطئ.

بل إن أخطاءنا كثيرة ومريرة.

ولنبدأ بالسياسة، نحن نعانى ولم نزل من ذلك العشق اليسارى، القديم للعموميات. نطلق شعارات عامة، هى صحيحة تماماً لكنها لا تحرك أحداً، أو تؤثر فى أحد. كمثال.. نحن مثلا نطلق شعارات حول «إصلاح التعليم» هذا كلام عام، بل عام جداً، نحن نقوله، والحكومة تقوله، والجماهير تستمع إليه من مختلف الاتجاهات، بل وحتى «الاخوان المسلمون» يقولونه [ولكنهم يضمرون «إصلاحا» على مذاقهم هم، أو وفق رؤيتهم هم] فكيف لهذه الألفاظ العامة أن تؤثر فى أحد؟

والحقيقة أننا هنا نخلط ما بين الفلسفة والسياسة. فى الفلسفة نتكلم فيما هو عام فقط، فإن دخلنا في التفاصيل أخطأنا، لأن الفلسفة ما وضعت لذلك. أما فى السياسية فأنت يتعين عليك أن تتجاوز ما هو عام لتأتى إلى ما هو خاص. إلى ما يهم الناس، ما يوجعهم يومياً.. ففى التعليم مثلا.يتعين علينا أن نتحدث عن الدروس الخصوصية وزيادة السنة السادسة للتعليم الابتدائى، وعن مسألة تحسين المجموع .. الخ،

أما العموميات فهى شعارات عابرة للقارات، تأتى من بعيد، وتذهب إلى بعيد، ولا تؤثر فى أحد.

نحن إذن نتفلسف ولا نقول سياسة. وقول السياسة ليس أمراً سهلا، لأن التفاصيل تتطلب منك فهما عميقاً للواقع، وفهماً أعمق للمشكلة وأدوات حلها.. ولهذا فالشعار العام هو مهرب وليس مرفأً.

وإذا أتينا إلى ساحة العمل الجماهيرى نجد أننا مقصرون. فلسبب ما، ربما الإدعاء بأننا مهتمون بالعمال والفلاحين.

قمنا بتفكيك أمانة العمل الجماهيرى، وحل محل محلها « أمانة العمال» و«أمانة الفلاحين»، وهناك أيضا جناحان «إتحاد النساء التقدمى» و«إتحاد الشباب التقدمى». وإنساقت كل هذه التجمعات الاربع كل فى طريق. لاضابط لا تنسيق، لارؤية شاملة، لاتوجه جمعى.. فنحن نعمل فى العمال بخطه، غير خطة الشباب، غير خطة النساء.. وهكذا. لقد إفتقدنا الخطة الاستراتيجية الشاملة للعمل وسط الجماهير، وإفتقدنا القدرة على رسم تكتيك جماعى لعمل جماهيرى يكمل بعضه البعض علي المدى القومى. ولأننا فى التجمع ديمقراطيون أكثر مما يجب فقد تركنا كل مجموعة تعمل على هواها بدعوى أن أهل مكة أدرى بشعابها، أوبدعوى حق المنظمات الحزبية فى تحديد خطط عملها..

هذا الامر يحتاج إلى تصويب.. حاسم وعاجل.

وفي العمل التنظيمي قلت أننا ديمقراطيون أكثر مما يجب. فمثلا يرشح الزميل نفسه عضواً في اللجنة المركزية وينجح لأننا نترك آليات الانتخاب دون أى تدخل. ثم يختفى لأربع سنوات [يختفى من حضور الاجتماعات ومن الفعل التنظيمى] ثم يحضر إلى المؤتمر التالى، يتحدث حديثا حلواً، أو قاسياً، يتشدد، أو يغازل القاعة ويرشح نفسه وينجح .. ثم لا يفعل شيئا. وهذا خطأ وخطر لأنه يستخدم الديمقراطية ليفسد الديمقراطية، ولأن يحتجز لنفسه مكانا كان يمكن أن يشغله من هو أكثر فاعلية. وهكذا هناك أخطاء عديدة مماثلة لابد من أصلاحها لائحياً.

ولأننا ديمقراطيون أكثر من اللازم. نترك للمنظمات الحزبية حرية الفعل المنطلق أو حتى عدم الفعل.. فمثلا «إتحاد الشباب التقدمى» بدأ بصيغة إيجابية، تولت المسئولية فيه عناصر مدربة، قادرة، فاعلة تلقنت فنون العمل الشبابى فى منظمة الشباب. ثم أتى جيل فجيل، وأتى شبان قليلي الخبرة تولوا وحدهم تماما زمام المسئولية، ونحن نعتبر أنه من الخطأ أن نفرض عليهم أحداً من خارجهم ليوجههم، ليسهم معهم فى حل المشكلات ، او ليوجههم لحل الخلافات. تركناهم حتى أوشك عملنا الشبابى أن ينقرض. ثم فتشنا فى اللائحة، ومع بعض التعسف تدخلت القيادة لتنقذ ما يمكن إنقاذه، فإزدهر العمل الشبابى من جديد أو

أوشك.

نحن نخلط بين الديمقراطية فى المجتمع، والديمقراطية فى الحزب، في المجتمع يصلح شعار «إن آليات الديمقراطية تقوم بذاتها بتصويب الاخطاء وإستبعاد المخطئين» ولكن في الحزب عندما يأتى موعد التصويب، أى الانتخاب يكون العمل قد إنهار، وإنتهى، ولا أمل فى إصلاح ما هو موجود.

ولست أقصد بذلك نقد ديمقراطيتنا الحزبية، ولا أدعو لتضييق الخناق عليها، فقط أعتقد أننا بحاجه إلى آليات أكثر فعالية، وبأسلوب ديمقراطى أيضا، لتصويب الأخطاء.

فلم لا يكون من حق القياده إستبعاد كل من لا يحضر ٥٠٪ على الأقل من اجتماعات المستوى الحزبى، إستبعاده من حق الترشيح فى الانتخابات الحزبية المقبلة؟ أليست هذه ديمقراطية أكثر عقلا؟. ولم لا يكون للقيادة ان تدعو وفى أي وقت تراه ضرورياً إلى مؤتمر طارئ للمستوى الحزبى السئ الأداء، لتشرح الامر للاعضاء، وتضعه أمام نظرهم، فقد ينتخبون قيادة جديدة. أو قد يصححون أداء القياده ذاتها.

هل أتحدث عن أخطاء أخرى..

عملنا الطلابى ضعيف جداً.

عملنا الفلاحى أشد ضعفاً [وقد إخترعنا شيئاً أسميناه إفتعالا إتحاد الفلاحين - تحت التأسيس - وظل كما هو لافته بلا فلاحين وبلا تأسيس]..

كذلك نحن بحاجة إلى أسلوب جديد لادارة الاجتماعات، كى تخلو من الثرثرة والكلمات الكبيرة التى لا يستوعبها العضو الجديد، وتشعره بالملل وتدفعه إلى الهرب. إجتماعاتنا مملة وردئية الإدارة، وخالية من الالهام، ومن الفعل المباشر المفعم بالحيوية، الامر الذى يجعل من الحزب مصفاة كبيرة، تتلقى أعضاء كثيرين جداً، وتفقد عديداً منهم وبسرعه. ولا يتبقى إلا من قرر أن يحتمل. أما إجتماعات المستويات الاعلى [المؤتمر واللجنة المركزية] فإن كثره الحديث من عدد محدود يريد أن يتكلم فى كل شئ، ومن زملاء يريدون أن يسمعوا أنفسهم ،لا أن يُسمعوا رأيهم، تجهض ديمقراطية الاجتماع.

ثم.. كم أتمنى أن نصاب جميعا بمرض جميل أسمه «الكستروفوبيا» أي «فوبيا الاماكن المغلقة» هذا المرض الجميل نحن فى أشد الحاجة إليه، فلقد فرض علينا النظام ولم يزل أن نظل سجناء فى مقارنا .. فنقول ما نشاء فى مقارنا، نجتمع ، نصرخ، نتحدى، نتجاوز الحدود أحياناً. لا بأس، مادمنا أسرى داخل المقار.

ورويداً رويداً إعتدنا على ذلك، أخذنا نخشى الاماكن المفتوحة،

نستسهل القول والفعل والتجمع داخل المقار.. مع أن بالامكان.. أن ننفذ ولو من ثقب إبرة نحو العالم المتسع.. الشارع.

فهل من سبيل لأن نصاب بالمرض الجميل، مرض كراهية الأماكن المغلقة؟

* * *

ولكن البعض وحتى من زملائنا لا يكتفى بذلك كله ويقول حسنا أنتم تفعلون، تقولون، تنتقدون، ولنقل أنكم لا تتهادنون، ولكن أنتم تتفاهمون مع الحكم.

وهل فى ذلك عيب؟ هل ثمة عيب فى أن نتفاهم مع الحكم؟ بل هل يمكن أن ترفض التفاهم إن عرض عليك ؟.

وهو - للأسف - لا يعرض علينا التفاهم إلا فى زوايا محدودة جداً.. ليس لأننا لسناً أهلا لذلك، وانما لأن دوائر حاكمة ليست أهلا لأى تفاهم. فإن أتيح التفاهم تفاهمنا، عرضنا رأينا بكرامة وإعتزاز، وإستمعنا لرأيهم بكرامة وإعتزاز. فان وصلنا إلى مشترك كان بها. وإلا فلكل سبيل. فأى عيب فى ذلك؟

أقول أى عيب؟ وأنا أقرر أن العيب كامن عند بعض الدوائر الحاكمة، فهى تكاد تخشى أى قدر من التفاهم، وتكاد تتمنى أن تستيقظ يوماً فلا تجدنا علي الخريطة. وان كان بعض منهم يؤمن بأهمية التفاهم

ويسـعى إليـه. وليس من الحكمـة ولا من الصـواب، ولا من الاحتـرام الواجب أن نغلق باباً في وجه من يريد التفاهم.طالما أن أحداً لا يفرض - ولا يستطيع ان يفرض - علينا ما لا نقبل.

ويتحدث البعض عن صفقة إنتخابية.. وأقول تأملوا من إستطاعوا أن يقتحموا حقل النار الملتهبة ليفوزوا بمقعد في مجلس الشعب. من منهم لم يكن يستحقه بفوز جماهيرى ساحق؟ بل تأملوا من سقطوا، وستجدون كثيرين كانو جديرين بالفوز وبالفوز الساحق.. لولا التدخلات. فأية صفقة هذه؟

* * *

وأخيرا نحن لا نضيق بالنقد. بل لقد إعتدنا عليه حتى من زملائنا. بل لعل إجتماعاتنا تشهد فى بعض الاحيان حالات مرضية من جلد الذات. فالبعض لا ينظر إلينا، وإلى ما نفعل إلا بعين واحدة.

عين لا ترى إلا الاخطاء الصحيحة أو المصطنعة، لا ترى إلا ما هو سلبى ، وإن لم تجد ما يسعفها، إخترعت.

..لكنها وفي كل الاحوال لا تري الايجابيات.

لاترى أننا قد رسمنا على خريطة الوطن وشماً لا يمحى لليسار المصرى. أصبح اليسار بنا، ومعنا جزءاً هاماً وفاعلاً من نسيج هذا الوطن. أصبحنا ملح الارض. موجودون. فاعلون. متداخلون. متغلغلون

فى مناحى الشأن المصرى. إن قلنا أنصت الجميع، قد لا يوافقون، ولكنهم وبلا شك يحترمون رأينا.

وحتى النتائج المتواضعة فى إنتخابات مجلس الشعب لاندرك قيمتها الا بالمقارنة بالآخرين فحزب الوفد، ذو التراث المكين، والتأثير التاريخى نال ما إنتهى فى نهاية المطاف إلى أربعة مقاعد..

وبرغم كل شئ،. وبرغم كل النواقص، لا أحد يستطيع أن يتجاهل أننا وبفضل سياسات عاقلة ومتزنة قد أصبحنا وبالفعل حزباً يتمتع باحترام واسع وسط أوساط اجتماعية متسعة، يختلفون معنا لكنهم، يحترموننا، يحترمون رموزنا، ويحترمون رأينا، ويحترمون جريدتنا، بل ويؤكد الكثيرون منهم أنها الأكثر إحتراما، والاكثر صدقاً ومصداقية.

وهذا كله لا يكفى فنحن بحاجة إلى جهد أكبر بكثير كى نصحح الاخطاء وهى كثيرة، وما أوردته منها فيما سبق ليس الا نماذج.. مجرد نماذج.

* * *

ويبقي سؤال أخير

هل للتجمع مستقبل؟

وإجيب وبلا تردد. التجمع هو المستقبل.

خاتمه

وما من حاجة إلى خاتمة..

فنحن فى البداية لم نزل..

والطريق لم يزل طويل طويل..

مراجع الفصل الأول
الماركسية عبر أكثر من ولادة.

• مؤلفات باللغة العربية ومترجمة.

- أحمد حمروش- قصة ثورة يوليو - خمسة أجزاء.
- أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ثورة ١٩١٩.
- بوزويف، غرونوف - ما هى الماركسية؟.
- تيخون بافلوف - متى يلحق الاتحاد السوفيتى بالولايات المتحدة ويسبقها؟.
- تيوردور روز نشتين - دمار مصر.
- خليل سعاده [بك] - أسرار الثورة الروسية.
- دافيد لاندز - بنوك وباشوات.
- رفعت السعيد [دكتور] - كلام فى السياسة.
- رفعت السعيد [دكتور]- الأساس الاجتماعى للثورة العرابية.
- رفعت السعيد [دكتور] - تاريخ الحركه الشيوعية المصرية [خمسة مجلدات].
- رفعت السعيد [دكتور]- تاريخ الصحافة اليسارية المصرية [جزاءن].
- رفعت السعيد [دكتور] - الجريمة - وثائق إغتيال شهدى عطية الشافعى.
- رفعت السعيد [دكتور] - عصام الدين حفنى ناصف.
- رؤوف عباس [دكتور] - الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢.
- ستراشون - التمثيل الشعبى الاشتراكى.
- سعيده محمد [دكتوره] - دور الأرمن ضد ثورة ١٩١٩ [غير منشور].
- سلامة موسى - تربية سلامة موسى.

سلامه موسى - الاشتراكية

- شبلى شميل [دكتور] - الاعمال الكامله - [مجلدان]
- صلاح عزام - مارس ١٩١٩ الدامى والفلاحون.
- طاهر عبد الحكيم - الاقدام العارية.
- عباس محمود العقاد - مطالعات فى الادب والسياسه.

- عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى.
- عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد.
- عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية ١٨٩٩ - ١٩٥٢.
- على رفاعة الانصارى - فى طريق الحرية.
- فتحى عبد الفتاح [دكتور] شيوعيون وناصريون.
- فريدريك إنجلز - عيد الامم فى لندن.
- كارل ماركس ، فريدريك إنجلز الاعمال الكامله - جـ١
- لينين - المؤلفات الكاملة - جـ٣١ - جـ٣٢ - جـ٣٧
- لينين - رسائل من بعيد.
- لينين - الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكى
- لينين - الشيوعية اليسارية عبث أطفال.
- لينين - بصدد الماركسية.
- لينين - رسائل إلي منظمات الحزب في روسيا (١٩٠٢ - ١٩٠٤).
- مارسيل شيريزى - تقرير عن تاريخ الشيوعية المصرية [مخطوط] - [مودع في أرشيف الحزب الشيوعى الايطالى].
- مصطفى طيبه - رسائل سجين سياسى إلى حبيبته.
- محمد أنيس [دكتور] أسرار ثوره ١٩١٩.
- محمد حسين هيكل وآخرون - السياسة المصرية والانقلاب الأخير.
- مورو بيرجر - البيرقراطية والمجتمع في مصر الحديثة.
- ولى الدين يكن - الصحائف السود.

- **وثائق وقواميس.**

- دستور المملكة المصريه ١٩٢٣.
- الدستور - مجموعة الاعمال التحضيرية لدستور ١٩٢٣ [مجلس الشيوخ - ١٩٤٠].
- الارشيف العام لوزارة الداخلية البريطانية ١٩٢١ - المتحف البريطانى.

- أرشيف وزاره الداخليه المصريه ١٩٢١.
- تقرير إتهام مقدم من النيابة العمومية لحضرة قاضى الاحاله بمحكمة الاسكندرية فى قضية، الجناية رقم ٣٩٣ - محرم بك ١٩٢٤.
- حيثيات حكم محكمة جنايات الاسكندرية فى قضية الشيوعية المتهم فيها محمود حسنى العرابى وآخرون ١٩٢٤.
- سبانو . تقرير عن أوضاع الحركة الشيوعية المصرية عام ١٩٣٥ [مودع فى أرشيف الحزب الشيوعى الايطالى].
- مجموعة وثائق منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى [حدتو]، والحزب الشيوعى الموحد، والحزب الشيوعى المصرى (حدتو) [مودعه ضمن أرشيف معهد الدراسات الاجتماعية - أمستردام]
- محفظة رقم ١٠٥ داخلية أفرنكى (١٨٩٤] - دار الوثائق المصرية.
- معجم البناء الحزبى [دار التقدم - موسكو].

• **مؤلفات أجنبية:**

- Afaf Lutfi Alsayyid - Egypt and Cromer.
- J - stalin - Marxism and the national and colonial question.
- Lord LLoyed - Egypt Since Cromer.
- M.s. Agwani - Communism and Nationalism In the Arab East.
- Murius Deeb - Party Politics in Egypt, wafd and its rivals,1919 - 1939.
- P.M.holt - Political and Social Changes in Modern Egypt.
- Suliman Bashear -Communism in TheArab East. - 1918 - 1928.
- Tareq ismail &Rifaat Elsaid - The Egyptian Communist movement 1920 -1988.
- Nicolas Paparidoti - Petit Resume de movment Politique grec en Egypte.
- W.laqueur - Communism and Nationalism in The Middle East.

• صحف ودوريات:

- الأهالى - ١٩١٩.
- الأهرام - ١٨٩٢ - ١٩٠٨ - ١٩٢١ - ١٩٢٣ - ١٩٢٤.
- الجريدة - ١٩١٠ - ١٩١١.
- إجيبسان ميل - ١٩١٩.
- السياسة - ١٩٢٦.
- المؤيد - ١٨٩٠.
- الهلال - ١٨٩٤.
- مجلة الفلاح الاقتصادى - ١٩٣٨.

- International press Correspandance - 1923 - 1928.
- The Communist international - 1939.
- The Labour Monthly - 1924.

مراجع الفصل الثانى

التأسلم السياسى وروافده
الاخوان المسلمون

• مؤلفات باللغة العربية ومترجمة.

- أبو الأعلى المودودى - نظريه الاسلام السياسية.
- أبو الحسن الندوى - مذكرات سائح في الشرق العربى.
- أحمد أنس الحجاجى - روح وريحان.
- أحمد أنس الحجاجى - الرجل الذى أشعل الثوره.
- أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العامله منذ نشأتها حتى ١٩١٩.
- أنور الجندى - قائد الدعوة ، حياة رجل، وتاريخ مدرسة.
- أنور الجندى - الاخوان المسلمون فى ميزان الحق.
- جرائم عصابة الاخوان - مجموعة كتاب.
- جمال الدين الافغانى - خاطرات جمال الدين.
- جمال سليم - البوليس السياسى يحكم مصر.
- حسن البنا - رسائل المؤتمر الخامس.
- حسن البنا - القول الفصل.
- حسن البنا - الرسائل الثلاث.
- حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية.
- حسن البنا - مجموعة الرسائل.
- حسن البنا - رسالة التعاليم.
- حسن البنا - بين الأمس واليوم.
- زينب الغزالى - أيام فى حياتى.
- زكريا البيومى [الدكتور] - الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية.

- رفعت السعيد [الدكتور] - حسن البنا، متى وكيف ولماذا ؟
- رفعت السعيد [الدكتور] - صفحة من تاريخ جماعة الاخوان.
- رفعت السعيد [الدكتور] - ضد التأسلم.
- رفعت السعيد [الدكترو] - والصمت لا.
- رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام.
- رشيد رضا - الخلافه أو الامامة العظمى.
- رشيد رضا - تفسير القرآن الكريم.
- رشيد رضا - الوحى.
- سيد قطب - معالم في الطريق.
- سيد قطب - فى ظلال القرآن.
- سيد قطب - مقومات التصور الاسلامى.
شبلى شميل [الدكتور] - فلسفة النشوء والارتقاء.
- شبلى شميل [الدكتور] - مجموعة الأعمال [مجلدان]
- شكرى مصطفى - التوسمات (مخطوط).
- صفوت منصور - المنهج الفكرى للعمل الاسلامي.
- صلاح شادى - الشهيدان - حسن البنا وسيد قطب.
- صلاح شادى - حصاد العمر.
- طارق البشري - الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢. [الطبعة الأولى].
- عبد الخبير الخولى - قائد الدعوة الاسلامية، حسن البنا.
- عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية.
- عبد القادر عوده - التشريع الجنائى الاسلامى.
- عصام حسونه - ٢٣ يوليو وعبد الناصر .
- على جريشه [الدكتور] - أصول الشريعة الاسلامية.
- محمد حسن أحمد - الاخوان المسلمون فى الميزان. [إسم سرى].
- محمد حبيب أحمد - نهضة الشعوب الاسلامية في العصر الحديث.
- محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية.

- محمد الغزالى - الاسلام والاوضاع الاقتصادية.
- محمود عبد الحليم - الاخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ.
- محمود الصباغ - حقيقة التنظيم الخاص.
- موسى إسحق الحسينى - الاخوان المسلمون، كبرى الحركات الاسلامية الحديثة.
- ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول.
- ولى الدين يكن - التجاريب.

• كتب تراثية وقواميس

أبو بكر الطرطوشى - سراج الملوك.
إبن الاثير - الكامل فى التاريخ.
- إبن حزم - الفصل.
- الشاطبى - شطب الموافقات.
- المبرد - الكامل فى اللغة والأدب.
- مختار الصحاح.

• أوراق قضائية ووثائق.

- الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الاخوان المسلمين - ٨ ديسمبر ١٩٤٨. والمذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن عمار بك وكيل وزارة الداخلية.
- البرنامج التثقيفى لجماعة الاخوان المسلمين.
- رسالة من خالد محيى الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس قيادة الثورة مؤرخة فى ١ - ٣ - ١٩٥٣ [خطية]
- محضر أقوال الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة العليا فى قضية إغتيال الدكتور فرج علي فوده.
- محضر تحقيق النيابة في القضية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عسكرية عليا، المتهم فيها سيد قطب وآخرون.

- محضر تحقيق النيابة في الجناية رقم ١٠٧١ لسنة ١٩٥٢ والخاصة بمقتل حسن البنا.
- محاكمات الثورة - الكتاب الأول - محاكمة ابراهيم باشا عبد الهادى.
- محاضر محكمة الشعب - ا لكتاب الثاني، والثالث والرابع.
[المتحف البريطانى] 1949).(13597 - 73474 - F.o. 371-

• صحف ودوريات

- الأخبار - ١٩٠٦.
- الأخبار - ١٩٧٣.
- البصير - ١٨٧٨.
- آخر ساعه. ١٩٤٨.
- الأخوان المسلمون - ١٩٤٥ - ١٩٤٦.
- الدعوة - ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٧٧ ، ١٩٨٠.
- المباحث - ١٩٥١.
- المسلمون - ١٩٥٣.
- المصري - ١٩٤٨.
- المصور - ١٩٥٢ - ١٩٥٥.
- المقتطف - ١٨٧٦.
- الوفد المصرى - ١٩٤٦.
- الهلال - ١٩٦٨.
- النذير - ١٩٣٨ - ١٩٣٩.
- شبرا - ١٩٣٨.

- Cahiers de L' orient Contemporaine (1940)
- Monde non - Chretien. (1923).

• مؤلفات أجنبية:

Adams - Islam and modernism in Egypt.

Badawi, Zaki - les Probleme du travail et les organisations ouvries.

- Berger, M. - The Arab World today.

- Bohem,Jaeob - Les Freres Mouselmane.

- Binin and Lockman - Workers on the Nile.

- Hayworth , dune - Religous and Political trends in Egypt.

- Hourani , Albert - Arabic thought in the Libral age.

- Khadduri , M.- political trends in the Arab World.

- Mitchel , R. - The Society of Muslim Brothers.

Resner ,Lawrance - Etenal Stranger - the Pilot of modern jew From Bagdad to Casablanca.

- Wheellook, Kwith - Nassers New Egypt.

مراجع الفصل الثالث
الناصرية .. الاسطورة والواقع

• مؤلفات باللغة العربية ومترجمة:

- أجاراشيف - عبد الناصر.
- أسعد عبد الرحمن (الدكتور) - البيروقراطية والثورة وتجربة البناء الداخلى.
- أنيس صايغ (الدكتور) - قضايا عربية (إشراف).
- أنيس منصور - فى صالون العقاد.
- أنتونى ناتنج - ناصر.
- إيجور بيليايف وبريماكوف - مصر فى عهد عبد الناصر.
- جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة.
- رفعت السعيد (الدكتور) - تاريخ الحركة الاشتراكية المصريه ١٩٠٠ - ١٩٢٥.
- رفعت السعيد (الدكتور) - تأملات فى الناصرية.
- رفعت السعيد (الدكتور) - أوراق ناصريه فى ملف سرى للغاية.
- رفعت السعيد (الدكتور)، وآخرون - عبد الناصر وما بعد.
- رفعت المحجوب (الدكتور) - النظام الاشتراكى في الجمهورية العربية المتحدة.
- طلعت عيسى (الدكتور) - نظرية الاشتراكية العربية.
- عبد المغنى سعيد - الحركة النقابية، جذور النضال وأبعاده.
- عصمت سيف الدولة (الدكتور) - هل كان عبد الناصر دكتاتوراً؟
- غليزرمان - قوانين التطور الاجتماعى، طبيعتها وإستخدامتها.
- صلاح مخيمر (الدكتور) - النظرية العلمية للاشتراكية.
- كمال رفعت وآخرون - ٢٣ يوليو ، خمسة أبعاد.
- ماركس وإنجلز - المؤلفات الكاملة جـ ٣٧.
- محمد حسنين هيكل - ما الذى جرى في سوريا؟.
- محمد المويلحى - حديث عيسى بن هشام.
- مصطفى كامل السيد (الدكتور) - المجتمع والسياسه فى مصر.

● وثائق وقواميس.
- برنامج التثقيف الأول - أمانة ا لتنظيم - الاتحاد الاشتراكى العربى.
- تقرير لجنة المائة عن الميثاق الوطنى.
- حزب الاحرار الاشتراكيين - البرنامج العام.
- الحزب الوطنى الديمقراطى - البرنامج الانتخابى (١٩٨٤).
حزب المستقبل (تحت التأسيس) - البرنامج
- حزب الوفد الجديد - البرنامج.
- الميثاق.
- جمال عبد الناصر - الخطاب الافتتاحى للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية (١٩٦١).
- جمال عبد الناصر - مجموعة خطب

● مؤلفات أجنبية
- Patric Seale - The Struggle For Syria.
- P. M.Holt - Political and Social Change in modern Egypt.
- Peter Mansfield - Nasser's Egypt.
- R . Herir Dekmejian - Egypt Under Nasser.

● صحف و دوريات
- الشعب - ١٩٨٤.
- الطليعة - ١٩٧٤.
- الطريق (لبنان) - ١٩٧٢.
- روز اليوسف - ١٩٨٤.

• صدر للمؤلف •

- الأساس الاجتماعى للثورة العرابية .
- تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر.
- كتابات فى التاريخ .
- صفحات من تاريخ مصر .
- صفحات من تاريخ جماعة الإخوان المسلمين .
- نقولا حداد.
- عصام الدين حفنى ناصف .
- ثلاثة لبنانيين فى القاهرة .
- محمد فريد ، الموقف والمأساة.
- سعد زغلول .. بين اليمين واليسار .
- مصطفى النحاس .. السياسي والزعيم والمناضل .
- حسن البنا .. متى وكيف ولماذا ؟.
- أحمد حسين .. كلمات ومواقف .
- تأملات فى الناصرية .
- أوراق ناصرية فى ملف سرى للغاية.
- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥.
- اليسار المصرى ١٩٢٥ -١٩٤٠.
- تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠.

- منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠-١٩٥٧.
- تاريخ الحركة الشيوعية المصرية.(الوحدة - الانقسام - الحل) ١٩٥٧ - ١٩٦٥.)
- الصحافة اليسارية فى مصر ج١ ١٩٢٥ -١٩٤٨.
- الصحافة اليسارية فى مصر ج٢ ١٩٥٠- ١٩٥٢.
- هكذا تكلم الشيوعيون.
- أرشيف اليسار (سيرة ذاتيه لمناضلى اليسار)
- الجريمة - وثائق اغتيال شهدى عطيه الشافعى .
- ماركسية المستقبل.
- كتابات عن الماركسية.
- ماذا جرى لمصر؟.
- مصر مسلمين وأقباطاً.
- والصمت لا ..
- الارهاب .. إسلام أم تأسلم ؟.
- المواجهة - بين رفعت السعيد وعادل حسين.
- ضد التأسلم .
- التأسلم فكر مسلح .
- اليسار ، الديمقراطية ، التأسلم ..
- مجرد ذكريات (ثلاثة أجزاء)
- التنوير عبر ثقب إبرة.

- العلمانيه بين الاسلام والتأسلم.
- كلام فى السياسة
- السكن فى الأدوار العليا (رواية)
- البصقة(رواية)
- رمال (روايه)

- The Communist movement in Egypt - 1920- 1988-(with other.)

- Contre L'integrisme islamiste- (with others).

• ترجمات:

- اضواء على الهند الصينيه – مالكولم سالمون.
- مسأله الأمه – يلينامودر جنيسكايا.
- الارض (روايه) – إميل زولا –

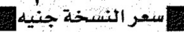
فهرس

رقـــم الإيداع : ٢٠٠٢/١٥٢٥٥
الترقيم الدولى : 977-5130-22-0

لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

٣



للطفل.. للكتاب.. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب